



الجامعة الإسلامية - غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

المرأة في شعر الصعاليك في الجاهلية والإسلام رسالة ماجستير

إعداد الطالب

أحمد سلمان مهنا

إشراف

الأستاذ الدكتور / نبيل خالد أبو علي

رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة
الإسلامية - غزة، كمتطلب تكميلي لنيل درجة الماجستير

1428هـ - 2007 م

الإهداء

إلى والدتي العزيزة... وفاءً وعرفاناً..

إلى زوجتي وأبنائي (آية وسمين وسامر)..

إلى إخوتي وأخواتي..

إلى كل من ساهم في إخراج هذه الرسالة إلا عجز الوجود،،،

أقربى هذا الجهد المتواضع

الباحث

شكر وتقدير

" لئن شكرتم لأزيدنكم " إبراهيم : من آية (7) .

الحمد لله العلي العظيم الذي مَن عليّ بنعمه فألهمني روح الصبر
والمثابرة لأتم هذا العمل، وما كان ليتم إلا بفضلته وتوفيقه، أشكره شكراً
عظيماً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه وبعد :

فإنني يسعدني في هذا المقام أن أتوجه بخالص الشكر وعظيم الامتنان لوالدتي
الحبيبة الغالية على ما بذلته من جهد ورعاية وعناية ودفع وتشجيع، كي أصل إلى ما أصبو
إليه .

كما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأستاذ الدكتور نبيل خالد أبو علي لتكريمه
بالإشراف على دراستي هذه، ولما قدم لي من نصائح ثمينة ساهمت في إخراج هذه
الدراسة على هذه الصورة .

كما وأتقدم بالشكر والتقدير لزوجتي على مؤازرتها ومساندتها لي في كل خطوة
من خطوات هذه الدراسة حتى خرجت إلى النور .

كما أشكر مديرة المدرسة الأخت الفاضلة وداد جمعة السميري، لتعاونها الراقي
والبناء، من أجل إنجاز هذا العمل .

كما أتقدم بالشكر الجزيل للجامعة الإسلامية على إتاحتها الفرصة لي للبحث
والدراسة في جو علمي مفعم بالود والمحبة والاحترام .

وأخيراً أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لكل من ساهم في انجاز هذا العمل،
راجياً المولى القدير أن أكون من العارفين للناس فضلهم، وأن يمكنني من رد الجميل

وما توفيقني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الباحث

ملخص

تتناول هذه الدراسة المرأة في شعر الصعاليك ، في الجاهلية و الإسلام ، و هي مكونة من مقدمة و تمهيد ، و ثلاثة فصول ، و خاتمة .

عرض الباحث في المقدمة أسباب اختياره للموضوع و خطوات البحث ، أما في التمهيد فتناول بالبحث و الدراسة مفهوم الصعلكة ، و أسبابها في الجاهلية و الإسلام ، و كذلك مكانة المرأة في الجاهلية و مكانتها في الإسلام .

أما الفصل الأول و المعنون بـ " المحبوبة في شعر الصعاليك " فقد تناول بالدراسة النقاط التالية : مقدمات قصائد الصعاليك ، و الحب و آثاره عندهم ، و ملامح المحبوبة في شعرهم ، و وفاءها لهم .

أما الفصل الثاني فتحدث عن " الزوجة في شعر الصعاليك " ، و مكانتها عندهم و حضورها في شعرهم و حياتهم ، و صفاتها و ملامحها ، و تناول الفصل النقاط التالية : مكانة الزوجة في الشعر الجاهلي ، و حضورها في شعرهم ، و صفات المرأة و أخلاقها ، و أخيراً أثر الزوجة على الصعلوك من حيث لومها له و خوفها عليه ، و حثها له على الشجاعة ، و حرصها على ماله و عياله ، و عصبيتها و علاقتها بأهلها .

وفي الفصل الأخير كان الحديث عن الأم و مكانتها في الشعر الجاهلي ، و كذلك مكانتها عند الصعاليك ، و حبها لأبنائها و تربيتها لهم ، كذلك شمل هذا الفصل موضوع السبية في شعر الصعاليك و الفتاة و الأخت و المرأة القريبة و غير القريبة .

أما الخاتمة فاشتملت على نتائج البحث و توصياته .

Abstract

This thesis is intended as an attempt at a general investigation of the firm position of woman in the middle ages, and in particular to the pre-Islamic and Islamic period , that what is so called the Sa'alik literature . The study is aiming to evaluate the poems described by the Sa'alik poets on woman.

It is of great importance to realize the high impact of woman, not only in the Sa'alik poems , but also in the pre-Islamic and Islamic poets . Thus in this study we shall show some reflections on lines or poems done by Sa'alik poets.

The study consists of three main chapters and a general conclusion. At the outset of the thesis, there is a preface about the world Sa'alik, it's a meaning, it's concept, and the role of woman in the Arab daily life.

In chapter one, I have tried to show the concept of love in Sa'alik poems, and how they look for the relation between the man and the woman. It's note worth that woman has achieved great tendencies in this (spha.)

In chapter two, I have tried to discuss the role of woman as a wife in the Sa'alik poems. Most of the extant poems of Sa'alik consists of no more than some long poems scattered here and there in the historical pack ground.

In most of their surviving poems, Sa'alik is motivated by tribe's solidarity and partisan ship. This phenomenon apparent in most of the famous Arab poets of Arabian desert. In fact they occupied themselves with tribal issues, and each of them was nothing more a month-peace for his trip.

Chapter three deals with woman as a mother, and how she loves her sons, and how she treats them, and looks after them.

The surviving verses of Sa'alik indicate strongly that Sa'alik poets did not follow the traditional artistic constrains of ancient Arab poetry. In fact the are considered to be a prominent poets among Arab poets. They are distinguished by deep privacy and different experience from other poets, due to their Bedouin origin and long experience of the Arabic desert.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى
آله الطيبين الطاهرين، وبعد،،،

كثيرة هي الدراسات التي تناولت العصر الجاهلي بالبحث والدراسة، حتى يخيل
للباحث فيه أنه لم يعد شيء من هذا العصر إلا وأخذ نصيباً وافراً من البحث والدراسة .
ولو نظرنا إلى الشعر الجاهلي الذي هو المادة الأساس التي استقى منها الباحثون
مادة أبحاثهم في معرض تلمسهم لمجاهل حياة العرب في الجاهلية بشتى مناحيها الاقتصادية
والسياسية والاجتماعية، لو نظرنا لهذا الشعر نظرة عجلي لوجدنا أن المرأة نالت منه حظاً
وافراً . حتى غدت معلماً من معالم هذا العصر فلا تكاد تفتتح قصيدة جاهلية إلا بمقدمة
غزلية، كالوقوف على الأطلال وغيره .

لقد كانت المرأة ركناً من أركان المجتمع الجاهلي والإسلامي، وأساساً من أسسه،
وحجراً مهماً في بنائه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . فهي التي تنجب الرجال وتربي
الأبطال، وربما شاركت في القتال، كذلك نجدها الحزن الدافئ الذي يلجأ إليه الإنسان
العربي بيثه همومه وأحزانه، وآلامه، كما أنها مثلت مصدر إلهام للشعراء ليكون على
فراقها، ويتشوقون لرؤيتها، ويتعذبون بصرمها وقطيعتها، فطالما صورها في صور العفيفة
الطاهرة المتمنعة، المصونة، وطالما افتخروا بحمايتها ورعايتها وصونها .

لذلك كثرت الدراسات التي تناولت المرأة العربية في العصر الجاهلي ولكن الذي
أثار اهتمامي ولفت انتباهي أن هذه الكتب مرت مرور الكرام على شريحة مهمة في المجتمع
الجاهلي شريحة آثرت العيش في مجاهل الصحراء، وشعاب الأودية واستصحاب الوحوش،
وافتراش الأرض والتحاف السماء، شريحة آثرت نفسها التمرد على ظلم الظالمين، آلت على
نفسها إلا أن تكسر قيود القبيلة، التي تميزت بقوتها وتعصب أهلها لها . رفضت الفقر وعيش
الهوان ورأت العز في الغزو وانتزاع الحقوق من الظالمين انتزاعاً .

هذه الشريحة من المجتمع هي جماعة " الصعاليك " التي لم تتل حظاً من الدراسة
والاستقصاء ولم أجد أحداً من الباحثين خصهم بدراسة مستقلة— وربما يرجع ذلك إلى قلة
الأخبار عنهم، لأنهم عاشوا معزولين في مجاهل الصحراء . وكذلك قلة أشعارهم وتناثرها
بين كتب الأدب وغيرها، وضياح الكثير منها، وهذا ما قد يسبب للباحث عناءً ومشقة، قد
يجد نفسه في غنى عنها .

هذا الأمر دفعني إلى إنصاف هؤلاء الشعراء بأن أستقصي أشعارهم، وأجمع أخبارهم التي حاوروا فيها المرأة ووصفوها وأحبوها وشاطروها أحلامهم وآمالهم، وأحزانهم وهمومهم، حيث نجدها في شعرهم لائمة مرة محرضة أخرى، كما نجدها حيناً آخر تمتشق السيف مدافعة عنهم، ملهمة لهم في المعارك حيناً آخر، كذلك صوروها تصويراً بارعاً ودقيقاً، فهي عفيفة طاهرة شريفة تغض البصر وتكرم الجار وتحفظ الأسرار، وتظل عوناً للرجل في كل حين . سواء كانت محبوبة أم زوجة، وسواء كانت أمماً أم أختاً، أم قريبة، أو غير ذلك .

إنني وأنا أقدم على هذا البحث المضي، الذي لا أظنه سهلاً أعرف مدى الصعوبة التي تواجهني، إلا أنني أرغب معتمداً على الله في أن أقدم شيئاً جديداً أنفع به الباحث والقارئ العربي، بتقديم صورة واضحة جلية عن صورة المرأة في شعر هؤلاء الشعراء والتي ظلت على مدى قرون صورة ضبابية غير واضحة المعالم .

وقد اتبعت في دراستي هذه المنهج الوصفي التاريخي، حيث قسمت البحث إلى تمهيد

وثلاثة فصول، وهي على النحو التالي :

أولاً : التمهيد، وتناولت فيه نقاطاً ثلاثة وهي

1- التعريف بالصعلكة لغوياً واصطلاحياً.

2- مكانة المرأة في الجاهلية .

3- مكانة المرأة في الإسلام .

وبينت في النقطتين الأخيرتين، ما للمرأة من حقوق وما عليها من واجبات، ما لها وما عليها، وعرضت لبعض الظلم الذي تعرضت له في الجاهلية، ودور الإسلام في رفع هذا الظلم .

أما الفصل الأول من الدراسة، فقد أفردته للمرأة المحبوبة في شعر الصعاليك حيث

تناولت فيه بالبحث والدراسة العناوين الآتية :

1- مقدمات القصائد عند الصعاليك، وأثبت فيه، أن الصعاليك كان لهم مقدمات غزلية

وظللية كغيرهم من شعراء عصرهم .

2- الحب وآثاره، وفيه عرضت، لعلاقة الصعاليك بمحوباتهم، ومعاناتهم، وشدة تعلقهم

بهن .

3- ملامح المحبوبة وصفاتها، وفيه، تتبعت تلك الصور الجميلة التي رسمها الصعاليك

لمحوباتهم، سواء الصور المعنوية، أم المادية .

4- وفاء المحبوبة، وتحت هذا العنوان قدمت صورة فريدة من صور وفاء المرأة

للصعلوك .

وفي الفصل الثاني، تحدثت عن الزوجة في شعر الصعاليك، حيث تحدثت فيه عن

عناوين مهمة وهي :

- 1- مكانة الزوجة في الشعر الجاهلي .
 - 2- حضور الزوجة في شعر الصعاليك.
 - 3- صفات الزوجة المادية والمعنوية .
 - 4- أثرها على الصعلوك من حيث لومها له، وخوفها عليه من مخاطر الصعلكة، وحثها له على التحلي بالشجاعة، وحرصها على ماله وعياله، وكذلك عصبيتها وعلاقتها بأهلها .
- وفي الفصل الثالث، تناولت فيه بالدراسة مكانة الأم عند الجاهليين عامة وعند الصعاليك خاصة، كذلك حب الأم لأبنائها وتربيتها لهم، وعقوق بعض الصعاليك لأمهاتهم، كذلك تناولت في هذا الفصل السببية في شعر الصعاليك من حيث الفخر بالسبي، وتغيير الأعداء، وصورة السببية في شعرهم، ومعاملة السبايا، وحماية النساء من السبي والنود عنهن.

ثم ختمت الدراسة بالنتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال هذه الدراسة . أرجو من الله العلي القدير أن يسدد خطاي دائماً، وأن يوفقني إلى ما يحب ويرضى.

الباحث

التمهيد

أولاً: الصعكة - مفهومها - أسبابها في الجاهلية والإسلام.

ثانياً: مكانة المرأة في العصر الجاهلي.

ثالثاً: مكانة المرأة في الإسلام.

أولاً : الصعلكة

(أ) مفهومها:

الصعلكة - كما في معاجم اللغة - هي الفقر والصعاليك هم الفقراء . ففي لسان العرب : الصعلوك الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهري ولا اعتماد ، وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك . يقول حاتم الطائي :

غنيا زماناً بالتصعلك والغنى فكلاً سقاتاه بكأسيهما الدهر
فمازا دنا بغياً على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر⁽¹⁾

وفي الصحاح = الصعلوك الفقير... وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك ، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه ، والتصعلك الفقر⁽²⁾ لقد اكتفى معظم المعاجم بالمعنى المباشر للصعلكة وهو الفقر . ولكننا إذا ما أردنا أن نتعرف على المعنى العرفي للصعلكة ، فإننا نجد بعض إشارات لذلك في معرض حديث هذه الكتب عن معنى (ذأب) ففي لسان العرب، يقال لصعاليك العرب : ذؤبان لأنهم كالذئاب . وذؤبان

العرب : لصوصهم وصعاليكهم الذين يتلصصون ويتصعلكون .
وذؤب الرجل وتذأب خبث وصار كالذئب خبثاً ودَهَاءً⁽³⁾ .

وفي الصحاح : " وذؤبان العرب صعاليكها الذين يتلصصون " ⁽⁴⁾ .

فالصعلكة إذا تعني الفقر والتجرد من المال ، الفقر الذي يجعل الإنسان لصاً وقاطع طريق ، وغازياً ينتزع المال انتزاعاً . فيحيا في الصحراء حياه الذئاب الضارية . وهذا هو المعنى اللغوي .

ولكن هناك معنى سلوكي عرفي تنبّه له أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب حين قال : " والصعلوك الفقير ، وهو أيضاً المتجرد للغارات " ⁽⁵⁾ .

والظريف الذي يبدو كأنه تناقض أو تباعد ، أننا حين نسأل اللغة عن المتصف بالصعلكة لا تقول أنه الفقير ، ولكننا نجده صاحب شيء يشبه المهنة أو الحرفة وهي الصعلكة نفسها ، وحينئذ لا تكون الصعلكة دالة على الفقر ، وإنما على اللصوصية وقطع الطريق وسائر أساليب السلوك العدوانى الذي يهدف إلى المغنم .

(1) لسان العرب مادة (صعلك)

(2) الصحاح للجوهري ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، مادة (صعلك)

(3) اللسان مادة (ذأب)

(4) الصحاح مادة (ذأب)

(5) جمهرة أشعار العرب ، أبو زيد القرشي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ص 565 .

ويمكن أن نفهم هذا التباعد في الداليتين ، على أن لفظ الصعلكة يدل أصلاً في اللغة على الفقر والحاجة ، وهذه الحاجة دفعت بعض أصحابها من ذوي الصفات المعينة إلى العدوان على الناس لسلبهم ما يملكون ، وأصبح الذين يزاولون هذا السلوك يُعرفون في عرف المجتمع العربي القديم بالصعاليك ، وإذاً فهناك استعمال لغوي للصعلكة وهو الفقر ، واستعمال عرفي وهو اللصوصية باعتبار أن الدافع لها أصلاً هو الفقر ، والاستعمالان متقاربان حيث لا ينقصهما إلا أن الخيط الذي يربط بينهما مقطوع أو غير واضح . وهو أن الفقر سبب أساسي في مزاولة الصعلكة وهي حقيقة من واقع المجتمع العربي القديم (1) فالصعلكة وإن كانت تعني الفقر ، إلا أنها مهنة امتنها أصحابها بسبب فقرهم وعوزهم وحاجتهم ، وتمردهم على النظم السائدة في مجتمعاتهم ، فبرز بذلك المعنى العرفي السلوكي الذي يدل على السلب والنهب والتجرد للإغارة من أجل انتزاع الحقوق انتزاعاً .

(1) انظر شاعر الصعاليك الشنفرى ولامية العرب ، د عبد الحليم حفني ، المطبعة النموذجية ، ص 31 .

(ب) أسبابها:

1- الفقر

إن من أسباب الصعلة، الفقر وقلة الموارد المعيشية في أرض مترامية الأطراف، يعتمد أهلها على الماشية التي يرعونها ، فيأكلون من لحومها ويشربون لبنها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها ، فهم رعاة تتقلب حياتهم من حيث الفقر والغنى تبعاً لظروف الحياة القاسية من حولهم ، فالرعي دائماً يبقى رهين أحوال الطقس ونزول المطر فالفقر كان دائماً سبباً بارزاً ومهما في ظهور هذه الظاهرة في العصر الجاهلي يقول عروة بن الورد :

دعيني للغنى أسعى فإني رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقيرُ
وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أسمى له حسبٌ وخيرُ
ويُقْصيه النَّديُّ وتزْدريه حليته ويَهْرَهُ الصَّغِيرُ
ويُلْقِي ذُو الغنى وله جلالٌ يكادُ فؤادُ صاحبه يطيرُ
قليلُ ذَنْبُهُ و الذنْبُ جَمٌّ ولكن للغنى ربُّ غَفُورٌ (1)

" لقد وقع نظر عروة على مجتمع متعسف ، يحتقر الفقير لأنه فقير وحسب ، ويجل الأغنياء لا لشيء أيضاً إلا لأنهم أغنياء فتألم لذلك وأعلن الثورة على الأغنياء " (2) .
لقد أدرك عروة أنه لا حياة للفقير في مجتمع يجل الأغنياء ويتجاوز عن أخطائهم ويحتقر الفقير المعدم لا لشيء إلا لفقره .

وهذا السليك يصور لنا فقره ، وما لحق به من الجوع حتى أنه إذا قام لحاجة أخذه الدوار وتراعت له الخيالات والأطياف حيث يقول :

ومانتتها حتى تصعلكتُ حِقْبَةً وكِدْتُ لأسبابِ المنية أعرِفُ
وحتى رأيتُ الجوع بالصيفِ ضرتني إذا قُمتُ تَعَشَاتِي ظلالِ فأسْدَفُ (3)

فالفقر والجوع كانا من الأسباب التي دفعته للغزو والبحث عن المال الذي يغنيه ، فنجده يصرح في شعره بأن الفقر أحد أسباب الصعلة حين يقول :

أشاب الرأسُ أي كل يوم أرى لى خالة وسط الرحال
يشق على أن يلقين ضيماً ويعجز عن تخليصهن مالي (4)

(1) ديوان عروة ، دراسة أسماء أبو بكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1992 م ، ص 79 0

(2) عروة بن الورد حياته وشعره ، د. إبراهيم الخواجة ، مطبعة النصر نابلس ط2 ، 1987 م ، ص 98 0

(3) ديوان السليك ، د. سعدي الضنادي ، دار الكتاب العربي ، 1994 ص 84 0

(4) السابق ص 89 0

ولقد جعل الفقر وتعرضه للغارات ووقوع حرمانه في السبي مع عجزه عن تخليصهن من أسباب تصلعه .

ويصور الشنفرى جوعه تصويراً دقيقاً فيه من البراعة ما فيه حين يقول (1)

وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت خيوطة ماري تغار وتفتل (2)

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا أزل تهاده التنائف أطحل (3)

فالجوع والحرمان والفقر كانا حاضرين في شعرهم الذي هو مرآة حياتهم ودافعهم

للصلعة والغزو والإغارة ، من أجل الحياة ، بل إن الرضى بالفقر والتفاسع عن الغزو

والإغارة يعد عيباً وسبة عندهم حيث يقول عروة بن الورد موازناً بين الصعلوك الذي

يرضى بالفقر ويتفاسع ويرضى أن يكون عالة على غيره ، وبين الصعلوك المتحفز

المغامر فيقول (4) :

لحى الله صعلوكاً إذا جنَّ ليله مصافي المشاش ، ألفاً كل مجزر (5)

يعدُّ الغنى من نفسه كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر (6)

ينام عشاءً ثم يصبح ناعساً يحثُّ الحصا عن جنبه المتعفر (7)

قليل التماس الزاد إلا لنفسه إذا هو أمسى كالعريش المجور (8)

يعين نساء الحي ما يستغنه ويمسي طليحاً ، كالبعير المحسر (9)

ولكن صعلوكاً ، صفيحة وجهه كصوء شهاب القابس المتنور (10)

مطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم ، زجر المنيح المشهر (11)

إذا بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المنتظر

فذلك إن يلق المنيعة يلقيها حميداً، وإن يستغن يوماً فأجدر

(1) بلوغ الأرب في شرح لامية العرب ، تحقيق محمد عبد الحميد القاضي . دار الحديث ص 126-129 .

(2) الخمص : الجوع ، الحوايا : ما يحوي البطن - الخيوطة : الخيوط والتاء للكثرة - ماري : فائل الخيوط

(3) الأزل : قليل لحم الوركين ، صفة الذئب - تنايف ، جمع تنوفة : الصحراء - أطحل : مغبر 0

(4) الأصمعيات تحقيق أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون دار المعارف ط 4 ص 45 ، 46 .

(5) لحاه الله : قبحة - المشاش : رؤوس العظام اللينة - المجزر : موضع الجذر .

(6) الميسر : الذي سهلت ولادة إبله وغنمه ولم يعطب منها شيء .

(7) يقول : ليس بصاحب إدلاج ولا غزو .

(8) العريش : خيمة من خشب أو جريد . المجور : الساقط .

(9) الطليح : المعبي ، والمحسر : المعبي أيضاً ، يقال (حسرت الدابة) أعيت وتحلت .

(10) صفيحة وجهه : بشرة جلده ، الشهاب شعلة من نار ، القابس : الذي يقبس النار أي يأخذها .

(11) مطلاً على أعدائه : مشرفاً عليهم - يزجرونه : يصيحون به - المنيح ههنا : قدم مستعار سريع

الخروج ، المشهر : المشهور

لقد كان الفقر سبباً بارزاً من أسباب ثورة الصعاليك على الأغنياء الذين كانوا يزدادون غنى يوماً بعد يوم ، حيث فرض على المجتمع الجاهلي نظاماً اقتصاديً غير متوازن جعل الفقير فقيراً ، والغني غنياً ، تبعاً لظروف البيئة ومكان العيش ، فأرض الجزيرة لم تكن سواء فمنها ما هو خصب كثير الخيرات ، ومنها ما هو مجذب لا شيء فيه .

وهناك يثور الإحساس بالفقر عند بعض الفقراء ، حين يجدون جبرتهم وأقرباءهم يتمتعون بما يتمتعون به ، وهم يعانون ، فيثور في نفوسهم التطلع للغنى والحصول على المال (1) ، المال الذي لم يكونوا عاجزين عن إدراكه بالوسائل المشروعة ، غير أن مجتمعهم كان ظالماً ، فلم يهيئ لهم سبل العيش ، لهوان منزلتهم الاجتماعية ، فشعروا بذله الفقر شعوراً حاداً ونقموا على المجتمع الذي لا يجعل العدالة ميزاناً له ، والذي يعيشون في ظله بينما يفري الجوع أحشاءهم في هذه الصحراء القاحلة الرهيبة ، فجاشت نفوسهم بالثورة على هذا المجتمع الظالم (2) .

2- غياب الدولة والسلطة الجامعة :

لم يعرف الجاهليون الدولة الجامعة التي تبسط عليهم سلطانها ، وتفرض قوانينها ، وتنظم شؤونهم وتسير حياتهم ، بل كان النظام القبلي هو السائد في الجزيرة العربية ، وكلما كانت القبيلة قوية كلما كانت أقدر على بسط سيطرتها وفرض رؤيتها على غيرها ، فأصبحت القبيلة بنظامها هي السلطة المسيطرة لأمر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لمن ينتمون لها .

لقد أبى الصعاليك الخضوع لهذه السلطة " لأنهم لا يؤمنون بأي سلطان من أي نوع وتجد هذه النزعة شائعة في شعرهم " (3) .

يقول الشنفرى في اللامية مفضلاً الحياة مع الوحوش الضارية على حياة وسط مجتمع ظالم جائر متعسف (4) :

أقيموا بني أميَّ صدور مطيِّكم فإني إلى قومٍ سيِّواكم لأميلُ
فقد حُمَّت الحاجاتُ والليل مُقْمَرٌ وشُدَّتْ لطيَّاتٍ مطايا وأرْحُلُ (5)

(1) انظر شعر الصعاليك ، عبد الحليم حفني ، ص 59 .

(2) انظر دراسات في الشعر الجاهلي ، محمد مصطفى هدارة ، دار المعرفة ، ص 5 .

(3) شعر الصعاليك ، عبد الحليم حفني ، ص 46 .

(4) ديوان الصعاليك ، يوسف فرحات ، دار الجبل بيروت ، ص 38 .

(5) حُمَّتْ : تهيأت - الطيَّات : الحاجات .

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
ولسي دونكم أهلون سيدّ عملس
هم الأهمل لا مستودع السرّ ذائع
وفيها لمن خاف القلى متعّزل (1)
وأرقط زهلول وعرفاء جبال (2)
لديهم ولا الجاني بمساجر يخذل

فالذئاب والضباع والنمور مجتمع الشنفري الجديد وأهله الذي يفضله على أهله الحقيقيين وقبيلته لأنهم أحفظ للسر، وأقدر على نصرته وحمايته، وفيها من الخصال مالا يوجد عندهم إنها دلالة رمزية فيها ما فيها من التشهير بمجتمع البشر بكل سلبياته.

وهذا تأبط شراً يتمرد على القبيلة وأعرافها، محاولاً فرض رؤيته عليها وإلا فإن في الأرض الواسعة ملاذاً وملجأً له حيث يقول (3):

إني زعيمٌ لئن لم تتركوا عدلي
أن يسأل القوم عني أهل معرفة
أن يسأل الحي عني أهل آفاق
فلا يخبرهم عن ثابت لا قي
إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي
لتقر عن على السن من ندم

وهكذا نجد نزعة التحرر من السلطة والنفور منها شائع في شعر الصعاليك ومعنى ذلك أن الصعلكة والسلطة - الحقيقية المتمكنة - لا يتفقان، فقد وجدت أو بمعنى أصح شاعت الصعلكة لعدم وجود هذه السلطة، ومفهوم ذلك أنه حيث توجد هذه السلطة لا توجد الصعلكة، ولو كظاهرة اجتماعية، وهذا لا ينفي وجودها كحالات فردية، فإن الشذوذ لا يخلو منه مجتمع، وهذه الحقيقة هي التي نهدف للوصول إليها، فإن عدم وجود هذه السلطة في المجتمع الجاهلي كان من الأسباب الأساسية في وجود الصعلكة كظاهرة (4).

والحقيقة أن الصعلكة بقيت حتى بعد وجود السلطة القوية وهذا يفسر جانباً من شخصية الصعاليك، حيث التمرد والنفور، وكره الانقياد، ورفض العيش الذليل، والرضى بالقيم، فهذا مالك ابن الربيع يتمرد على دولة بني أمية ويهجو الحجاج وذلك حين يقول (5):

إن تنصفونا يال مروان نقترب
فإن لنا عنكم مزاحاً ومزحلاً
ففي الأرض عن دار المذلة مذهب
فماذا ترى الحجاج يبلغ جهده
إليك وإلا فأذنوا ببغداد
بعيس إلى ربح الفلاة صوادي (6)
وكل بلاد أوطنت كبلادي
إذا نحن جاورنا حفير زياد

(1) القلى : البغض والعداوة .

(2) السيد الذئب - العملس : القوي - الأرقط : صفة النمر - الزهلول : الأملس - الجبال : الضبع

(3) ديوان الصعاليك ص 148

(4) انظر شعر الصعاليك ، عبد الطيم حفني ص 46

(5) الكامل للمبرد ، تحقيق محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية 1993م ص 630 .

(6) المزاح : المذهب - المزحل : المنتحي .

فلولا بنو مروان كان ابنُ يوسف كما كان عبداً من عبيدٍ إِياد
زمان هو العبد المقرّ بذلة يراوح صبيان القرى ويُغادي

من هنا أرى أن غياب السلطة الجامعة العادلة التي ترسي دعائم العدل والمساواة بين أفراد المجتمع كانت من أسباب ظهور الصعلكة ، وهذا يفسره تلاشي الصعلكة في عصر صدر الإسلام أي في عهد النبوة ، وعهد الخلفاء الراشدين ، - اللهم إلا من الشواذ مثل شبيب بن عمرو بن كريب - وظهورها في عهد بني أمية بعد ذلك .

(3) طبيعة الأرض في الجزيرة العربية :

كانت الجزيرة العربية بطبيعتها الجغرافية المتميزة ، تعتبر ملاذاً آمناً للصعاليك ، حيث الصحراء المترامية الأطراف ، والجبال العالية الممتدة ، وندرة المياه وقتلتها ، وصعوبة الطقس من حيث شدة الحر ، وشدة البرد . كل هذا جعل الصعلوك يشعر بنوع من الأمان على نفسه ، والبعد عن كل من يطلبه من أعدائه .

لذلك كان عليه أن يكون عالماً بمجاهل الصحراء ، يعرف دروبها وأوديتها ، وجبالها ووحاتها وطرق تجارتها ، حتى يعرف كيف يغزو وكيف يفر ناجياً بنفسه من عدوه . ولا عجب أن تجد في شعر العرب عامة ، والصعاليك خاصة ما يصور لنا جانباً من طبيعة البيئة القاسية التي كانوا يحيون فيها . فهذا امرؤ القيس يصف وادياً مجذباً مقفراً لا حياة فيه ، تعوي فيه الذئاب الضارية فيقول (1) :

وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوي كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى إن شأنا طويل العنا إن كنت لما تحول
كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

ويصف الشنفرى البرد الشديد الذي يجعل صاحب القوس يكسرها وهي التي لا غنى له عنها - كل يستدفي بها فيقول (2) :

وليلة نحس يصطلي القوس ربها وأقطعاه اللاني بها يتنبل (3)
دعست على غطش وبغش وصحبتني سعار وإرزيز ووجر وأفكل (4)

(1) شرح القصائد المشهورات . ابن النحاس ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ج1 ص 33 .

(2) بلوغ الأرب في شرح لامية العرب . ص 204-206 .

(3) النحس : البرد - الاصطلاء : التسخن بالنار - الأقطع : جمع قطع وهو نصل قصير عيريض السهم التنبل : تكلف الرمي بالنبل .

(4) الدعس : الطعن والوطء - الغطش : الظلمة - البغش : المطر الخفيف (سعار) حر يجده الإنسان في

جوفه من شدة الجوع والبرد - الإرزيز : البرد - الوجر : الخوف - الأفكل : الرعدة ..

ويفصف الحر الشديد الذي يجعل الإنسان يرى خيوطاً كخيوط العنكبوت من شدة الهاجرة ، فهذا الحر لا تحتلمه حتى الأفاعي التي اعتادت العيش في الصحراء فهي تتلملم تلملم المريض على فراشة فيقول (1):

ويوم من الشَّعْرِي يَدُوبُ لُوَابِه
أَفَاعِيهِ فِي رَمَضَائِهِ تَتَمَلَّمُ
نصبت له وجهي ولا كنّ دونه
ولا سر إلا الأتحمي المرعيل

كل شيء في هذه الصحراء إذن قاس وعنيف ، فلا عجب أن تتجب أبناء قساة أشداء يألّفونها، ويحيون فيها ، لما تيسره لهم من الاختفاء في مجاهلها، وجبالها ومناهاتها، لذلك نجد أن الصعاليك على الرغم من نشأتهم في أماكن قريبه من الخصب إلا أنهم يفضلون دائماً أن يكونوا في كنف هذه الطبيعة صعبة المنال ، فتجدهم يألّفون الجبال والقفار والأماكن التي يخشى غيرهم ارتيادها . وحين ننظر إلى شعرهم نجده حافلاً بذكر هذه الأماكن الوحشية الموغلة في الوحشة والامتناع ، فتأبط شراً يتحدث عن موضع موحش يخافه العرب لاعتقادهم أنه لا يخلو من السعالي والغول وهو رحي بطن، ولكن تأبط يألّف هذا المكان ولا يخاف غيلانه وسعاليه (2) بل يتحدث عن قتله إحداهما فيقول (3) :

ألا من مَبْلُغٍ فَتِيَانِ فَهَم
بما لاقيتُ عندَ رحي بَطَّانِ
بأني قد لقيت الغولَ تهوي
بسهب كالصحيفة صححان (4)
فقلت لها : كلانا نضو أين
أخو سفرٍ فخلي لي مكاني (5)
فشدت شدة نحوي، فأهوى
لها كفي بمصقول يمانني
فأضربها بلا دهش، فخرت
صريعاً لليدين وللجران (6)
فلم أنفك متكناً عليها
لأنظر مصباحاً ماذا أتاني (7)
إذا عينان في رأس قبيح
كرأس الهرّ ، مشقوق اللسان

إنها الطبيعة التي قست على أهلها ، ولكنها لم تخذلهم يوماً بل كانت موطناً وملجأً ومسكناً ألّفوا العيش فيه ، بل لقد كانت رواحلهم تألف العيش في هذه الطبيعة وتشتاق إليها ، يقول مالك بن الريب :

(1) السابق ص 226-227 . ، ديوان الصعاليك : 47-48 .

(2) انظر شعر الصعاليك ص 64 .

(3) ديوان الصعاليك ص 171-172 .

(4) السهب : المستوى البعيد من الأرض - السهب : الفلاة - الصححان : الأرض المستوية .

(5) النضو : المهزول لكثرة السفر - الأين : التعب ، والإعياء .

(6) الجران : في الأصل مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره ، مقدم الصدر .

(7) مصباحاً : دخل في الصباح .

(4) التمرد والخروج على الأعراف السائدة :

إن الشذوذ وسوء الخلق لا يكاد يخلو منه مجتمع ، وكان يقابل في الجاهلية بنظام قبلي صارم ، وبعقوبة شديدة في الإسلام ، ففي الجاهلية كانت القبيلة تتبرأ من الشخص الذي تكثر جرائمه وجنباياته ، بأن تعلن في مواسم الحج أو الأسواق أنها خلعت (فلاناً) فلا تطالب به إذا اعتدى عليه ، ولا يلحقها من جريرته شيء إن اعتدى على أحد فعرف هؤلاء بعد ذلك (بالخلعاء) مثل قيس بن الحدادية ، الذي خلعت خزاعة بسوق عكاظ ، وأشهدت على نفسها بخلعها إياه ، فلا تحتمل جريرة له ، ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه (1) .

إن هؤلاء الصعاليك فرغوا حياتهم لمزاولة الأعمال العدائية من سطو ، وقطع للطريق واعتداء على الممتلكات ومن هؤلاء : الأحيمر السعدي ، وأبو الطمحان القيني ، وصخر الغي الهذلي وغيرهم كثير .

(1) الأغاني للأصفهاني ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، 1990م ، جزء 14 ، ص 137 .

الإسلام والصعلكة :

جاء الدين الإسلامي مبشراً بعهد جديد ، عهد نور وهداية ، أمن وأمان ، جاء ليوحد الناس على دين رباني واحد ، أنار به القلوب ، فرققها وهذبها ونقاها من كل شائبة تشوبها ، فأشرقت الأرض بنور ربها ، واستنارت بنور الهداية والإيمان ، فتغيرت النفوس ، وتلاشت الأحقاد ، وأصبحت الأمة جسداً واحداً كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

لقد بدأ التشريع الإسلامي يوضح الأسس السليمة للمجتمع المسلم فوضع القوانين الصارمة التي تحد من كل عمل من شأنه أن يعكر صفو الحياة ، خصوصاً تلك الأعمال التي عانى منها المجتمع أشد المعاناة مثل قطع الطريق ، والإغارة على القوافل والغزو والسلب والنهب والقتل وغيره .

فهذا رسولنا الكريم ﷺ يعد أصحابه بالأمن والأمان الذي ينشدونه والذي لا يتحقق إلا بانتشار الدين الجديد قائلاً : " والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذنب على غنمه " .

ووقف القرآن الكريم موقفاً حازماً من كل من تسول له نفسه تعكير صفو الحياة واستتباب الحرمات والأموال ، وقطع الطريق وإرهاب الناس ، قال تعالى : " إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم (33) إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم" (1) .

لا عجب أن نرى بعد ذلك أن الصعلكة أصبحت غريبة في المجتمع المسلم بل لم تعد محل فخر كما كانت في الجاهلية لهذا نرى أن كثيراً من الصعاليك يترك الصعلكة ويعلن توبته ، وينخرط في الدين الجديد الذي طابت له نفسه بعد أن قضى على الفوارق الاجتماعية فلا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى وعدل في تقسيم الأرزاق بين جميع أفراد المجتمع .

ومن هؤلاء التائبين الأحيمر السعدي الذي كان سيفه يهدد التجار وقوافلهم كما يقول

يُعِيرُنِي الإِعْدَامَ وَالبِدْوُ مَعْرَضٌ وَسِيفِي بِأَمْوَالِ التِّجَارِ زَعِيمٌ

وكان يستبشر إذا ما سمع نهيق حمار لأنه يؤذن باقتراب التجار حيث يقول :

نَهَقَ الحِمَارِ فَقُلْتُ أَيْمَنَ طَائِرٍ إِنْ الحِمَارِ مِنَ التِّجَارِ قَرِيبٍ

ثم تاب فلم يخف حنينه إلى عادة سيطرت على حياته ، ولكنه مع هذا الحنين مصر

على التوبة بل ناصح للصعاليك بأن يسلكوا طريق التوبة فيقول :

(1) المائدة 33-34 .

أشكو إلى الله صبري عن زواملهم
فربَّ ثوبٍ كريمٍ كنتُ آخذُهُ
وما أُلَاقِي إِذَا مَرَّوْا مِنَ الحُزْنِ
من القِطَارِ بلا نقدٍ ولا ثَمَنِ
بِرَّ العِراقِ وَيَنسُوا طُرْفَةَ اليَمَنِ (1)

ومن التائبين يزيد بن الصقيل العقيلي ، والذي تاب واطمأن للتوبة ، يقول مقارناً بين حاله قبل التوبة وبعدها :

ألا قُلْ لأربابِ المخائضِ أهملوا
وَأَنْ امرءاً ينجو من النارِ بعدَما
فَقَدْ تابَ مما تعلمونَ يَزِيدُ
تَزَوَّدَ من أعمالِها لسعيدُ (2)

ومن الذين تابوا وتركوا الصلعة في الإسلام ، أبو خراش الهذلي الذي أسلم وعاش بعد النبي ﷺ مدة ومات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (3) .
ومنهم عبدة بن الطيب الذي أسلم وشهد مع المثنى بن حارثة قتال هرمرز سنة 13هـ ، وله في ذلك 'أثار مشهورة ، وكان في جيش النعمان بن مقرن الذي حارب الفرس بالمدائن (4) .

لم يقض الإسلام على الصلعة قضاء تاماً، بل بقيت في جميع مراحل الدولة الإسلامية وإن كانت قد ضعفت في صدر الإسلام، وما إن بدأت الخلافات تدب بين المسلمين طوائف وأحزاب، ويستشري القتال، وتتقطع الأوصال، وتشتعل الفتن، وتضعف السلطة الحاكمة حتى بدت الصلعة تظهر من جديد، ولكنها تميزت عن صلعة الجاهلية بالطابع الفردي، لأنها ظلت بعد الإسلام أقرب للشذوذ الذي لا يكاد يخلو منه مجتمع من المجتمعات ولكن الصعلوك ظل منبوذاً في المجتمع المسلم، مما جله يفر من الناس خوفاً من العقاب الذي قد يلقاه، يقول الأحيمر السعدي مصوراً أنسه بالذئب وخوفه من الناس .

وإني لأستحي من الله أن أرى
وَأَنْ أسألَ الجبس اللئيمَ بعيرَهُ
أَجْرُ حَبْلًا لَيْسَ فِيهِ بَعِيرُ
وَبُعْرانُ ربي في البلادِ كَثِيرُ
عوى الذئبِ فاستنستُ بالذئبِ إِذْ عَوَى
وَصَوْتُ إنسانٍ فكذتُ أَطيرُ
يرى الله أَنِّي لِلأَيْسِ لَشانِي
ويغضهم لي مُقَلَّةٌ وضميرُ (5)

(1) ديوان عروة - المقدمة - أسماء أبو بكر ص 38 .

(2) السابق ص 97 .

(3) أنظر الأغاني جزء 21 ص 230 وما بعدها .

(4) المفضليات ص 134 .

(5) مقدمة ديوان عروة ص 28 .

وهذا شبيب بن عمرو بن كريب يفر من علي بن أبي طالب على فرس له تسمى العصا وكان علي قد أرسل في طلبه ابني شميظ ، ففر منه ويذكر ذلك قائلاً (1)

ولم أن رأيت ابني شميظ
بسكة طيئ والباب دوني (2)
تجلت العصا وعلمت أنني
رهين مخيس إن أدركوني (3)
ولو أنني لبثت لهم قليلاً
لجروني إلى شيخ بطين (4)
شديد مجامع الكتفين باق
على الحدثان مختلف الشؤون

فقال علي بن أبي طالب معلماً لما سمع : " والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو ظفرت به لصدقت ظنه " (5)

وهذا صاحب شرطة يوسف بن عمر يظفر بأبي الطمحان القيني فيحلق شعره فيقول في ذلك :

وبالحيرة البيضاء شيخ مسلط
إذا حلف الأيمان بالله برت (6)
لقد حلقوا منها غداً كأنه
عناقيد كرم أينعت فا سبكرت (7)
ومن الشعراء الذين هربوا من الحجاج مالك بن الربيع المازني وفي ذلك يقول (8):
إن تُنصّفونا يال مروان نقترب
إلَيْكُمْ وَإِلَّا فَأَذْنُوا بِبِعَادِ
فإن لنا عنكم مزاحاً و مزحلاً
بعيس إلى ريح الفلاة صوادي
.... الأبيات سألقة الذكر .

وهذا أبو النشاش النهشلي الذي كان يعترض القوافل في شذاذ من العرب بين طريق الشام والحجاز فيحتاجها ، فظفر به بعض عمال مروان فحبسه وقيده مدة ، ثم أمكنه الهرب في حين غفلة ، فقال في ذلك شعراً سار فيه على نهج صعاليك العرب في فخرهم بالحصول على المغانم والأسلاب ، وأن العيش يطلب من صاحبه الجرأة والأبيالي بالموت في سبيل الظفر بما يغنمه من المال . يقول (9):

(1) الحماسة ص 252 - 253 .

(2) السكة السطر من الشجر

(3) العصا : اسم فرس - مخيس : اسم سجن .

(4) الشيخ البطين : يقصد على كرم الله وجهه .

(5) الحماسة ص 412 .

(6) الحيرة : بلد بالكوفة .

(7) اسبكرت : طالت .

(8) الكامل ص 630 .

(9) الأسمعيات ص 118 - 119 .

وسائلة أين الرحيل وسائل
وداوية يهماء يخشى بها الردى
ليدرك ثأراً أو ليدرك مغنماً
إذا المرء لم يسرح سواماً ولم يرُح
فللموت خيرٌ للفتى من قُعوده
ولم أر مثل الهم ضاجعة الفتى
فمُت مُعدماً أو عَشُ كريماً فإنتني
ولو كان شيءٌ ناجياً من منية

ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه
سرت بأبي النشماش فيها ركائبه (1)
جزيلاً وهذا الدهرُ جمُّ عجائبه
سواماً ولم تعطف عليه أقرابه (2)
فقيراً ومن مولي تدبُّ عقاربه (3)
ولا كسواد الليل أخفق طالبه
أرى الموت لا ينجو من الموت هاربه
لكان أثيراً يوم جاءت كتائبه (4)

إنها حياة الصعلوك أيما وجد، حياة كلها حركة ونشاط، حياة لا خمول فيها، أمواج متلاطمة من الكرّ والفرّ، والجوع و الشبع، والخوف والأمن والحل والترحال .

إنه الإسلام العظيم الذي حارب الصعلكة حرباً لا هوادة فيها، جعل الصعلوك يشعر شعوراً صادقاً أن الحياة في المجتمع المسلم لا تستقيم للصعلوك إلا بتركه الصعلكة، وإلا فإن عليه أن يغادر هذا المجتمع، إلى مكان يتسع له لا يضيق به، وأنّى له هذا المكان ؟ إنها الصحراء إذن ثانية فهي المكان الآمن الذي لا يخشاه الصعلوك .

أنظر إلى عبيد بن أيوب العنبري الذي يترك حياة الناس ومجتمعهم ويعيش في الصحراء برفقة سيفه الذي لا يفارقه فهو و إن كان من الإنس إلا أنه غدا كالجن في الشكل والصفات ، يقول في ذلك :

فإني وتركي الإنس من بعد حبهم
لكالصقر جليّ بعدما صاد منيةً
أهابوا به فازداد بُعداً وصدّه
ألم ترني صاحبت صفراء نبيعةً
وطال احتضاني السيِّف حتى كأنما
أخو فلوأت صاحب الجن وانتحي
له نسبٌ إنسيٌّ يُعرفُ نجره

وصبري عمّن كنت ما إن أزيله
قديراً ومشوياً عبيطاً خرادله
عن القرب منهم ضوءٌ برقٍ ووابله
لها ربيذٍ لم تُفلل معابله
يُلاط بكشحي جفنه وحمائله
عن الإنس حتى قد تقصّت وسائله
وللجنّ منه شكُّه وشمائله (5)

(1) داوية :المفازة البعيدة الأطراف - اليهماء : الفلاة التي لا ماء فيها ، ولا يهتدي لطرفها .

(2) يسرح : سرحت الإبل رعت ، (السوام) الإبل الراعية .

(3) تدب عقاربه : كناية عن الأذى .

(4) أثير : بضم الهمزة هو أثير بن عمرو الكوني الذي دعي لعلاج علي بن أبي طالب ، وكان أبصر

الأطباء بالطب

(5) الكامل للمبرد : ص 440 .

لقد ظل صعاليك الإسلام محتفظين بالطابع العام لشخصية الصعاليك من صلابة وشدة وتحريروا واعتداد بالذات، وكان لهم من القوة والمنعة ما جعل كثيراً من الأطراف المتنازعة في صراعات الفتن تحاول استمالتهم، كما في أخبار عبد الله بن الحر الذي تودد له كل من معاوية وعبد الملك بن مروان لكنه ظل حصناً مستقلاً عن الانطواء تحت أي سلطان، وكذلك طلب منه الحسين بن علي العون في القتال، فأبى وظل معتمداً بقوته واستقلاله (1).

وحاول بعض الأمراء استمالة بعض الصعاليك الشعراء كي يستفيدوا من شعرهم، فقربوهم وأجزلوا لهم العطاء، من هؤلاء بكر بن النطاح الذي رافق أبا دلف ومدحه (2).

وكذلك ما كان من مرافقة مالك بن الربيع لسعيد بن عثمان والي خراسان (3).

الأسباب التي أدت إلى عدم توقف الصعلكة في عهد بني أمية :

(1) جور وظلم الدولة الأموية :

كانت الأموال التي ترد على بيت مال المسلمين في عهد بني أمية كثيرة، وكثيرة جداً، ولكن خلفاء بني أمية لم يعدلوا بين الرعية في تقسيمها، حيث أن الخلفاء الأمويين أعطوا القبائل الموالية لهم، وحرّموا كل من ناصبهم العدا، ولم يلق لهم عصا الطاعة، وأضف إلى ذلك قسوة عمالهم، وولاتهم في جمع الأموال من الرعية، دون شفقة أو رحمة، أو مراعاة لظروف اقتصادية أو غيرها، " إن الصعاليك الأمويين لم يكونوا بعيدين عن هذه المظالم، بل كانوا متصلين بها واعين لها، ساخطين على الخلفاء الأمويين بسببها، ولعل أشهر صعلوك ندد بسياسة الأمويين الجائرة هو مالك بن الربيع التميمي " (4).

يقول مالك بن الربيع مندداً بجور الأمويين وظلمهم :

أحقاً على السلطان أما الذي له فُيُعْطَى وأما ما عليه فيمنع
وما أنا كالعير المقيم لأهله على القيد في جبوحه الضيم يرتع (5)

وفي أبيات أخرى يبدي رفضه لحالة الاضطهاد الذي يعاني منها، فيقول مهدداً :

(1) انظر خزانة الأدب للبغدادي جزء 2 ، ص 19- 22 ، عن الشعراء الصعاليك حفني (ص 100) .

(2) انظر الأغاني جزء 19 ، ص 36 وما بعدها .

(3) السابق جزء 22 ص 304 وما بعدها .

(4) انظر الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ، حسين عطوان ، دار الطليعة ، بيروت الطبعة الثانية 1981م ، ص 58 .

(5) الأغاني ، جزء 22 ص 309 - 310 .

إِن تُتْصَفُونَا يَا لَ مَرَوَانَ تَقْتَرِبُ
فَإِنَّ لَنَا عَنْكُمْ مَزَاحًا وَمَزْحَلًا
فِي الْأَرْضِ عَن دَارِ الْمَذَلَّةِ مَذْهَبُ
إِلَيْكُمْ وَإِلَّا فَأَذْنُوا بِبِعَادِ
بَعِيسٍ إِلَى رِيحِ الْفَلَاحِ صَوَادِي
وَكُلُّ بِلَادٍ أُؤْتِنَتْ كِبْلَادِي (1)

إن مالك بن الريب يشكو من ظلم بني أمية، وجورهم، وعدم عدلهم بين القبائل العربية، ومن الصعاليك الذين رافقوا مالك بن الريب وثاروا معه، شظاظ وهو مولى بني تميم، وكان أخبثهم، وأبو حردبة أحد بني ائاله بن مازن، وغويث أحد بني كعب بن مالك بن حنظلة وفيهم يقول الراجز :

اللَّهِ نَجَاكَ مِنَ الْقَصِيْمِ
وَمِن بَنِي حَرْدَبَةَ الْأَثِيْمِ
وَمِن شَظَاظِ الْأَحْمَرِ الزَّيْمِ
وَبَطْنِ فُلْجٍ وَبَنِي تَمِيمِ
وَمَالِكِ وَسَيْفِهِ الْمَسْمُومِ
وَمِن غُوَيْثِ فَاتِحِ الْعُكُومِ (2)

(2) اضطراب الأحوال السياسية :

كان عهد بني أمية عهد فتن وثورات وتمرد، الأمر الذي شغل الأمويين طويلاً، وكلفهم كثيراً، فكان الأمويون يستعينون ببعض القبائل العربية العدنانية على أعدائهم الثائرين، هذه القبائل التي لا يلتفتون لها إلا في وقت الشدة، فإذا ما أخمدوا نار الفتنة، واستتب لهم الأمر، انقلبوا على هذه القبائل، الأمر الذي يرى فيه بعض الشعراء الصعاليك، خيانة للعهد، وإنكاراً للفضل، يقول مالك بن الريب :

لَوْ كُنْتُمْ تَنْكُرُونَ الْغَدَرَ قَلْتُمْ لَكُمْ
لَا كُنْتُ أَحَدُثُ سُوءًا فِي إِمَارَتِكُمْ
نَحْنُ الَّذِينَ إِذَا خَفْتُمْ مَجَالَّةً
حَتَّى إِذَا انْفَرَجَتْ عَنْكُمْ دُجْنَتُهَا
يَا آلَ مَرَوَانَ جَارِي مِنْكُمْ الْحَكْمِ
وَالَّذِي كَانَ مِنِّي قَبْلَ يَنْتَقِمِ
قَلْتُمْ لَنَا إِنَّا مِنْكُمْ لَتَعْتَصِمُوا
حَرْتُمْ كَجَرَمٍ فَلَا إِلَّ وَلَا رَحِمُ (3)

ومن أبرز الصعاليك الأمويين الذين أنشأتهم الأحوال السياسية المضطربة عبد الله بن الحجاج من قيس، وعبيد الله بن المر الجعفي، أما عبد الله بن الحجاج فيصفه أبو الفرج الأصفهاني بأنه " شاعر فاتك شجاع من معدودي فرسان مضر ذوي البأس والشجاعة والنجدة "، كما يصفه أيضاً بأنه : كان شجاعاً فاتكاً صلوكاً من صعاليك العرب،

(1) الكامل للمبرد : 630 .

(2) الأغاني : ج 22 : 305 .

(3) الأغاني ، ج 220:310 ، - الإل : العهد ، المرجم : القرابة .

متسرعاً للفتن (1) " وليس من شك في أنه لم يتصعلك ولا تسرع إلى الفتن إلا لأنه رأى الأمويين قد أزهقوا قبيلته من أمرها عسرا، ونكلوا بها في موقعة مرج راهط أشد التنكيل، ومن أجل ذلك فإنه انحاز إلى كل من تمرد عليهم، نكاية بهم، وإغاضة لهم، وسعياً للإطاحة بهم (2) .

(3) العصبية الجاهلية :

نحن نعلم أن القبائل العربية آمنت بالإسلام واطمأنت له وعملت بتعاليمه ، فسادت الأخوة في الدين ، وذابت العصبية المقيتة فأصبح التعصب للدين ، و للقبيلة ، غير أن نفرا من العرب لم يعجبهم هذا الانقياد، وهذه الطاعة، فاستحكمت منهم الجاهلية بعصبيتها ، فأصبحوا شذاذاً، تخلت عنهم قبائلهم، وفتهم، لكثرة جرائمهم . فلم يجدوا ملاذا لهم إلا الصحراء بعيداً عن عيون الدولة وكل من يحاول الإمساك بهم أو اعتقالهم .

ومن هؤلاء الصعاليك يعلى الأحول اليشكري الذي خلعة قومه وتبرأوا من جرائمه إلى العرب، فانضم إلى اللصوص وأخذ يغير على أحياء العرب ويقطع السابلة (3) . والأحيمر السعدي الذي كان (لساً) كثير الجنایات ، فخلعه قومه، وخاف السلطان، فخرج في الفلوات وقفار الأرض (4) وعبيد بن أيوب العنبري، وكان قد جنى جنایة فطلبه السلطان . وأباح دمه، فهرب في مجاهل الأرض، وأبعد لشدة الخوف ، وكان يخبر في شعره أنه يرافق الغول والسُّعلاة ، ويبايت الذئب والأفاعي ويأكل مع الطباء (5) والقتال الكلابي، وهو من بني أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وهو القائل :

أَيُرْسِلُ مِرْوَانَ الْأَمِيرُ رِسَالَةً لَاتِيَهُ، إِنِّي إِذْنٌ لُمَضَّلٌ
وَفِي بَاحَةِ الْعَنْقَاءِ أَوْ فِي عَمَايَةٍ أَوْ الْأَدْمَى مِنْ رَهْبَةِ الْمَوْتِ مَوْتٌ
وكان فاتكاً متمرداً ، خلعتة قبيلته لكثرة جنایاته (6) .

(1) انظر الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ، دار الطليعة بيروت ، الطبعة الثانية 1981م ، ص 59-60

(2) السابق : 60 .

(3) السابق : 61 .

(4) الشعر والشعراء : ج2 : 671 .

(5) السابق : ج2 : 668 .

(6) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة الجزء الثاني : ص 594 .

" وعلى اختلاف هذه الطبقات الثلاث وهم الذين تصعلكوا تمرداً على الظلم الاجتماعي والذين ثاروا أنفة وشذوذاً وعصبية جاهلية، والذين خرجوا على السلطان عصبية لقبائلهم وثورة على جور السلطان الحاكم التي تألف منها الصعاليك في المجتمع الأموي وتباين الأسباب التي حملتهم على التصعلك فقد وحد بينهم الفقر والتأبّد والثورة ، ونزلوا بالصحراء أو بالمناطق التي لا يمتد إليها نفوذ والدولة ، خارجين عن قبائلهم ، وثائرين على السلطان ، ومتخذين الغزو والإغارة وسيلة إلى كسب آوادهم ومؤمنين بأنهم لا يرتكبون خطأ ، بل يحافظون على حياتهم ، ويحققون الكرامة لأنفسهم (1) " .

إن حركة الصعلكة ظهرت بقوة في العصر الأموي ، للأسباب السالفة الذكر . وظل صعاليك العصر الأموي يحيون حياة مشابهة لحياة صعاليك الجاهلية من حيث العيش في الصحراء بعيداً عن الناس ، يغيرون على القوافل ، ويقطعون الطرق وفي بيئة مترامية الأطراف سهلت عليهم سبل العيش والاختباء عن أعين الناس ، فظلوا مشردين منبوذين ، مطاردين يحيون حياة الأنفة والكبرياء ، لا يرون لأحد عليهم فضلاً ولا يدينون لسلطان ، يقول مالك حين وافته المنية بعيداً عن وطنه (2) :

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكياً
وأشقر خنذيذ، يجر عناته إليّ الماء لم يترك له الدهر ساقياً (3)

إنها حياة الصعاليك في الجاهلية والإسلام ، ليس لهم إلا التشرد والبعد عن أهلهم ووطنهم ، بعيداً في مجاهل الصحراء ، حيث الجبال و الأودية ، والملاذ الآمن من الأعداء . إنها البيئة العربية هي هي ، لم تتغير ، وذلك لأن الكثير من القبائل العربية في عهد بني أمية كانت ما زالت محافظة على طابع عيشها ، ولم تتغير .

(1) الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول ، حسين عطوان : 62 .

(2) جمهرة أشعار العرب ، الأبى زيد القرشي : 348 .

(3) الخنذيذ: الجواد الكريم الأصيل .

ثانياً - مكانة المرأة في العصر الجاهلي

احتلت المرأة في عصر ما قبل الإسلام مكانة رفيعة سياسياً ، واجتماعياً ، واقتصادياً مكانة يمكن استيضاحها بجلاء من خلال النظر في شعر العرب الذي هو مرآة حياتهم ، ولسان حالهم ، الذي لا يوجد أصدق منه دليلاً ، كذلك بالنظر في بعض كتب التاريخ وغيرها .

1- المكانة الاجتماعية :

لم يكن دور المرأة في الجاهلية خافياً على أحد ، حيث سادت ، و شُرفت ، وعلت مكانتها ، فاعترف لها الرجل بالفضل والمنزلة الكريمة السامية ، بل تودد إليها أحيانا لينال رضاها ، ويستميل قلبها ، فمن أجلها يحارب ، ويستبسل في حربه ، ولها يتوجه بكريم الصفات ، وعظيم الفعال ، يقول عنتره مخاطباً ابنة عمه ، ومفتخراً ببطولاته وتضحياته في الحرب :

هلا سألت الخليل يا بنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الواقعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم⁽¹⁾

ومن الدلائل على المنزلة العظيمة التي تبوأتها المرأة وصولها لمواقع السلطة والرياسة مثل (زنوبيا) التي حكمت تدمر ، و (بلقيس) التي حكمت سبأ ، حيث صور القرآن عظم عرشها بقوله : " أوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم " ⁽²⁾ ، ووصف حكمها الذي يقوم علي الشورى فقال " يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون " ⁽³⁾ .

ومن النساء من عرفت واشتهرت بالفطنة والذكاء واللسن واللقن والجواب العجيب والكلام الفصيح والمثل السائر كما اشتهر بعض الرجال، فمنهن هند بنت الخس - وهي الزرقاء، وجمعة بنت حابس، ورابعة القيسية، ومعاذة العدوية، ومنهن صحر بنت لقمان، وحذام بنت الريان . ومن الشهيرات اللواتي ضرب بهن المثل مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث الكندي، وهي أم الحارث الأعرج ملك غسان، التي يقول فيها حسان بن ثابت :

(1) ديوان عنتره ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط 1985م ص 123

(2) النمل (23) .

(3) النمل (32) .

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر بن مارية الكريمة المفضل (1)

وقد ضرب المثل بقرطبيها فقيل : " خذه ولو بقرطي مارية " أي خذه ولو بالشيء العزيز الذي لا يقدر عليه (2).

ومن علو شأن المرأة في الجاهلية أنها كانت تجير كالرجال ويقبل جوارها ، فقد أجات فكيهة بنت قتادة السليكي بن السلكة وحمته ، وفي ذلك يقول :

لعمر أبيك والأبناء تنمي نعم الجارُ أختُ بني عوارا
من الخفريات لم تفضح أباهما ولم ترفع لإخوتها شنارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا (3)

وحمت ريطة بنت جدل الطعان دريد بن الصمة ، اعترافاً بفضله ، لأنه كان قد أعطى رمحه ربيعة بن مكرم يوم حمى الطعينة ، وألقت عليه ثوبها وقالت : يا آل فراس أنا جارة له منكم ، هذا صاحبنا يوم الوادي ، فحبسه القوم وقالوا لا ينبغي أن نكفر نعمته ، وقال بعضهم والله لا يخرج من أيدينا إلا برضى المخارق الذي أسره ، فإنبعثت ريطة في الليل تقول :

سنجزي دريداً عن ربيعة نعمة وكل فتى يجزى بما كان قدما
سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة بإعطائه الرمح السديد المقوماً
فلو كان حياً لم يضق بثوابه ذرعاً ، غنياً كان أو كان معدماً
ففكوا دريداً من أسار مخارق ولا تجعلوا البؤس إلى الشر سلماً

فلما أصبح القوم تعاونوا بينهم فأطلقوه ، وكسته ريطة وجهزته ، ولحق بقومه ، فلم يزل كافاً عن غزو بني فراس حتى هلك (4).

بل لقد سمت بالمرأة مكانتها إلى أن تشترك أحياناً في حلف الرجال ، وتتعاقد معهم على ما يتعقدون عليه ، فقد اشتركت عاتكة بنت مرة بن هلال زوجة عبد مناف في حلف الأحابيش بين عبد مناف وخزاعة ، وبني الحارث بن عبد مناف بن كنانة (5).

واشتركت أم حكيم البيضاء أو أختها عاتكة بنت عبد المطلب في حلف المطيبين ، إذ أخرجت طيباً في جفنة ، فتطيب به بنو عبد مناف ، وأسد ، وزهرة ، وبنو تميم ، وبنو

(1) الديوان ، دار الكتب العلمية . بيروت - لبنان ط. 1986م ص148 .

(2) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ص524 .

(3) ديوان الصعاليك ، 187، 188 . الخفريات : الحيات ، الشنار : العيب والعار .

(4) المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي ، ص 535 - 536 .

(5) السابق ص 537 .

الحارث من فهر ، فسموا المطيبين ، وكان ذلك لما تحالف بنو عبد المطلب ، وآزر بنى سهم بني عبد الدار (1) .

وشاركت عاتكة بنت عبد المطلب ، أو أختها أم حكيم البيضاء في حلف الفضول الذي شهده الرسول ﷺ الذي قال فيه " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت " وكان هذا الحلف لنصرة المظلوم وحماية المستضعف (2).

2- حقوقها :

تمتعت المرأة بحقوق واسعة في العصر الجاهلي ، ربما لم تتمتع بها مثيلاتها من النساء الأخريات في المجتمعات المجاورة للمجتمع العربي ، وفي الشعر دلائل كثيرة على ذلك . " فالمرأة وهي فتاة تعيش في بيت أبيها تلقى منه كل عطف ، ومن حقها أن تنعم بحياته وخيره ، وقد عاشت بنات الأشراف ، -خاصة- ، عيشة رغيدة ناعمة ، كما تتشاهد صورهن في الشعر فلبسن الخز والحريير والديباج ، وقامت الإماء العديداً على خدمتهن " (3) يقول الأعشى :

ترى الخز تلبسه ظاهراً وتبطن من دون ذلك الحريراً
إذا قلدت معصماً يا رقيب ن فصل بالدر فصلاً نضيراً
وجل زبرجدة فوقه وياقوتة خلّت شيئاً كبيراً (4)

بل لقد كانت البنات حقيقات بعطف الآباء وتدليلهم ، يقول الأعشى (5) :

ألا قل لتيآك مابالها ألبين تُحْدج أحمالها (6)
أم للدلال فإن الفتا ة حق على الشيخ إدلالها

وربما نجد العربي يحرص على حياته من أجل بناته (7) ، كي لا يمسهن ضرر بعده وقد نجده مشغولاً بهن بعد موته ، فيطلب منهن ألا يخمشن وجهاً ، ولا يحلقن شعراً ، تفجعاً عليه (8) ، وكل ذلك شفقة بهن ، ومحافظة عليهن .

(1) السابق / 538 .

(2) سيرة بن هشام ج 1 ، 144 . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . مطبعة حجازي بالقاهرة .

(3) المرأة العربية في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي ، ص: 59 .

(4) الديوان : 131 .

(5) الديوان : 199 .

(6) الحدج : هو مركب من مراكب النساء كالهودج .

(7) انظر شعر اسحق بن خلف ، زهر الآداب ج 2 : 174 ، القاهرة 1969 م .

(8) انظر شعر لبيد ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ج 1 : 275 .

إن هذه الفتاة المدللة المنعمة ، ذات المكانة المرموقة ، والمنزلة الرفيعة ، عند والديها وأهلها وعشيرتها ، كانت من حقها أن تختار شريك حياتها إذا ما خطبت ، فترفض من تشاء وتوافق على من تشاء ، فهذا تأبط شراً يخطب امرأة من هذيل من بني سهم ، فترفضه ، لقول بعضهم لها : لا تنكحيه ، فإنه لأول نصل غداً يفقد ، فيقول معلقاً على رفضها (1) .

وقالوا لا تنكحيه فإنه
فلم ترمن رأي فتيلاً وحاذرت
قليل غرار النوم أكبر همّه
لأول نصل أن يلاقي مجعماً
تأيمها من لابس الليل أروعا (2)
دم الثأر أويلقى كمياً مقتعاً (3)

ورفضت الخنساء ثريد بن الصمة زوجاً لها بالرغم من أنه كان سيد قومه وفارسهم الشجاع ، وشاعرهم المفلق (4) . إن المرأة العربية تحب الزواج من الشاب اليافع القوي ، وترفض الزواج من الشيخ الكبير ، وهذا سبب مقنع لرفض الخنساء دريد ، كذلك رفضت علقمة بنت خصفة الطائي الحارث بن سليل الأسدي ، وكان شيخاً ، وفضلت بنت ذي الإصبع العدواني الشاب زوجاً على غيره (5) .

وإذ كان من حق المرأة أن تختار شريك حياتها ، فإنه كان من حقها أن تراقب أفعاله وتصرفاته ، وأن تطلع على شؤونه وماله لأنها ترى أن خيرها وشره ، إنما يعود عليها ، ولذلك نجدها تلومه إن أسرف في ماله ، وتدعوه إلى الاعتدال ، يقول تأبط شراً (6) .

بل من لعداله خذالة أشب
تقول أهلت مالا لو قنعت به
عاذلتني إن بعض اللوم معنفة
حرق باللوم جلدي أي تمراق
من ثوب صدق ومن بز وأعلاق
وهل متاع و إن أبقيته باق (7)

ولامت زوجها حاتم زوجها على إسرافه لوماً كثيراً ، وله شعر جميل في الرد عليها .
(8) كذلك كانت ترى من حقها أن تحافظ على حياته وتلومه على تعريض نفسه للخطر (9)

(1) الأغاني جـ 21 : 164 ، والحماسة لأبي تمام : 189 ، وديوان الصعاليك : 138 - 139 .

(2) فتيلاً : بديلاً ، التأيم : فقد الزوج .

(3) الكمي : : البطل المسلح .

(4) انظر القصة في شاعرات عصر الإسلام الأول . د0 نبيل أبو علي : 21 ، 22 .

(5) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي : 168 وما بعدها .

(6) المفضليات : 30 .

(7) العذالة : الكثير العذل - الأشب : المعترض - العلائق : كرائم الأموال - البز : الثياب

(8) انظر ديوان حاتم الطائي : 74 ، 78 ، 83 ، 104 ، دار صحب بيروت ،

(9) انظر ديوان عروة : 67 ، والأصمعيات : 43 ، 44 .

ولا يعني هذا أن المرأة كانت تريد من زوجها أن يكون بخيلاً أو جباناً ، بل نجدها تلومه على الجبن إذا جبن، فهذا تأبط شراً يفرُّ عن صاحبه الذي قتل ، ويعود وحده فتقول له زوجته تركت صاحبك وجئت متباطئاً (1) " لقد كانت المرأة ميزاناً من موازين الاستقامة ترى في الرجل ما يراه ، وما لا يراه ، وتسعى لتقوم ما أعوج من خلقه وعمله ، فكان من حقها أن تمنعه من الإسفاف والعكوف على اللهو والخمر (2) " يقول الأعشى (3) :

ذريني لك الويلات آتي الغوانيا متى كنت زراعاً أسوق السوانيا (4)

ومن الحقوق التي حصلت عليها المرأة ، وخصوصاً بنات الأشراف ، هي حقوق التملك ؛ مثل أن تملك قرارها في تطبيق نفسها من زوجها متى شاءت ، إذا لم تستقم لهن الحال ولم يطب لهن العيش ، ومن هؤلاء ، سلمى أم عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف ، و فاطمة بنت الخرشب الأثمارية ، وهي أم الكلمة ، وأم خارجة بن بجيلة ، ومارية بنت الجعد وعاتكة أم هاشم (5) .

كما كان من حقها تملك المال ، تتصرف فيه كما يتصرف الرجل ، مثل زوجة حاتم الطائي التي كان لها مالها ، وله ماله ، فهو يطلب منها أن تتركه يتصرف في ماله ، وهي حرة في مالها الخاص بها ، يقول :

ذريني وحالي إن مالك وافر وكل امرئ جار على ماتعود (6)

وكانت عتبة بنت عفيف - وهي أم حاتم - تملك المال وتتلفه في الجود و الكرم ولا تمنع أحدا حتى أن أخواتها لاموها علي ذلك و حجروا عليها مدة من الزمن وفي ذلك تقول (7) .

لعمري ، لقدما عضني الجوع عضه	فآليت ألا أمنع الدهر جائعا
فقولاً لهذا اللامي اليوم أعفني	فإن أنت لم تفعل فعض الأصابع
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم	سوى عد لكم أو عدل من كان مانعا ؟
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة	فكيف بتركي يا ابن أم الطبايعا ؟

(1) انظر ديوان الصعاليك : 173 ، والأغاني ج 21 : 153 .

(2) المرأة في الشعر الجاهلي . علي الهاشمي : 59 .

(3) الديوان : 365 .

(4) السواني : إبل الماء .

(5) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 60 .

(6) ديوان حاتم : 74 .

(7) المرأة العربية ، عبد الله عفيفي ج 1 : 79,80 ، ديوان حاتم (التمهيد) : 28 .

وكانت خديجة رضي الله عنها من ذوات الثروة والتجارة ، وكان الرسول ﷺ يتاجر لها في مالها ، وكان لثريات مكة نصيب في القوافل التجارية التي اعتادت أن تعبر الصحراء شمالاً وجنوباً (1) .

ولعل من أهم حقوق المرأة علي الرجل هو أن يحميها في وقت الشدة والكرب ، ويدافع عنها بكل ما يملك من قوة ، بل إن حماية المرأة كان مبعث فخر عند الشعراء العرب (2) . ولا عجب في ذلك ، فالمجتمع العربي مجتمع قبلي محافظ ، لذلك كانت الحماية متوفرة لجميع القبيلة وليس ما يخص الرجل وحده ، بل لقد كان العربي يفخر بصون الأعراض ، وحماية الحرمات ، وإكرامه لجاراته ورعايتهن ، والمحافظة عليهن ، فحماية الجارات ، وصون أعراضهن ، وغض البصر عنهن كان مبعث فخر للعرب ، وفي ديوان حاتم الكثير من الشعر الذي يفخر فيه بهذه الصفة (3) 0 كذلك نجد عنثرة يفتخر بعفته وغضه لبصره عن جاراته (4) .

وبعد فإن الذي يستقريء شعر العرب ، ويقرأ تاريخهم ، يعرف بما لا يدعو للشك أن المرأة تبوأ مكانة مرموقة عزت فيها وشرفت ، وصانها الرجال بأرواحهم وأنفسهم وتنافسوا في الذود عنها وحمايتها ، بل لم يتردد العربي في خوض الحرب من أجلها إذا تعرضت لإهانة (5) .

3- واجباتها :

لم يكن العرب ليرهبوا نساءهم بالأعمال والواجبات ، كما فعل غيرهم من الشعوب مثل اليونان والفرس ، والعربية كانت تختلف حالتها باختلاف الأسرة التي تعيش فيها ، فنساء الأسرة الراقية قل أن يقمن بالأعمال المنزلية وغيرها ، إذ تكفيهن الإماء والخاديمات مؤونة الطبخ ، وضرب الخيام ، وجلب الماء ، والغسل وغير ذلك ، أما في الطبقات الوسطى والفقيرة فالنساء يقمن بأعمالهن ، بأيديهن ، ومع هذا ففي جميع الأحوال كانت إدارة البيت

(1) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 61 .

(2) انظر معلقة عمر بن كلثوم شرح القصائد المشهورات ، ابن النحاس ج 2 : 122,124 . الأبيات من 80 ، 89 .

(3) انظر ديوان حاتم الطائي : 94,101,106 .

(4) انظر ديوان عنثرة : 153 ، دار الكتب العلمية بيروت 1985 م .

(5) حرب الفجار الأولى ، حرب البسوس ، حرب ذي قار .

منوطة بالمرأة ، والسيادة فيه للرجل ، فعلى المرأة تنظيم بيتها ، ورعاية أطفالها ، وتهيئة الغذاء واللوازم لهم ، وعليها أن تحافظ على كرامة البيت وسمعة صاحبه (1).

والعربي نجده كثيراً يحترم كرم زوجته وحياءها ، وحسن أخلاقها ، وحفظها لبيتها وبيت زوجها ، وحسن علاقتها بجاراتها (2). وربما نجده غيورا عليها ، مراقبا لها (3) وقد نجده قاسيا ، شديدا عليها ، يعنفها ويغلظ القول لها إذا ما أكثرت في لومه أو تدخلت فيما لا يعنيه ، فهذا عنتره يقسو على امرأة له من بجيله لا تزال تذكر خيله وتلومه في جواد كان يؤثره علي خيله ، ويسقيه ألبان إبله (4). إن من أهم واجبات المرأة رعاية البيت ، وتربية الصغار ، وهذا الأمر يتقل كاهلها ، الأمر الذي يجعل الرجل دائما يخف لمساعدتها ، والتخفيف عنها ، كذلك نجد أن المرأة هي التي تقوم علي خدمة الضيف ورعايته والعناية بأمره ، وقد صور أوس بن حجر عناية ربة البيت بالضيوف واهتمامها الفائق بشؤونهم ممتدحا لها ذلك (5). وربما تتعرض المرأة للهجاء إذا قصرت في حق الضيف ، ولم يجد عندها الراحة المنشودة لأنها هي المسؤولة عندهم (6).

لم تكن أيام العرب كلها سلما ، بل عاش العرب في الجاهلية حروبا متتابعة ، يطول بعضها ، ويقصر بعضها ، فكثر فيهم القتل والجرح ، والأسر والغنم ، فكان العربي إما منتصرا مزهواً بنصره ، وإما موتورا حانقا يلهب صدره ، ويشند غيظه ، فيحرم نفسه من ملذات الحياة كالنساء ، والطيب ، واللباس والشرب والهناء حتى يأخذ بثأره ، الثأر الذي أقض مضاجعهم ونغص عيشهم ، وفي شعر المهامل (7) وغيره دليل واضح على ذلك .

لم تكن المرأة بمنأى عن هذه الحروب ، فربما كانت هي نفسها سببا في هذه الحرب ، فمن أجلها يحارب العربي ، وعنها يدافع ، فهي جزء من النسيج الاجتماعي ، يفرحها ما يفرح أهلها ، ويسوؤها ما يسوؤهم ، لذلك وجدنا أن المرأة لعبت دورا بارزا في دفع الرجال للحرب ، وحضهم عليها بكل طريقة ممكنة ، وشعرها في تأجيج المشاعر ، وإثارة الحفيظة

(1) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي 63 .

(2) انظر شعر الشنفرى في الأغاني 21:209 ، المفضليات : 108-112 ، ديوان الصعاليك : 15-20 .

(3) ديوان الأعشى : 129 - 130 .

(4) ديوان عنتره : 18 .

(5) انظر شعره وقصته في كتاب المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 65 .

(6) السابق : 66 .

(7) انظر شعر الحرب في العصر الجاهلي ، علي الجندي ، دار الفكر العربي ص : 196 .

للأخذ بالثأر كثرة ، فللخنساء شعر في تحريض قومها للأخذ بالثأر لأخيها (1) ، كذلك حرّضت كبشة أخت عمرو بن معد يكرب قومها على الثأر لأخيها عبد الله حين هم أخوها عمرو بقبول الدية ، أو حين توهمت أنه سيقبلها ، فتحدثت لسان القتل مهيجة حميتهم ناهية عن قبول الدية ، منددة بهم إن لم يأخذوا بثأرهم ، مشبهة إياهم بالنعام في جنبه وفراره (2) . وهذه أمية امرأة عروة بن مرة تدخل على أبي خراش وهو يلاعب ابنه ، فنقول له ، يا أبا خراش تناسيت عروة وتركت الطلب بثأره ، ولهوت مع ابنك ، أما والله لو كنت المقتول ما غفل عنك ، ولطلب قاتلك حتى يقتله ، فلما سمع ذلك بكى أبو خراش (3) .

وكانت النساء يخرجن خلف الجيوش ليحمسن الرجال ، ويحفزنهم على الاستبسال في القتال ، ومهاجمة أعدائهم بقوة وجرأة وقد أشار عمرو بن كلثوم إلى ذلك في معلقة (4) وأشار إلى ذلك حسان بن ثابت بقوله (5) .

تَظَلُّ جِيادُنَا مَتمَطَّراتٍ تَطْمَهُنُ بِالخُمْرِ النساءِ (6)

وهن كباقي أفراد القبيلة كن يسعدن بالنصر ، ويبتهجن له ، فتتطلق حناجرهن بالغناء مرددات أغاني النصر والفخر ، فقد تغنت شمعة بنت الأخضر بن هبيرة بانتصار قومها يوم الشقيقة، (7) وأشادت الخنساء بالثأر لأخيها معاوية ، فمدحت قيس بن عامر بعد قتله هشام بن حرملة الذي قتل معاوية ، وجعلت نفسها وأهلها فداء له . (8) وافتخرت عاتكة بنت عبد المطلب بن هشام بيوم عكاظ في حرب الفجار (9) .

إنهن يجدن الراحة ، والبهجة في الأخذ بالثأر ، لا لأن العدائية متأصلة فيهن ، بل لأن طبيعة الحياة الجاهلية كانت قاسية ، مؤلمة ، اكتوت المرأة بنار حربها المتأججة ، ففقدت الزوج أو الأخ ، أو الوالد ، و القريب ، كل ذلك ورث المرأة جراحاً لا تندمل ، وحرناً وألماً لا ينقطع ، إلا بالثأر من الأعداء ، الثأر الذي تجد فيه النساء ، براءاً للجرح ، وتطيبياً

(1) ديوان الخنساء : 112 .

(2) انظر المرأة في الشعر الجاهلي . أحمد الحوفي : 639 .

(3) انظر الأغاني ، ج 21 : 247 .

(4) شرح القصائد المشهورات ، ابن لنحاس ج 2 : 122 - 124 .

(5) الديوان : 19 ، دار الكتب العلمية - بيروت 1986 .

(6) متمطرات : متسرعات ، تَطْمَهُنُ : تضرب على وجوههن بالخمر .

(7) انظر أيام العرب في الجاهلية ، محمد أحمد جاد المولي وآخريين - مطبعة الحلبي 1942 ، ص 386 .

(8) ديوان الخنساء : 231 .

(9) انظر شعرها في ديوان الحماسة ، لأبي تمام : 314 .

للخواطر ، وذهاباً للهموم والأحزان . تقول الخنساء في مخاطبة عامر الجشمي :

كما من هاشم أقررت عيني وكانت لا تنام ولا تتييم (1)

لهذا رافقت النساء الجيش لتحسيس المقاتلين ، والشعر العربي يرصد لنا هذه الظاهرة التي أصبحت معهودة في المجتمع الجاهلي ، يقول المهلهل وهو في أول الحرب يتوقع ظهور المخدرات لدعوة المقاتلين للاستبسال :

قربا مربط المشهر مني سوف تبدو لنا ذوات الحجال (2)

إن تعرضهن للخطر يبعث في نفوس المحاربين الشجاعة والاستبسال ، ولهذا ضرب حنظلة بن ثعلبة في ذي قار قبة وسط المعركة ، فجمع حولها النساء ، فاشتد قتال العرب فوقفن أمام الجيش الفارسي حاسرات عنهن الحجب ، صارخات بالفرسان ، باذلات لجمالهن الرخص ، فقد ألهاهن الرعب والذعر عن الخجل والتستر (3).

وكانت النساء العربيات يقاتلن بشجاعة وبسالة إذا اقتضى الأمر ، والتاريخ شاهد على ذلك ، حيث خلد لنا أسماء بعض النساء اللاتي وصفن بالشجاعة والبسالة في المعارك مثل : خولة بنت الأزور ، وأم عمارة ، وحمنة بنت جحش وغيرهن كثير . كذلك كانت تقوم بمداواة الجرحى وإطعام الجند وسقايتهم ، والقيام بمهام المراقبة والإسناد . وإذا ما انتهت الحرب فقد صور الشعر أن النساء كن يقمن المآثم على القتلى يبيكين ويشققن الجيوب ويخمشن الوجوه ، يقول الأفوه الأودي :

وجاء نساء الحي من غير إمرة رفيقاً كما زفت إلى العطن البقر

إلى قوله :

وأمر لها يبدو وأمر لها يسر

فنائحة تبكي وللنوح درسة

مسلبة قد مس أحشاءها العبر (4)

ومنهن من قد شقق الخمش وجهها

وكان بعض النساء يحلقن شعورهن ، ويعلقن النعال على صدورهن كما كانت

الخنساء تفعل حيث تقول :

ولكني رأيت الصبر خيراً من النعلين والرأس الحليق (5)

(1) الديوان : 231 .

(2) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ، عبد الله عفيفي - ج 1 ص 144 .

(3) المرأة في الشعر الجاهلي ، على الهاشمي : 72 - 73 .

(4) السابق : 77 .

(5) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ، عبد الله عفيفي : 189 .

وكان للنساء أعمال كثيرة عملتها قضاء للواجب، ودفعاً للملل، وتفادياً من سوء الأحدثوة، وهذه الأعمال تساوت فيها النساء جميعاً، المدللة، والسرية والسنية، ومن هذه الأعمال :

- (1) غزل أصواف الغنم ، و أوبار الإبل ، وذلك مسلاتهن وأداة لهوهن ، ومن أمثالهن في ذلك " نعم لهو الحرّة المغزل " .
- (2) الضرب على المعازف من دفوف ، وطبول ، وصنوج ومزاهر ، ومزامير وطنابير وأشباههما .
- (3) وكانت المرأة تقوم بأمر البيت ، وما إليه من المطاعم ورعاية الخيل وهنء الإبل (1) .

وهناك أعمال يتناولها نوات الخصاصة من النساء ، دفعاً للحاجة ، واستدفاعاً لذل السؤال ، ومن ذلك جمع الكمأة من الأودية وبيعها ، ودبغ الجلود ، وتنميق الحصير وانتجاع الأسواق ، وارتياح مختلف الأحياء ، لابتياح التمر والعسل والسمن ، أو بيعها ، أو استبدالها بأمثالها ، واعتراض الركبان في مغداهم ورواحهم بالقدور والأدم يبعنها عليهم ، والطواف على الفتيان والفتيات بالعطر يطيبنهم به ، والنداء في الأحياء بين النساء بالخرز لتحلية الثياب ، وبال عقود والدمالج والقرطة وودعات الأطفال ، وهي عقودهم من الودع . كذلك عمل بعضهن في النياحة ، والكهانة ، والرضاعة وغير ذلك . على أن هذه الأعمال وإن آذن بعضها باتضاع في منزلته ، وهبوط في مادته ، فليس منها ما يؤذن بضعة في الخلق ، ولا ثلثة في العقل ، ولا ذلة في الحياة ، وإن كان شريفات العرب وربات الحسب منهن يتعالين عن الارتزاق بالصناعة ، فلم يتجاوزن بذلك حدّ الإذلال بالعز ، والمباهاة بالغنى ، فأما شرف النفس ونقاء العرض ، وصدق القول ، وفرط الإباء فهن فيها سواء (2) .

4- مُعَانَاتُهَا :

إن من أشد ما عانت منه المرأة العربية في العصر الجاهلي السبي والوَأد ، أما السبي فلأن العرب كانوا يحرصون عليه في حروبهم الكثيرة ، لأن السبي يوقع في العدو ما لا توقعه السيوف الباترة ، والنار الحارقة ، فالسبي فيه ما فيه من الإذلال والقهر ، والإهانة الملازمة لصاحبها . كذلك كان العربي يحرص على الأسر للرجل والمرأة كي يبادل بأسراه

(1) انظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي مطر ج1 من ص 84 - 86 .

(2) انظر السابق : 89 - 96 .

حيناً ، والانتفاع بالسبايا والأسرى حيناً آخر ، فالسبية تستولد دون مهر وصدق وغيره ، وقد يستفيدون من خلال مفاداة الأسرى بكثير من المال والإبل .

لقد كان العربي شغوفاً بالسبي ، يفخر به في كل مكان ، ويعير به عدوه في كل مناسبة ، فقد افتخر عامر بن الطفيل بسبي امرأة من عبس ، وقد استردها قومها بعد يوم ، فعيره عروة بسبي ليلي بنت شعواء ، وحسنا (1) . وكذلك افتخر عنتر بن شداد بسبيهم من بني ضبة وتميم (2) ، وافتخر الحارث بن حلزة بسبيهم من تميم (3) .

ومن الأمثلة على شيوع السبي في العصر الجاهلي ما يلي ، فقد أغار قيس بن زهير العبسي على بني مالك بن حنظلة ، فأخذ نسوة فيهن أم أسماء بن خارجة ، وهاج أبو جندب بن مرة خلعاء بكر وخزاعة على بني لحيان ، فقتل منهم وسبي من نسائهم وذرائعهم سبايا وأغار الهذيل بن هبيرة التغلبي على بني يربوع ، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً ، وأصاب نعماً كثيراً وسبي سبايا كثيراً ، وفي يوم النصار سبيت نساء كثيرات من شريفات بني عامر ، وفي يوم الزوير بين بكر بن وائل وتميم اجترفت بكر أموال تميم ونساءهم (4) .

وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد من العرب من يكرم المرأة السبية ، فيعرف لها قدرها في أهلها ، ويحفظ لها مكانتها ، فيعتقها ويعقد عليها ، ويتزوجها ، ويستولدها ، ويتخذها شريكة لحياته ، وربما أحبها وهام بها ، كما في قصة عروة والمرأة الكنانية التي تزوجها وبقيت عنده بضعة عشر سنة ، وولدت له أولاداً خمسة ، ثم أنها فضلت أهلها على العيش معه في قصة معروفة (5) ، وافتخر حاتم بإكرام السبايا ، ومساواتهن بنسائهم ، وبأنهن أنجبن أبطالاً أشاوس في القتال (6) .

ومهما يكن فقد ظلت المرأة العربية تكره السبي ، لما فيه من ذل وهوان ، لها ولجميع أفراد قبيلتها ، ولما فيه من غربة وبعد عن الوطن والأهل والأحبة ، لذلك كانت تحاول تجنبه بكل وسيلة ، فإن وقعت في الأسر ، فإنها تظل تتحين الوقت الذي تستطيع الخلاص منه (7) . لأنها تأنف أن تظل أمة وسبية في عيون الناس .

(1) الديوان : 47 .

(2) الديوان : 36 - 37 .

(3) شرح القصائد المشهورات ، ج2 : 69 .

(4) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي : 465 وما بعدها .

(5) انظر الأغاني ج3 : 72 - 74 ، ديوان عروة : 63 - 64 .

(6) انظر شعره في العقد الفريد ج7 : 123 - 124 * لم أجد الأبيات في الديوان .

(7) انظر الأغاني ج3 : 72 - 74 .

5- الوأد :

إن سبي النساء يورث العربي ذلاً وهواناً لا يفارقانه أبد الدهر لهذا فكر العربي في التخلص من هذا الأمر قبل وقوعه ،ولا سبيل إلي ذلك عند بعض العرب - إن لم يكن لديهم قوة ومنعة -إلا بوأد البنت صغيرة .

إن حرمان المرأة من الحياة يعتبر قمة الظلم والإجحاف في حقها ،فبعض العرب يكره الأنثى ،ويسوؤه ولادتها ،وكان إذا زوج ابنته إلي رجل من قومه قال لها : أيسرت و أذكرت ولا أنتت ... وإذا تزوجت في غربة قال لها : " لا أيسرت ولا أذكرت ،فإنك تدنين البعداء وتلدن الأعداء" . وقد صور القرآن حالهم هذا بقوله : " ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه علي هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون " (1) وقال تعالى : "وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا (أي البنات) ظل وجهه مسودا وهو كظيم أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ؟ " (2) .

لقد كان من هوان النفس الإنسانية في الجاهلية أن انتشرت عادة وأد البنات ، خوف العار ، أو خوف الفقر (3) . فالفقر والخوف من العار سببان من أسباب ظهور هذه الحالة الشاذة في المجتمع الجاهلي ،والتي حاربها الإسلام بكل قوة ، قال تعالى : " ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم " (4) . وقال تعالى : " وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت " (5) . لعل أول من سن هذه السنة للعرب هو قيس بن عاصم المنقري ، لأن ابنته وقعت في السبي ورفضت العودة له حين خيرها النعمان (6) وفي كنده سنها الحارث بن عمرو الكندي (7) وبعد ذلك أصبحت ظاهرة منتشرة .

إن الوأد أشنع ما اقترفته يد ظالمة أثمة ، في نفس بريئة طاهرة ،وذلك أن يعمد الرجل إلي وليدته ، وقد بدأت تستقبل الوجود ، وتستنشئ نسيم الحياة ، فيقذفها في حفرة من الأرض ، ويهيل علي جسمها التراب ، ثم يدعها في غمرة الموت بين طباق الأرض . والحق أن الوأد لم يكن معروفاً إلا في فرائق من ربيعة ، وكندة ،

(1) النحل : 58 - 59 .

(2) الزخرف : 17 .

(3) انظر ظلال القرآن ، سيد قطب ، ج-6 ، ص3839 .

(4) الإسراء : 31 .

(5) التكوير : 8 - 9 .

(6) أنظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي ج-1 : 44 .

(7) أنظر المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي : 209 .

وتميم ، وأفذاذ مغمورين لا يعدون قله من مختلف القبائل ، وهم بين رجلين : رجل أملق من عقل ومال ، فهو يخشي أن يسيء الفقر إلي أدب ابنته ، ويهتك من سترها ، ويبدل من عرضها وذلك جبان لا عزم له ، ولا ثقة ولا إيمان . والعرب براء منه ، وآخر من سرارة القوم ذهبت بعقله الغيرة ، وهوى بنفسه الإشفاق من تبدل الحوادث ، وتداول المثلات وما عسى أن يصيبها من ذل أو سبب ، وذلك وأمثاله شر مكاناً وأقل عدداً (1) .

إن هذه العادة كانت مستنكرة و منبوذة عند غالبية العرب ، بل لقد نهض من سادات العرب من حال دون الوأد ومن هؤلاء صعصعة بن ناجية التميمي ، الذي افتدى أربعمائة وليدة ، وزيد بن عمرو بن نفيل القرشي (2) .

وقد افتخر الفرزدق الشاعر الإسلامي الأموي بإحياء جده صعصعة للوئيدات في العصر الجاهلي في الكثير من قصائده (3) . ومهما يكن من أمر الوأد ، فقد ظل قليلاً ، شاذاً شذوذ فاعليه ، ولم يكن منتشرًا إلا في بعض القبائل مثل ربيعة وتميم وكندة ، وإلا من أين أتت هذه الجحافل البشرية التي اكتسحت الشرق والغرب نصرته لدين الله الجديد ، فملأت الأرض إيماناً وعلمًا وحضارة .

إننا إذا ما تجاوزنا هذه السوءة التي ما برحت تصم جبين فاعليها من الوائدين ، وجدنا العرب ، يكرمون بناتهم ، ويحرصون علي الحياة الكريمة العزيزة لهن ، بل يذوبون فيهن حبا وعطفا وحنانا ، يروي ابن عبد ربه في العقد الفريد أن صعصعة بن معاوية خطب إلي عامر بن الظرب حكيم العرب ابنته عمرة - وهي أم عامر بن صعصعة - فقال : يا صعصعة إنك أتيتني تشتري مني كبدي ، فارحم ولدي قبلتك أو رددتك ، والحسيب كفاء الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب وقد أنكحتك خشية أن لا أجد مثلك ، أفر من السر إلي العلانية يا معشر عدوان بين أظهركم كريمكم ، من غير رغبة ولا رهبة ، وأقسم لولا الحظوظ على الجدود ، ما ترك الأول للأخر ما يعيش به (4) .

هذا هو حال المرأة في المجتمع الجاهلي ، بكل ما فيه ، مالها ، وما عليها ، مالها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، وما عانت من ظلم وقهر وسلب للحريات ،

(1) أنظر المرأة العربية ، ج 1 : 44 .

(2) السابق ، ج 1 : 45 .

(3) أنظر علي سبيل المثال ، ديوان الفرزدق ص 477 ، مطبعة .الصاوي بمصر 1354 هـ .

(4) العقد الفريد ، ج 7 ، ص 77 .

حتى جاء الإسلام العظيم لينفض عنها غبار الضيم والظلم، ويرفعها إلى المكانة السامية التي أرادها الخالق لها .

ثالثاً - مكانة المرأة في الإسلام

إن كانت المرأة في العصر الجاهلي قد عزت وشرفت وسمت بها المكانة ، فعرف لها قدرها ، وحفظ لها حقها ، فملك القلوب ، وألهبت المشاعر ، إلا أنها لم تسلم من بعض مثالب هذا العصر و سوءاته التي ما لبث أن جاء الإسلام ، فأزال عنها ظلم الظالمين لا فرق بينها وبين الرجل . لقد نزلت آيات كثيرة في تنظيم حياة المرأة المختلفة من مهدها إلي لحددها ، أنصفتها وبينت مالها من حقوق ، وما عليها من واجبات ، نعم كان للمرأة حقوق وحرية في الجاهلية إلا أن هذه الحريات والحقوق لم تكن قوانين أو شرائع ، وإنما كانت أعرافا يجترئ عليها الرجل في حالات كثيرة ، فجاء الإسلام ليقر للمرأة ما هو صالح من تلك الحريات والحقوق وينفي عنها ما هو غير ذلك (1).

(1) الحق في الحياة :

أخذ الإسلام على العرب قتلهم أبناءهم ، وسفه أحلامهم ، وقبح فعلهم ، قال تعالى : " وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون " (2). وقال تعالى : " وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم " (3). هذا حال بعض العرب التي صورها القرآن ، وأظهر فيها كرههم للبنات واستيائهم بخبر ولادتهن ، لذلك وجدنا القرآن يقضي على هذه العادة السيئة ويستتقذ البنت من برائن الوأد ، فيقول جل جلاله: " ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم " (4). وقال تعالى : " وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت " (5). إن القرآن يسفه أحلام هؤلاء الرجال ويحط من قدرهم ، حيث أنه يوجه الخطاب في سورة التكوير للموؤودة ، وليس للوائد .

ومع هذا التحريم الصريح لوأد البنات نجد السنة المطهرة جاءت محببة ومرغبة في البنات وتربيتهن ، قال ﷺ : " أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها وأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران " (6).

(1) انظر شاعرات عصر الإسلام الأول ، د. نبيل أبو علي : 36 .

(2) النحل : 58 - 95 .

(3) الزخرف : 17 .

(4) الإسراء : 31 .

(5) التكوير : 8 - 9 .

(6) صحيح البخاري ، ج 6 : 120 ، باب النكاح_ دار الفكر .

وهذا حديث لعائشة رضي الله عنها ، تقول : " دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندي شيئاً غير تمر ، فأعطيتها إياها ، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ، ثم قامت فخرجت فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال : " من ابتلي من هذه البنات بشيء كن له ستراً من النار " (1) .

وإنما قال ﷺ (ابتلي) فسمى ولادة البنات ابتلاء لأن العرب تكره البنات ، فجاء الشرع يزرهم عن ذلك ، ورغب في ابقائهن ، وترك وأدهن بما ذكر من الثواب الموعود به من أحسن إليهن وجاهد نفسه في الصبر عليهن .

وكان ﷺ محباً لبناته رقيقاً بهن ، وليس أدل على ذلك من موقفه من خطبة علي لبنت أبي جهل ، وذلك أن علياً بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل ، فسمعت بذلك فاطمة ، فأنت رسول الله ﷺ فقالت : يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك ، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل ، فقام رسول الله ﷺ فتشهد وقال : " أما بعد أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني ، وإن فاطمة بضعة مني ، وإني أكره أن يسوءها ، والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ ، وبنت عدو الله ، عند رجل واحد . " فترك علي خطبتها (2) .

فلا عجب بعد هذا أن نجد المسلمين يحبون بناتهم ، وترضي بهن نفوسهم وذلك بعد سماعهم للقرآن ، يقول الله تبارك وتعالى : " يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور " (3) . لقد كان لمعن بن أوس ثمانى بنات ، ويقول : ما أحب أن يكون لي بهن رجال وفيهن قال :

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم وفيهن لا تكذب نساء صوالح
وفيهن والأيام يعثرن بالفتي عوائد لا يملننه ونوائح (4)

وروي أن معاوية قال لعمر بن العاص رضي الله عنهما : ما ندب الموتى ، ولا تفقد المرضى ولا أعان على الحزن مثلن ، وكان الصحابة لا يرون على صاحب ثلاث بنات صدقة ، ولا جهاد ، لحاجتهن إليه ، وشغله بهن والعناية بتربيتهن (5) .

يقول أبو خالد القناني معذراً عن الخروج للقتال بسبب بناته :

لقد زاد الحياة إلي حباً بناتي إنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدي وأن يشربن رنقا بعد صافي

(1) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان _ البخاري ومسلم - ط 3 1997م حديث رقم 1688 .

(2) السابق حديث رقم 1592 .

(3) الشورى : 49 .

(4) انظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي ، ج 3 : 18 _ 19 .

(5) انظر المرأة العربية . عبد الله عفيفي . ج 3 : 19 .

وَأَنْ يَغْرَيْنَ إِنْ كُسى الْجَوَارِي
أَبَاتَا مَنْ لَنَا إِنْ غَبَتَ عَنَّا

فَتَنْبُو الْعَيْنُ عَنْ كَرَمِ عَجَافٍ
وَجَدَّ الْحَيُّ بَعْدُ فِي اخْتِلَافٍ (1)

2- المنزلة الرفيعة :

ولم يكتف الدين الجديد بالحفاظ علي حياتها ، بل رفع مكانتها ، حيث لم تعد المرأة متاعاً تباع وتشترى - عند البعض - بل كيان إنساني له حقوقه وعليه واجباته ، قال تعالى : " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة " (2). وقال ﷺ : " إنما النساء شقائق الرجال " (3) فالدين يجعل الرابطة بين الرجل والمرأة المسلمة رابطة الأخوة في الدين ، قال تعالى : " إنما المؤمنون أخوة " (4). وقال تعالى : " بعضكم من بعض " (5). لقد عرف الرجل المسلم في ضوء ما سنته الشريعة أن المرأة قسيمة حياته لها ماله وعليها ما عليه ، قال تعالى : " ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف " (6).

لقد بلغت المرأة مكانة عالية في الإسلام حيث كانت - كما كانت في الجاهلية - تجير الخائف وتفك العاني ، وذلك كله إلى تجلّة واحترام بلغت منها غايتها ، فقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلين من أحمائها كتب عليهما القتل ، وافتكت زينب بنت رسول الله ﷺ أسار زوجها في الجاهلية أبي العاص بن الربيع - وكان من أسرى بدر - فأطلق من غير فداء وردّ عليه ماله (7).

إن مكانة المرأة لم تكن لتسمو وتعلو بغير المحافظة على سمعتها ، وشرفها ، الأمر الذي حافظ عليه الإسلام ، وتوعد كل من يقترب من حصنها المنيع بالوعيد الشديد ، قال تعالى متوعداً من يقذف النساء في أعراضهن وشرفهن : " والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون " (8).

(1) المرأة العربية ج3 ك 19 .

(2) النساء : 1

(3) سنن أبي داود . محمد محي الدين عبد الحميد . دار الفكر : ج1 : 61 .

(4) الحجرات : 10

(5) آل عمران : 190 .

(6) البقرة : 228 .

(7) المرأة العربية ج3 : 43 - 44 .

(8) النور : 4 .

وقال تعالى : " إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين " (1).

وحرص الدين على تعليمها وتأديبها ، لأنها لن تبلغ المكانة العالية الكريمة إلا بالعلم والأدب ، فتعليمها وتأديبها يضمن لها نجاحاً وفلاحاً في مستقبلها ، زوجة كانت ، أو أما وأمربية لأجيال من المسلمين ، قال ﷺ : " أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها وأحسن تعليمها وأدبها وأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران " (2).

ولم يكتف الدين بتعليمها والحفاظ على شرفها ، بل جعلها ركناً أساسياً من أركان المجتمع ، فهي نصف المجتمع ، برفقتها تحلو الحياة ، وتتحقق السعادة والطمأنينة ، فهي شريكة الرجل في حياته ، حاضره ومستقبله ، قال تعالى : " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة " (3). بل إن الزوجة الصالحة هي خير متاع الدنيا ، كما تصفها السنة الشريفة . يقول ﷺ : " الدنيا متاع وخير متاع الدنيا الزوجة الصالحة " (4).

وإذا كنا قد عرضنا لحال المرأة بنتاً وزوجة ، فلا بد من القول بأن الدين الجديد لم يغفل المرأة الأم ، بل لعله كان أشد حرصاً على مكانة الأم في المجتمع المسلم ، التي تميزت بخصوصية فيها من الجلال ، والوقار وعلو المكانة ما فيها . وهذه بعض الآيات التي جاءت لترسم ملامح مكانة المرأة الأم في المجتمع المسلم وتوضح العلاقة بين الأبناء والأمهات ، قال تعالى : " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً * إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً " (5).

إن الدين حرص على ألا يُمسَّ شعور الأم حتى ولو بالتأفف ، أي إظهار الضجر والضييق من مطالبها ، وهذا أسمى مظاهر الحفاظ على المشاعر والأحاسيس ، قال تعالى : " ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً " (6) إن القرآن الكريم يحرص على توجيه الأمر للإنسان بالصحبة الطيبة للأم والأب ، وإن كانت السنة المطهرة وضحت الأمر بجلاء ، وأن المرأة أحق من الأب بالصحبة الحسنة ، والمعاملة الطيبة ،

(1) النور : الآيات : 23 - 24 - 25 .

(2) صحيح البخاري ، ج 6 : 120 ، باب النكاح .

(3) الروم : 21 .

(4) صحيح مسلم . ج 4 : 178 ، مكتبة الجمهورية العربية . القاهرة .

(5) الإسراء : 27 .

(6) الأحقاف : 15 .

وهذا التفصيل لا يحرم الأب ، حيث أن الأم هي التي حملت وربّت ، وتعبت وهي الجانب الضعيف الذي يحتاج إلى العطف والرعاية .

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : " أمك " قال ثم من ؟ قال : " أمك " قال ثم من ؟ قال : " أمك " ، قال ثم من ؟ قال : ثم أبوك . (1) فالأم مقدمة ثلاث مرات على الأب كما يوضح الحديث ، وسبب ذلك كثرة تعبها عليه وشفقتها ، وخدمتها ، ومكابدة المشاق في حمله ، ثم وضعه ، ثم إرضاعه ، ثم تربيته ، وخدمته ، وتمريضه ، وغير ذلك .

وفي حديث آخر للمصطفى ﷺ ، نرى أنه يجعل بر الوالدين أفضل من الجهاد ، حيث يقول لرجل جاء يستأذنه في الجهاد " أحيي والداك " ؟ قال نعم . قال : " ففیهما فجاهد " (2) .

3- الحق في الميراث :

لقد كان من سنن العرب أن النساء لا يؤول إليهن من ميراث الرجال شيئاً ، وكانوا يقولون في ذلك : لا يرثنا إلا من يحمل السيف ويحمي البيضة . فإذا مات الرجل ورثه ابنه فإن لم يكن ، فأقرب من وجد من أوليائه ، أباً كان ، أو أخاً ، أو عمّاً . على حين يضم بناته ونساءه إلى بنات الوارث ونسائه ، فيكون له ما لهن ، وعليه ما عليهن ، حتى جاء الإسلام فصدع ذلك الضرب من الظلم ، واختص النساء بنصيب مما ترك الرجال (3) .

قال تعالى : " للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً " (4) . لقد فرض الإسلام للمرأة أن تأخذ نصف ما يأخذ الرجل ، وذلك لأن الرجل هو الذي ينفق ويتحمل أعباء الحياة ، وأما المرأة فلا يطلب منها شيء من ذلك ، قال تعالى : " يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين " (5) . بذلك يكون الدين قد أعاد للمرأة حقاً سلبته منها الجاهلية ، فأغناها وطيب نفسها ، وأراحها من مشقة السعي في طلب الرزق ، والإنفاق على الأبناء والبيت ، وجعل ذلك من مهام الرجل ، فتفرغت لشؤون منزلها من حمل وولادة ، وتربية للصغار .

(1) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان . ج2 حديث رقم : (1652) .

(2) السابق ج2 (1653) .

(3) أنظر المرأة العربية ج3 : 33 .

(4) النساء : 7 .

(5) النساء : 11 .

4- حقوق أخرى :

(أ) الحق في اختيار الزوج :

أعطى الإسلام للمرأة الحق في اختيار الزوج ، فإن شاعت وافقت وإن شاعت رفضت ، قال ﷺ : " لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن " . قالوا يا رسول الله وكيف إذن؟ قال : " أن تسكت " (1) . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : " قلت يا رسول الله : تستأمر النساء في أبضاعهن ؟ قال : نعم ، فقلت : فإن البكر تستأمر فتستحي ، قال : " سكاتُها إذن " (2) .

إن الأحاديث السابقة تدل على أنه لا يجوز مطلقاً إكراه البنت على الزواج بمن لا تحب ولا ترغب فيه . وذلك لأن الزواج المبني على الموافقة والتراضي بين الزوجين يكون زواجاً دائماً ، ويؤسس لأسرة تسودها الرابطة القوية الوثيقة ، والعلاقة الحميمة ، والحب المتبادل ، الذي يثمر مستقبلاً عن ذرية طيبة .

وللمرأة الحق في أن تفصم عقد الزواج إن خدعت فيه ، أو أكرهت عليه ، مهما أنفق في سبيلها ، وليس لامرئ أن يقودها قسراً إلى من لا تريد ، فلقد فصم رسول الله ﷺ زواج خنساء بنت خُدام الأنصارية ، لأن أباهاً زوجّها وهي كارهة " (3) .

(ب) الحق في المهر :

المهر أو الصداق حق من حقوق المرأة ، قال تعالى : " وآتوا النساء صدقاتهن نحلة " (4) . ولكن لا يجب المغالاة في المهور ، مما من شأنه أن يدفع الكثير من الشباب المسلم إلى العزوف عن الزواج ، أو البقاء لسن متأخرة دون زواج ، بل يجب أن نستن بسنة المصطفى ﷺ ، حين قال لأحد أصحابه : " التمس ولو خاتماً من حديد . فذهب الرجل ثم رجع ، فقال : يا رسول الله ولا خاتماً من حديد ... فقال له - ﷺ اذهب فقد ملكتُكُها بما معك من القرآن " (5) .

إن من سنن فريق من العرب في الجاهلية عضل المرأة لتفتدي نفسها بما ورثت عن زوجها أو أخذ صداقها ، فحرّم الإسلام ذلك إنصافاً للمرأة وإطلاقاً لحريتها ، قال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا " (6) . كذلك حرّرها من حياة الإكراه مع

(1) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، ج2 حديث رقم (895) .

(2) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، حديث رقم (896) .

(3) أنظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي ، ج3 : 50 - 51 .

(4) النساء : 4 .

(5) صحيح مسلم ، ج4 : 134 كتاب النكاح . مكتبة الجمهورية العربية - القاهرة .

(6) النساء : 19 .

الزوج حين قال تعالى : " ولا تعضلوهن لتذهبن ببعض ما آتيتوهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينه " (1). وبذلك تكون حياة المرأة عند زوجها مكرهة حراماً عليه ، إذا كان الهدف هو الضغط عليها ، لتتنازل عن بعض حقوقها ، إلا إذا ارتكبت الفاحشة ، فلا حقوق لها عندئذ . ثم فإن الدين فرض على الرجل أن يرد للمرأة بقية ما سماه من مهرها ، إذا ما طلقها ، وحرّم عليه أن يسترد شيئاً مما اجتلب لها كائناً ما كان ذلك الشيء ، وفي ذلك يقول تعالى : " وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً " (2).

(ج) الطلاق :

لقد جعل الله الزواج مبعثاً للحب والود والرحمة والحياة الطيبة الكريمة التي يسودها التفاهم والوئام ، فإذا كان الزواج مبعثاً على غير ذلك جعل الله الطلاق مخرجاً لكي لا يصبح أحد الزوجين غصة في حلق صاحبه . ومن حق المرأة أن تشترط في العقد أن يكون الطلاق بيدها ، فإن لم تشترط كان من حق الرجل .

ولم يترك الدين الباب مفتوحاً على مصراعيه للرجل كي يطلق وقت يشاء ، بل حاول أن يبغض هذا الأمر للمسلمين ، يقول ﷺ : " ما خلق الله شيئاً أبغض من الطلاق " وقال : " لا تطلقوا النساء إلا من ربيبة ، فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات " . وقال : " ما من حلال أبغض إلى الله من الطلاق " (3).

وقال تعالى : " يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم ، ولا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً " (4) إن المشرع جعل الطلاق ثلاثاً وليس مرة واحدة ، وجعل للمرأة عدة تعتدها فلعل الإنسان في هذه المدة يراجع نفسه ، ويعود عن هذا الأمر الذي عزم عليه ، وهذا أدم للصلة والحياة الزوجية التي حافظ وحرص عليها الإسلام . فنظام الطلاق في الإسلام لا يدانيه نظام في دقته وإبداعه ، فلا هو بالمغلق المحظور ، حتى يكون أحد الزوجين شجاً في خلق صاحبه ، وغلاً في عنقه ، وكبلاً في يديه ، وقيداً في قدميه ، ولا هو

(1) النساء : 19

(2) النساء : 20 .

(3) انظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي ، ج 3 : 62 وما بعدها .

(4) الطلاق : (1) .

بالسهل الهين ، فيتخذ من لا عهد له ولا ذمام مرتعاً خصباً ، ينتقلون فيه كما شاءت أهواؤهم وشهوات أنفسهم " (1).

إن هذا الدين العظيم لم يقف له الأمر عند هذه الحقوق ، بل زاد المرأة شرفاً عظيماً حين سمح لها أن تجاذب الرجل شؤون العالم وجدّة الحياة ، فتخوض المعارك في ساحات الوغى وبين مشتجر القنا ، وتحت ظلال السيوف ، تروي الظمأى ، وتأسو الجرحى ، وتثير الحمية وتهيج الحفيظة ، وربما غشيت حرّ القتال ، واصطلت جمرة الحرب ، وصالت بين الصفوف ، وعرضت نحرها للحتوف وصدرها للسيوف ، فكانت لها مواطن صادقات ، ومواقع صالحات ومن هؤلاء النسوة : أمية بنت قيس الغفارية وأم سنان الأسلمية ، خرجن من الرسول ﷺ يوم خيبر ، وحمنة بنت جحش خرجت يوم أحد ، تروي الظمأى ، وتأسو الجرحى ، وأم أيمن حضرت أحداً ، وكعبيبة بنت سعد الأسلمية ، والربيع بنت معوذ ، التي قالت كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ونسقي القوم ، ونخدمهم (2).

كما كان للمرأة دور بارز في مساندة على رضي الله عنه في حربه مع معاوية مثل : أروى بنت عبد المطلب ، وأم الخير بنت حُرَيْش ، ودارمية الحجونية ، وعكرشة بنت الأطرش ، وأم سنان بنت خيثمة ، وسودة بنت عمارة ، وغيرهن من نساء المسلمين (3).

وكيف لا تبلي المرأة هذا البلاء ، من أجل هذا الدين الجديد ، الذي نفض عنها غبار الجاهلية بكل ما فيه ، فأثار دربها ، ورفع قدرها ، وأعلى شأنها ، وحفظ لها حياتها ، وأكرمها أيما إكرام .

هذا عرض موجز وسريع لحال المرأة في الجاهلية والإسلام ، تجنبت فيه الإطالة والإسهاب ، واكتفيت من الشواهد بما يوصل الفكرة ويوضح الصورة ويكشف الحقيقة .

(1) انظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي ، ج3 : 63 - 64 .

(2) انظر المرأة العربية عبد الله عفيفي ، ج3 : 63 - 64 .

(3) انظر العقد الفريد ج4 (وفود العرب) دار المسيرة ، بيروت 1981م ط2 ص160 وما بعدها .

الفصل الأول

أولاً : مقدمات القصائد عند الصعاليك :

إذا ما نظرنا نظرة عجلى على شعر العرب في الجاهلية و صدر الإسلام، فإننا لا نكاد نجد قصيدة من القصائد تخلو من مقدمة غزلية، وهذه سمة واضحة اتسم بها الشعر العربي في الجاهلية، وتأسى بهم شعراء الإسلام، الأمر الذي جعل ابن قتيبة ينتبه إلي هذا الأمر حيث يقول: " سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار، والدمن والآثار، فبكي وشكي وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها، إذا كان نازلة العمدة في الحلول والظعن علي خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم من ماء إلي ماء، وانتجاعهم الكلاً وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، ليحل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس، لائت بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بسهم، حلال أو حرام (1) .

وإذا كان ابن قتيبة يري أن النسيب أداة فنية موجهة للخارج، إلي قلوب المتلقين وأسماعهم فإن عز الدين إسماعيل يري أن النسيب كان تعبيراً يجسم لنا ارتداد الشاعر إلي نفسه، وخلوه إليها، وهو بذلك يعد الجزء الذاتي في القصيدة الذي يعبر فيه الشاعر عن الحياة والكون من حوله بصورة الحياة بالنسبة للشاعر الجاهلي، كانت تتطوي في نفسه علي عناصر خفية أحسها الشاعر إحساساً مبهماً وقدّر موقفه منها (2) .

ومهما يكن من اختلاف بين وجهات نظر كل من القدماء والمحدثين، فإن الخلاف ليس علي وجود هذه المقدمات وإنما علي تفسيرها كظاهرة عامة في الشعر القديم .
إذاً إذا كانت أشعار الجاهليين والإسلاميين لا تكاد تخلو من المقدمات الغزلية والطللية، والشعراء الصعاليك جزء من هؤلاء، فهل سار الصعاليك علي ما سار عليه شعراء عصرهم من افتتاح قصائدهم بالوقوف علي الأطلال، وبكائها، وحوار المحبوبة، والشكوى لها ومنها، أم أنهم ساروا علي نهج مغاير، تبعاً لتغير ظروف حياتهم، وأساليب عيشهم ؟ .

(1) الشعر والشعراء ابن قتيبة ، جزء . ص 20-21 ، الدار العربية للكتاب بيروت ط 3، 1983 م .

(2) انظر مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي حسين عطوان ص 219 ، دار المعارف مصر .

يقول الدكتور يوسف خليف في معرض حديثه عن المقدمات الطليية في شعر الصعاليك " إنما اتخذ الشعراء الصعاليك لهم مذهباً آخر استعاضوا به عن هذه المقدمات وهو مذهب جعلوا محوره " حواء الخالدة " أيضاً، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين، تلك التي يتدله الشاعر في حبها ويبيكي أيامه معها ويقف على أطلال ديارها، ويدعو أصحابه إلى الوقوف معه، ولكنها المرأة المحبة الحريصة على فارسها، التي تدعوه دائماً إلى المحافظة على حياته، إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هي .

وليس من شك في أنها براعة ممتازة أن يضع الشعراء الصعاليك في مستهل قصائدهم صورة الأنثى الضعيفة التي يظهر صاحبها إلى جوارها بطلاً قوياً مستهيناً بحياته من أجل فكرته يرفض نصيحته في رفق وأدب، ويقابل جزعها بابتسامة الواثق، المعتد بشخصيته، ويحاول أن يقنعها في قوة وإيمان بسداد رأيه، وسلامة مذهبه في الحياة (1) .

إن هذا الفصل سيثبت بجلاء أن المرأة كانت محور مقدمات القصائد عندهم، فالشواهد الشعرية في شعر الصعاليك تثبت بوضوح أن المرأة معلم بارز من معالم شعرهم وهذه حقيقة لا يمكن إغفالها، أو تحويرها، فالمرأة في مقدماتهم كانت المحبوبة، التي يتدله الشاعر في حبها، فيقف على ديارها، ويتألم لفراقها، ويشتاق إليها، ويبيكي من أجلها، وكانت الزوجة المحبوبة التي يحبها ويشفق عليها، ويحاورها بأدب ورفق ومودة، فمقدماتهم الغزلية لا تختلف عن مقدمات معاصريهم من الشعراء الجاهليين والإسلاميين.

إن الدارس لشعر هؤلاء الشعراء، يجد أنهم ساروا في كثير من شعرهم على ما سار عليه غيرهم من شعراء عصرهم، فوقفوا على الأطلال، وتذكروا أهلها، وبكوا واشتكوا ألم الفراق، ولوعة الحرمان، وبعد المحبوب، فشعرهم قد يبدأ بالوقوف على الأطلال أحياناً، وأحياناً أخرى يبدأ بحديث الشاعر إلى محبوبته حديثاً هادئاً، مفعماً بالحب وهذا إذا ما استثنينا المقطوعات الصغيرة من شعرهم، التي غالباً ما كانت وليدة اللحظة والموقف، وهي كثيرة في شعر الصعاليك .

(1) الشعراء الصعاليك ، يوسف خليف ص 266 ، دار المعارف .

أشكال العلاقة بين الشاعر الصعلوك والمحبوبة في الشعر:

(1) الوقوف على الأطلال:

سأحاول تتبع بعض قصائد الصعاليك التي بدأت بالوقوف علي الأطلال، لكل من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، وذلك من أجل استيضاح الصورة، وبيانها يقول عمرو بن براقه* (1):

عرفت من الكنود ببطن ضيم فجوّ بشائمٍ ظللاً محيلاً⁽²⁾
تعفى رسمه إلا خياماً مجللةً جوانبها جليلاً⁽³⁾
عداني أن أزورك أن قومي وقومك ألقوا حرباً شمولاً⁽⁴⁾
وأنت لو رأيت الناس يوم الـ حيار عذرت بالشغل الخيلاً

فالشاعر يتعرف علي ديار محبوبته التي منع من زيارتها بسبب الحرب التي بين قومه وقومها، وهذا يكشف جانباً من حياة الصعلوك، حياة التشرد، والشتات، التي تنعكس سلباً علي حياتهم العاطفية، وتحدد معالم العلاقة بين الصعلوك ومن يحب، حيث يُصبح اللقاء أحياناً بينه وبين من يحب متعذراً .

ويتحدث عروة عن ديار محبوبته أو زوجته أم حسان، شاكياً من الفراق والبعد ويتذكر أيام كان ينعم بوصولها، في جو يعبق بكل ما هو جميل حيث يقول (5):

عفت بعدنا من أم حسان غضورُ وفي الرحل منها أية لا تغيرُ⁽⁶⁾
وبالغرّ والغراء منها منازلُ وحول الصفا، من أهلها متدورُ⁽⁷⁾
ليالينا إذ جيبها لك ناصحُ وإذ ريحها مسكٌ زكيٌّ وعنبرُ⁽⁸⁾
ألم تعلمي يا أم حسان، أننا خليطاً زيالٍ، ليس عن ذاك مقصر⁽⁹⁾

* هو عمرو بن منبه بن يزيد الهمداني، شاعر صعلوك جاهلي، كان رقيقاً للشنفرى ، وتأبط شراً وهو مثال للصعلوك العنيد ، وهو من العدائين المشهورين الذين لا تلحقهم الخيل .

(1) منتهي الطلب من أشعار العرب، ابن المبارك، ص 845 .

(2) بطن ضيم، وجو . وبشائم: أسماء أماكن .

(3) تعفى رسمه: درس و انمحي .

(4) ألقوا حرباً: أشعلوها .

(5) الديوان : 71 .

(6) غضور : ثنية فيما بين المدينة إلي بلاد خزاعة وكنانة .

(7) متدور : متقل أي مكان دوار، والدوار نسك كانوا يطوفون به في الجاهلية .

(8) إنجيبها إلخ : أرادها وفؤادها .

(9) خليط زيال : خليطاً مفارقة، أي لايفارق بعضنا بعضاً ، - المقصر : المعزل .

وَأَنَّ الْمَنِيَا تَغْرُ كُلُّ ثَنِيَّةٍ فهل ذاك عما يبتغي القوم محصر؟⁽¹⁾
وأما قيس بن الحدادية* فيذكر ديار محبوبته، و يدعو لها بالسُقيا، وينسب بمحبوبته
نعم فيقول⁽²⁾:

سقى الله أطلالاً بنعمٍ ترادفتُ	بهنَّ النَّوى حتى حَلَّنَ المَطالِيا ⁽³⁾
فإن كانت الأيام يا أمَّ مالك	تسليكم عني وترضي الأعـاديا
فلا يَأْمَنَنَّ بعدي امرءٌ فجع لذة	من العيش أو فجع الخُطوبِ العوافيا ⁽⁴⁾
ويُدلَّت من جدواك يا أمَّ مالك	طوارق همَّ يَحْتَضِرُنَّ وَسـادِيا ⁽⁵⁾
وأصبحتُ بعد الأُنس لابسَ جبَّة	أساقِي الكِماءِ الدارِعينِ العواليا ⁽⁶⁾
فيوماي يوم في الحديد مسربلاً	ويوم مع البيض الأوانس لاهيا
فلا مدركاً حظاً لدى أم مالك	ولا مستريحاً في الحياة فقاضيـا ⁽⁷⁾
خليلي إن دارت على أم مالك	صروف الليالي فابعثنا لي ناعيا
ولا لتركاني لا لخير معجل	ولا لبقاء تنظران بقائيا
وإن الذي أملت من أم مالك	أشاب قذالي واستهام فؤاديا ⁽⁸⁾

فالشاعر يدعو لديار محبوبته بالسقيا، تأسياً بغيره من الشعراء، حتى تبقي عامرة بأهلها، ويتخيل أن له أصدقاء يحدثهم، ويشكو إليهم، إن حب أم مالك أورثه، ألماً ممضاً، وحرقة لا تنطفئ وهما لا يفارقه، وهو يعرض في هذه الأبيات لجانب مهم من جوانب حياة الصعلوك، حيث أنها مقسمة بين جانبيين مهمين، الأول الحياة الهانئة المطمئنة، التي يسودها الحب والوئام، وحياة الحرب والغزو والسعي وراء الرزق . ومجابهة الأخطار والأهوال، وذلك في قوله :

فيوماي يوم في الحديد مسربلاً ويوم مع البيض الأوانس لاهياً

- (1) ثغر كل ثنية : الثغر موضع المخافة، - محصر : أي حابس .
* هو قيس بن منقذ، شاعر جاهلي ، كان فاتكاً شجاعاً صعلوكاً، خليعاً، خلعتة خزاعة بسوق عكاظ، وأشهدت على نفسها خلعتها إياه، فلا تحتل جريرة له، ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه .
(2) الأغاني جزء 14 : 150-151 .
(3) المطالي : الأرض السهلة اللينة، ترادفت: تتابعت عليه الرحلة .
(4) العوافي : جمع عافية وهي الطاقة .
(5) الجدوى : العطية .
(6) الجبة : الدرع، الكماء - جمع كمي وهو الشجاع المتكي في سلاحه المتغطي بالدرع والبيضة ، العوالي : جمع عالية ، وهي أعلى الرمح ورأسه .
(7) قا ضيا : ميتاً، من قضى : أي مات .
(8) القذال : جماع مؤخر الرأس ، استهام فؤاده : أذبهه .

ويقف عروة على ديار محبوبته، متحسراً متألماً، باكياً فيقول (1):

ألم تعرف منازل أم عمرو بمُنْعَرَجِ النَّوَاصِفِ مِنْ أَبَانَ
وقفت بها فغاض الدمع مني كمُنْحَدِرٍ مِنَ النَّظْمِ الْجَمَّانِ
ولكن لن يلبث وصل حيي وجدَّةَ وَجْهه مُرُّ الزَّمانِ

إن رؤية منازل أم عمرو حركت شجونته، وجددت ذكرياته، فسالت دموعه غزيرة، فالأيام دُول، والدهر لا يدوم على حال، والزمان لا يبقى على حال، فلا يبقى من أيام الزمان الجميلة الهانئة غير الذكريات .

ويسائل حاجز بن عوف الأزدي* أطلال محبوبته التي لم يجد فيها مجيباً فيظل فيها واقفاً كالذي اعتراه المرض نتيجة تأثره بذكريات محبوبته التي لم يستطع رؤيتها بسبب الحرب التي بينه وبين قومها، وهو أمر عانى منه الصعاليك في علاقتهم بمحوباتهم، يقول (2).

سَأَلْتُ فَلَمْ تَكَلِّمْنِي الرَّسُومُ فَظَلْتُ كَأَنَّي فِيهَا سَقِيمٌ (3)
بِقَارِعَةِ الْغَرِيفِ فَذَاتِ مَشْيِي إِلَى الْعَصْدَاءِ لَيْسَ بِهَا مُقِيمٌ (4)
مَنَازِلُ عَذْبَةِ الْأَنْيَابِ خُوذُ فَمَا إِنَّ مِثْلَهَا فِي النَّاسِ نِيمٌ (5)
فَأَمَّا إِنْ صَرَفْتُ فُغَيْرُ بَغْضٍ وَلَكِنْ قَدْ تَعْدِينِي الْهَمُومُ
عَدَاتِي أَنْ أَزُورَكَ حَرْبُ قَوْمٍ كَجَمْرِ النَّارِ ثَاقِبَةٌ عَزُومٌ (6)

وفي قصيدة أخرى لا يكاد يعرف ديار محبوبته التي غيرتها الرياح، وغطتها الأتربة، حتى إنه تبين آثارها بصعوبة بالغة يقول متسائلاً (7).

لَمَنْ طَلَّلَ بَعْثَةً أَوْ حُفَّارٍ عَفْتَهُ الرِّيحُ بَعْدَكَ وَالسَّوَارِي (8)
عَفْتَهُ الرِّيحُ وَاعْتَلَجَتْ عَلَيْهِ بِأَكْدَرِ مِنْ تَرَابِ الْقَاعِ جَارٍ (9)

(1) عروة بن الورد حياته وشعره . د. إبراهيم الخواجة ، ص 191 .

* هو حاجز بن عوف الأزدي ، شاعر جاهلي مقل، ليس من مشهوري الشعراء، وهو أحد الشعراء الصعاليك المغيرين على قبائل العرب، وممن كان يدعو على رجليه عدواً يسبق به الخيل .

(2) منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك : 2083 .

(3) الرسوم : أطلال المحبوبة ، - سقيم : مريض .

(4) قارعة الغريف : وذات مشي ، - العصداء أسماء أماكن .

(5) الخوذ : المرأة الشابة .

(6) ثاقبة : متقدة، - عُدْم : جمع عُدْم ، وهي الشديدة .

(7) منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك : 2082 .

(8) عفت : درست وامحت ، - السواري : السحب الممطرة .

(9) اعتلجت : نقول اعتلج الرمل : تجمع، واعتلجت الأرض : طال نباتها . الأكر : السيل الشديد .

فلأياً ما يبين رثيدُ نؤي
ومبرك هجمة ومصام خيل
ومرسى السُقليين من الشجّار
صوافن في الأعنة والأواري⁽¹⁾

وتبدو أطلال المحبوبة أحياناً كالوشم في ظهور الأنامل، بسبب ما تعرضت له من عوامل التعرية، فالرياح تغطيها بأثرية ناعمة، والسيول غيرت معالمها يقول أبو الطمّحان القيني * .

لمن طلل عاف بذات السلاسل
تبدت به الريح الصبا فكأنما
وجر عليه السيل ذيلاً كأنه
وقفت به حتى تعالى لي الضحي
ولما رأيت الشوق منى سفاهة
صرفت وكان اليأس منى خليقة
كرجع الوشم في ظهور الأنامل
عليه تدرى تربه بالمناخل
إذا التف في الميثاء إسفاف ساحل
أسائله ما إن يبين لسائل
وأن بكائي عن سبيلي شاغلي
إذا ما عرفت الصرم من غير واصل⁽²⁾

لقد وقف الشاعر على ديار محبوبته، التي غيرها الدهر، حيراناً، متألماً، يتمنى أن يجد من يجيبه عن أسئلته الكثيرة التي تشغل باله، ولكنه سرعان ما يثوب إلى رشده، ويرتد له عقله ويعرف أن الشوق والبكاء، والانشغال بما لا فائدة منه قد يثني الإنسان عن كثير من أمور الحياة التي لا غنى عنها .

أما القتال الكلابي* فله عدّة قصائد تبدأ بالوقوف على الأطلال، فها هو، يقف على ديار محبوبته، حتى الضحي يسائلها، يريد منها جواباً شافياً لما في صدره، ولكنه كغيره من الشعراء لا يجد جواباً، إلا أنه لا ييأس حتى ولو جنّه الظلام، والحقيقة أن مساءلة الديار التي يكثر من ذكرها الشعراء، تظهر مدى الحيرة والقلق، والخوف من المجهول، الذي يعتري هؤلاء الشعراء، يقول القتال⁽³⁾:

(1) مصام الخيل : موقفها، - صوافن : نقول : صفن الفرس قام على ثلاث قوائم ، وطرف حافره الرابع .
* أبو الطمّحان القيني (45ق .هـ - 30 هـ) ، وهو حنظلة بن شرقي ، أحد بني القين ، - من قضاة ، شاعر فارس معمر مخضرم عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام فأسلم ، ولم ير النبي ، وفي الأغاني كان خبيث الدين جيد الشعر .

(2) شعر أبي الضمّحان القيني ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .
* هو عبد الله بن مجيب بن المضحي من بني كلاب بن ربيعة (ت 70 هـ) شاعر قتال، بدوي من الفرسان يكنى أبا المسيب، أدرك أواخر الجاهلية، وعاش في الإسلام إلى أيام عبد الملك بن مروان وسجن مرّة في المدينة ابن عم له اسمه زياد، وفر من السجن، وتبرأت منه قبيلته .

(3) منتهى الطلب من أشعار العرب ابن المبارك : 649 - 650 .

لطيبة ربع بالكليبين دارس⁽¹⁾ فبرق نجاج غيرته الروامس⁽¹⁾
وقفت به حتى تعالى لي الضحى أسياً وحتى ملّ فتلّ عرامس⁽²⁾
وما إن تبين الدار شيئاً لسائل ولا أنا حتى جنني الليل آيس⁽³⁾
على آلة ما ينبري لي مساعداً فيسعدني إلا البلاد الأمالس⁽⁴⁾
تجوب على ورق لهن حمامة⁽⁵⁾ ومنثلم تجري عليه الأدهس⁽⁵⁾
وسفّع كذود الهاجري بججع تحفر في أعقارهن الهجارس⁽⁵⁾
موائل مادامت خزاز مكاتها بجبانه كانت إليها المجالس⁽⁶⁾
تمشي بهاربد النعام كأنها رجال القرى تجري عليها الأطالس⁽⁶⁾
ويقول (7).

نظرت وقد جلى الدجى طاسم الصوى بسلع وقرن الشمس لم يترجل
إلى ظعن بين الرسيس فعاقبل عوامد للشيقين أو بطن خنثل
ألا حبذا تلك الديار وأهلها لو أن عذابي بالمدينة ينجلي

إن الشاعر يتذكر ظعن محبوبته التي لا يستطيع رؤيتها بسبب بعده عنها ووجوده في السجن، السجن الذي فر منه، بعد أن ذاق فيه ألوان العذاب، لذلك يتمنى أن ينقضي هذا العذاب، وينعم هو برؤية ديار محبوبته .
ويدعو جُحدر العكلي* لأطلال محبوبته بالسقيا، كعادة أسلافه من الشعراء الجاهلين، حتى تظل الديار عامرة بأهلها، فلا يغادرونها فيحدث ما يقض المضجع، ويذهب النوم، ويبكي العيون من فراق الأحبة وبعدهم، يقول (8).

(1) الروامس : الرياح التي تغطي آثار الديار بماتثير .

(2) أسياً : حزيناً ، -

(3) جنه : جنه الليل : شمله وغطاه ، - آيس : قانط قاطع للرجاء .

(4) الأمالس : جمع ملساء ، وهي الأرض المستوية لا نبت فيها .

(5) الأسفع : أسود اللون إلى الحمرة ، - الذود : الإبل لا يتجاوز عددها الثلاثين ولا يقل عن الثلاث . -

(6) الججع : الأرض المجذبة ، وتعني المكان الضيق الخشن ، - الهجارس : مفردها هجرس وهو ولد الثعلب .

(6) الأربد من النعام : ما كان في لونه غبرة مائلة إلى السواد ، - الأطلس : الذئب الأمعط في لونه غبرة إلى السواد .

(7) منتهى الطلب من أشعار العرب : 643 .

* جحدر العكلي (ت 100هـ) شاعر من أهل اليمامة، كان في أيام الحجاج بن يوسف الثقفي ، يقطع الطريق، وينهب الأموال ما بين حجر اليمامة ، فأمسكه عامل الحجاج في اليمامة ، وسجنه في سجن بها اسمه (دوار) نظم فيه قصائد .

(8) شعر جحدر العكلي ، موسوعة الشعر، المجمع الثقافي .

يا دارُ بين بزَاخة فكتيبيها فلوى غُبيرُ سَهْلها أو لويها
سقت الصبا أطلالاً ربعك مغدقاً ينهلُ عارضُها بلبس جُيوبها
أيام أرمي العينَ في زهر الصبا وثمار جنات النساءِ وطيبها

إن هذا الجزء من مقدمات الصعاليك، والذي ذكروا فيه الأطلال ووصفوها كما وصفها معاصروهم من الشعراء الجاهليين، ووقفوا عليها فبكوا وتذكروا من يحبون واشتكوا ألم الفراق، وبعد المحبوب، في جو نفسي مفعم بالحزن والأسى، وحيرة بالغة .

(2) الغزل بالمحبوبه :

والقسم الثاني من المقدمات الغزلية، وهو تلك المقدمات التي خلت من الوقوف على الأطلال صراحة، ولكنها ظلت مقدمات غزلية، تتعلق بالمرأة المحبوبة، التي طالما شغلت القلوب والعقول، وأسهرت العيون، فهام بها الهائمون، وتعلق بها المحبون، فوصفوها أدق وصف وتغنوا بها أجمل غناء . يقول مالك بن حريم* في مطلع قصيدة طويلة - رواها الأصمعي - مبدياً جزعه من الشيب بعد الشباب، وانصراف إخوان الصفا عنه، ومتحدثاً عن محبوبته وكيف طرقة خيالها، وطفق يشيب بها، يقول (1) .

جزعت ولم تجزع من الشيب مجزعاً	وقد فات ربيُّ الشباب فودعا(2)
ولاح بياضٌ في سواد كأنه	صوارٌ بجوٍّ كان جذباً فأمرعا(3)
وأقبل إخوان الصفا فأوضعوا	إلى كلِّ أحوى في المقامة أفرعا(4)
تذكرت سلمى والركاب كأنها	قطاً واردٌ بين اللقاظ وللععا(5)
فحدثت نفسي أنها أو خيالها	أتانا عشاءً حين قمنا لنهجععا
فقلت لها بيتي لدينا وعرسِّي	وما طرقت بعد الرقاد لتنفعا(6)
منعمة لم تلق في العيش ترحةً	ولم تلق بؤساً عند ذاك فتجدعا(7)

* هو مالك بن حريم الهمداني، شاعر فحل جاهلي من لصوص همدان، يروي صاحب الأغاني أنه جد مسروق بن الأجدع الهمداني التابعي .

- (1) الأصمعيات : 63 .
- (2) ربيعي الشباب : أوله .
- (3) الصوار : بالضم والكسر : القطيع من البقر، - الجو : ما انخفض من الأرض، - أمرع : أخصب وأكلأ .
- (4) أوضعوا : أسرعوا ، - الأحوى : الأسود، - المقامة : المجلس والقوم . - الأفرع : التام الشعر .
- (5) الركاب : الإبل ، - اللقاظ : بضم اللام وكسرهما : ماء لبني إيراد ، - لعلع : موضع .
- (6) التعريس : النزول آخر الليل . أراد أن خيالها أثار لواعجه .
- (7) الترح : الفقر ، ومنه الحزن ، الترحة : المرّة الواحدة منه ، تجدع : من الجدع وهو سوء الغذاء .

أهيم بها لم أقض منها لباتنةً
 كأن جنا الكافور والمسك خالصاً
 وقلتاً وقرت فيه السحابة ماءها
 وبأنيابها، والفارسي المشعشعا(3)
 وبرد الندى والأقحوان المنزعا(2)
 وكنت بها في سالف الدهر موزعا(1)

ويبدأ تأبط شراً قصيدة طويلة له، بذكر طيف محبوبته الذي ألم به، ومتحدثاً عن هجرها له بعد الوصل، ومبيناً عدم صدقها في مواعيدها، ثم يظهر عزّة نفس وكبرياء، عرفاً عند الصعاليك حيث أنه لا يصل إلا من وصله، دون تدلل واستجداء، يقول (4).

يا عيد مالك من شوق وإيراق
 طيف ابنه الحر إذ كنا نجاورها
 يسري على الأين والحيات محتفياً
 تالله آمن أنثى بعد ما حلفت
 ممزوجة الود بينا واصلت صرمت
 تريك وعد أمانى تغرّب به
 إني إذا خلّة ضنت بنائنا
 وأمسكت بضعيف الحبل أحذاق(11)
 كالقدر مرّ على ضجنان برّاق(10)
 الأول اللذ مضى، والآخر الباقي(9)
 أسماء بالله من عهد وميثاق(8)
 نفسي فداؤك من سار على ساق(7)
 ثم افتتنت بها بعد التفراق(6)
 ومن خيال على الأهوال طرّاق(5)

- (1) اللبانة : الحاجة - الموزع ، المغرى ، أوزعه بالمشي : أغراه .
 (2) الجنى : كل ما يجنى ، - الأقحوان : نبت له نور أبيض ، - المنزع : المنزوع .
 (3) القلت : النقرة في الجبل تمسك الماء . وقرت : جمعت ، - بأنيابها : خبز " كأن " في البيت السابق ، - الفارسي : المنسوب لفارس ، أراد به الشراب وهو الخمر ، - المشعشع : الممزوج بالماء .
 * تأبط شراً (ت 85 ق هـ) هو ثابت بن جابر بن سفيان، وسمي " تأبط شراً " لأنه تأبط سيفاً وخرج ، فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت : تأبط شراً وخرج وهذا أشهر ما قيل في سبب تلقيبه ، كان من أشهر لصوص العرب المغيرين ، قريباً للشنفرى ، وعمرو بن برة ، وكان ثلاثتهم لا تلحقهم الخيل لشدة عدوهم .
 (4) ديوان الصعاليك: 143-144، من غير الأبيات: (2-4-5-6) ، وكذلك المفضليات : 27-28 .
 والمنتخب في محاسن أشعار العرب : 283 .
 (5) العيد: ما اعتاد من حزن وشوق ، - مالك: ما أعظمك، إيراق: من الأرق، - طرّاق يطرقه أي يأتيه ليلاً .
 (6) افتتنت : هام ، التفراق : مصدر تفرّق .
 (7) يسري الطيف : يسير ليلاً ، - الأين : نوع من الحيات ، أو الاعياء والتعب ، - محتفياً : حافياً .
 (8) تالله آمن : أي لا آمن .
 (9) ممزوجة الود: غير صافية، - الشطر الثاني : يعني وصالها الذي انقطع وهجرها الذي استمر ، اللذ : لغة في الذي .
 (10) ضجنان : جبل بناحية مكة ، - القطر : السحاب هنا برّاق : يبرق ولا يمطر فهو خلب .
 (11) خلّة : صديق ، للذكر والأنثى ، - أحذاق : المتقطع .

نجوت منها نجائي من بجيلة إذ	ألقيت ليلة خبت الرهط أوراقي ⁽¹⁾
ويفتتح الشنفرى* تائيتُهُ المشهورة بالغزل والتشبيب، مبدعاً في وصف محبوبته ، والتنويه بحاسنها، وأخلاقها، يقول ⁽²⁾ .	
ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت	وما ودعت جيرانها إذ تولت ⁽³⁾
وقد سبقتنا أم عمرو بأمرها	وكان بأعناق المطيِّ أظلت ⁽⁴⁾
بعيني ما أمست فباتت فأصبحت	فقضت أموراً فاستقلت فولت ⁽⁵⁾
فواكبدا على أميمة بعدمها	طمعت، فهبها نعمة العيش ولت ⁽⁶⁾
فيا جارتى وأنت غير مليمة	إذا ذكرت، ولا بذات تقـلنت ⁽⁷⁾
لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها	إذا ما مشت، ولا بذات تلفت
تبيت بعيد النوم تهدي غبوقها	لجارتها إذا الهدية قلّت ⁽⁸⁾
تحلُّ بمنجاة من اللوم بيتهها	إذا ما بيوت بالمذممة حلت ⁽⁹⁾
كأن لها في الأرض نسياً تقصه	على أمها وإن تكلمك تبلت ⁽¹⁰⁾
أميمة لا يخزي نثاها حليلها	إذا ذكر النسوان عفت وجلت ⁽¹¹⁾
إذا هو أمسى أب قرّة عينه	مآب السعيد لم يسئل أين ظلت ⁽⁷⁾

(1) بجيلة : القبيلة التي أسرته، - الخبت : اللين من الأرض .- الرهط : موضع ،- ألقىت أوراقي " استغرقت مجهودي في العدو .

* الشنفرى شاعر جاهلي اسمه عمرو بن مالك الأزدي من بني الحرث بن ربيعة، والشنفرى لقبه، ومعناه عظيم الشفة، وهو ابن اخت تأبط شراً، وكان أحد الثلاثة العدائين، ضرب به المثل في العدو، فقيل " أعدى من الشنفرى " . أخذ أسيراً فدأء في بني سلامان بن مفرج ، وكان غلاماً، فلما شب وعلم ، توعدهم ، بقتل مائة منهم ، وظل يغزوهم حتى قتل منهم تسعة وتسعين ، من شعره المشهور " لامية العرب " .

(2) المفضليات : 108 ،- ديوان الصعاليك : 15- 17 . والأغاني جزء 21 : 209 - 210 .

(3) أجمعت : عزمتم أمرها ،- استقلت : ارتحلت .

(4) سبقتنا بأمرها: استبدت واستأثرت به، وكانت ... : أي فاجأتنا بالإبل حتى أظلتنا بها .

(5) بعيني : يأسف أن يرى رحليها ولا حيلة له .

(6) زلت : ذهبت ، من قولهم زلّ عمرة : ذهب .

(7) مليمة : غير ملامة ،- نقلت : تبغض ، والتبغض : مقابل التحبب ،أي ليس ممن يقال فيها أنها نقلت .

(8) الغبوق : ما يشرب بالعشي ،- إذا الهدية قلت : أي في الجذب حيث تذهب الألبان، وتنفذ الأزواد .

(9) تحل بيتهها: فعل متعد بنفسه،- المنجاة : فعله من النجوة وهو الارتفاع .

(10) النسى : الشيء المفقود المنسى،- تقصه : تتبعه،- أمها بفتح الهمزة : قصدها الذي يريده ،- تبلت :

تنقطع في كلامها لا تطيله .

(11) النثا : ما أخبرت به عن الرجل من حسن أو سيء .

(7) آب : رجع ،- (قُرّة) مفعول .

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت
فبتنا كأن البيت حجر فوقنا
بريحاته من بطن حلية نورت
ويتحدث تأبط شراً عن طيف "سعاد" الذي ألم به فأرّقه، وأذهب نومه ثم يصفها
وصفاً حياً جميلاً، فيقول (4).

لقد قال الخليّ وقال حُلساً
لطيف من سعادٍ عناك منها
وتلك لئن عنيت بها رداحٌ
نياقُ القرط غراءُ الثنايا
بظهر الليل شدّ به العكوم⁽⁵⁾
مراعاةً النجوم ومن يهـمّ
من النسوان منطقتها رخيماً⁽⁶⁾
وريداء الشباب ونعم خيم⁽⁷⁾
كذلك قد يكون خيال المحبوبة، سبباً في الأرق وقلة النوم عند عبدة بن الطيب* الذي
يقول في مطلع قصيدة له (8).

تأوب من هند خيالٍ مؤرق
وأكوارنا بالحو جو جوادة
وحلت مبيناً أو رمادان دونها
إذا استيأست من ذكرها النفس يطرقُ
بحيث يصيد الآبدات العسائِقُ
إكامٌ وقيعانٌ من السرِّ سَعَلَقُ

(1) اسبكرت : طالت وامتدت .

(2) حُجْرٌ : أحيط ،- ريحت : أصابتها ريح فجاءت بنسيما ،- طلت : أصابها الطلل وهو الندى . وإنما قال عشاء لأنه أظهر لرائحة الرياحين .

(3) حلية : واد بتهامة، أعلاه لهذيل وأسفله لكانانة ،- الأرج : توهج الرياح وتفرقها في كل جانب ،- المسنت : المجذب .

(4) ديوان الصعاليك : 167-168 .

(5) قال حلساً : قال كلاماً جاداً ،- العكوم جمع عكم : ما يُشدّ به فم البعير .

(6) رداح : كبيرة الردفين .

(7) نياق القرط: طويلة القرط، كناية عن طول جيدها ،- عراء الثنايا: برّاقة الأسنان ،- ريداء : لينة ناعمة ،- نعم خيم : نعم الطبيعة والسجية ، وفاعل نعم هنا ليس معرفاً "بال" .

* عبدة بن الطيب (ت 25 هـ) شاعر مجيد ليس بالكثير، وهو مخضرم، أدرك الإسلام فأسلم، شهد مع المثني بن حارثة قتال هرمز سنة 13 هـ ، وله آثار مشهورة، وكان في جيش النعمان بن مقرن الذين حاربوا الفرس بالمدائن . كان عبدة أسود وهو من اللصوص الرباب، رثى قيس بن عاصم المنقري بقصيدة يقول فيها :

وما كان قيس هلكة هلك واحد * * * ولكنه بنيان قوم تهديماً

قال أبو عمر بن العلاء: هذا البيت أرثي بيت قيل .، وقال ابن الأعرابي : هو قائم بنفسه ، ما له نظير في الجاهلية ولا الإسلام .

(8) شعر عبدة بن الطيب ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

شامية تجري الجنوب بقرضها مراراً فواف كيلها ومحلق

وفي مطلع مفضلتيه يتحدث عبدة بن الطيب عن بعد خولة وهجرانها، ويشكو مما يخامر قلبه من تذكرها، ويعلن عزمه على نسيانها بالرحلة على ناقته التي وصفها وصفاً دقيقاً (1).

هل حبل خولة بعد الهجر موصول	أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
حلت خويلة في دار مجاورة	أهل المدائن فيها الديك والفيصل
يقارعون رؤوس العجم ضاحية	منهم فوارس لا عزل ولا ميل (2)
فخامر القلب من ترجيع ذكرتها	رسٌ لطيفٌ ورهن منك مكبول (3)
رسٌ كرسٌ أخي الحمى إذا عبرت	يوماً تأوبه منها عقابيل (4)
وللأحبة أيام تذكرها	وللنوى قبل يوم البين تأويل (5)
إن التي ضربت بيتا مهاجرة	بكوفة الجند غالت ودها غول (6)
فعد عنها ولا تشغلك عن عمل	إن الصبابة بعد الشيب تضليل

ومن الذين تحدثوا عن بعد المحبوبة حاجز الأزدي، الذي يحييها، ويدعو لها بالسلامة آملاً في لقائها ورؤيتها، واصفاً إعراضها عن كلامه، واصفاً ناقته، طالباً منها أن تسأل عنه لتتعرف على بعض شمائله يقول (7).

صباحك واسلمي عنا أماما	تحية وامق وعمي ظلاما
برهرة يحار الطرف فيها	كحقة تاجر شدت ختاماً (8)
فإن تمس ابنة السهمي منا	بعيدا لا تكلمنا كلاما
فإنك لا محالة أن تريني	ولو أمست حبالكم رماما

(1) المفضليات : 134-136 .

(2) يقارعون : يضاربون، - العجم : أهل فارس، - العزل : جمع أعزل وهو الذي لا سلاح له، - الميل : جمع أميل، وهو السيئ الركوب .

(3) خامر : خالط، - رس لطيف : شيء خفي في نفسه، - المكبول : المقيد .

(4) يقال : أجد رساً من حب، وأجد رساً من حمى، للشيء الداخل في القلب . غبرت : غابت . - العقابيل : البقايا لا واحد لها .

(5) تذكرها : تتذكرها أنت . - تأويل : علامات تبين لك أن البين سيقع .

(6) ضرب بيتاً : أي بناه، - غالت ودّها غول : ذهبت به، والغول ما اغتال .

(7) الأغواني جزء 13 : 121-213 .

(8) برهرة : بضة غضة . - الحقة : وعاء من خشب أو عاج .

- بناجية القوائم عيسجور
تدارك نيتها عاماً فعاماً (1)
سلي عني إذا اغبرت جمادى
وكان طعام ضيفهم الثماماً (2)
فلو صاحبتنا لرضيت منا
إذا لم تغبق المائة الغلاماً (3)

ويذكر صخر الغي* الهذلي معاودة حب محبوبته له، محبوبته التي بعدت عنه، وأورثته كمداً وحنناً وأماً ممضاً، ثم يصف جاذبيتها وتأثيرها البالغ، والذي لا يسلم منه حتى الشيوخ الذين لا حاجة لهم بالنساء، إذا ما سمعوا أو تعرضت لهم، يقول (4).

- إني بدهماء عزم ما أجد
عاودني من حبهما الزؤد* (5)
عاودني حبهما وقد سحطت
صرّف نواها فإنني كمد (6)
والله لو أسمعت مقاتلتها
شيخاً من الزُبُّ رأسه لبد* (7)
مآبه الروم أو تنوخ أوال
آطام من صوران أو زبد (8)
لفاتح البيع يوم رؤيتها
وكان قبل انبياعه لكذ* (9)

ويذكر قيس بن الحدادية " أم مالك بنت ذؤيب الخزاعي، والتي كان يهواها ويحبها فيتحدث عن بعدها، وذلك أن بطون من خزاعة خرجوا جالين إلى مصر والشام بعد جذب أصابهم، وهذه القصيدة طويلة، وهي من القصائد الرائعة، التي بكى فيها واشتكى، ووصف محبوبته وصفاً معنوياً وحسياً، جميلاً يقول (10).

(1) الناجية : السريعة ، ولا يوصف بها البعير .- العيسجور : الناقة الصلبة السريعة،- تدارك : تلاحق ،- الني : الشحم .

(2) اغبرت جمادى : قل الخير وذلك في الشتاء ،- الثمام : نبت ضعيف .

(3) تغبق : تسقي الغبوق ، وهو الشرب بالعشي .

* هو صخر بن عبد الله الخيثمي ، أحد بني خيثم بن عمرو بن الحارث ابن تميم بن سعد بن هذيل، لقب بصخر الغي لخلاعه وشدة بأسه، وكثرة شره، وهو وأخوه الأعم من صعاليك هذيل، وسيرتهما حافلة بأخبار الغزو والغارة والفتك .

(4) ديوان الهذليين : 254-255 .

(5) عزمًا : شد ما أجد ،- حباؤها : حبها ،- الزؤد : الذعر والفرع .

(6) سحطت : بعدت،- صرف : تصرف ،- نواها : نيتها، أي وجهها الذي أخذت فيه،- كمد : شديد الحزن .

(7) الزُبُّ : نقول رجل أزب أي كثير الشعر ،- لبد : قد تلبد ببعضه على بعض، جعله أزب لأنه لا يقرب النساء .

(8) مآبه : منزلة حيث الروم ،- تنوخ : هم حاضرو حلب ،- الآطام : بيوت ،- صوران : دون دابق وزيد : قبّل حمص ، ويقال : صوران وزيد جبالن باليمن .

(9) لفاتح : لأجاب وأطاع ،- البيع والانبياح : الانبساط ،- لكذ : عسر ليس بسهولة .

(10) الأغاني جزء 14 ص 146-149 .

أجَدِّكَ إِنْ نَعَمْ نَأْتِ أَنْتَ جَارِعُ
 قَدْ اقْتَرَبْتُ لَوْ أَنَّ فِي قَرْبِ دَارِهَا
 وَقَدْ جَاوَرْتَنَا فِي شَهْوَرِ كَثِيرَةٍ
 فَإِنْ تَلَقَيْنِ نَعْمَى هَدَيْتِ فَحِيهَا
 وَظَنِّي بِهَا حَفْظٌ لَغَيْبِي، وَرَعِيَّةٌ
 وَقُلْتُ لَهَا فِي السَّرِّ بَيْنِي وَبَيْنِهَا
 فَقَالَتْ: لِقَاءٌ بَعْدَ حَوْلٍ وَحَجَّةٌ
 وَقَدْ يَلْتَقِي بَعْدَ الشَّتَاتِ أَوْلُو النُّوَى
 وَمَا إِنْ خَذُولٌ نَازَعَتْ حَبْلَ حَابِلٍ
 بِأَحْسَنِ مِنْهَا ذَاتَ يَوْمٍ لَقَيْتِهَا
 رَأَيْتِ لَهَا نَارًا تُشَبُّ، وَدُونِهَا
 فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: اصْطَلُوا النَّارَ إِنَّهَا
 فِيَا لَكَ مِنْ حَادٍ حَبُوتٍ مَقِيَّةً دَا
 أُغِيظًا أَرَادَتْ أَنْ تَخْبَّ جِمَالِهَا
 فَمَا نُطْفَةٌ بِالطُّودِ أَوْ بَضْرِيَّةٌ
 يَطِيفُ بِهَا حِرَانٌ صَادٍ وَلَا يَرَى
 بِأَطْيَبِ مِنْ فِيهَا إِذَا جُنَّتْ طَارِقًا
 وَحَسْبُكَ مِنْ نَائِي ثَلَاثَةٌ أَشْهُرٌ

قَدْ اقْتَرَبْتُ لَوْ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعُ
 نَوَالًا، وَلَكِنْ كُلٌّ مِنْ ضَنْ مَانِعُ
 فَمَا نَوَّلْتُ، وَاللَّهِ رَاءٌ وَسَامِعُ
 وَسَلَّ كَيْفَ تُرْعَى بِالْمَغِيبِ الْوَدَائِعُ
 لَمَا اسْتَرَعَيْتُ، وَالظَّنُّ بِالْغَيْبِ وَاسِعٌ (1)
 عَلَى عَجَلٍ: أَيَّانَ مَنْ سَارَ رَاجِعٌ؟
 وَشَحَطُ النُّوَى إِلَّا لَذِي الْعَهْدِ قَاطِعٌ (2)
 وَيَسْتَرْجِعُ الْحَيَّ السَّحَابَ الْوَالْوَامِعُ (3)
 لَتَنْجُو إِلَّا اسْتَسَلِمْتَ وَهِيَ ظَالِعٌ (4)
 لَهَا نَظْرٌ نَحْوِي كَذِي الْبَيْتِ خَالِعٌ (5)
 طَوِيلُ الْقِرَاءَةِ مِنْ رَأْسِ ذُرْوَةِ الْفَارِعِ (6)
 قَرِيبٌ، فَقَالُوا: بَلْ مَكَانُكَ نَافِعٌ (7)
 وَأَنْحَى عَلَى عَرْنِينِ أَنْفِكَ جَادِعُ
 لَتَنْفَجِعَ بِالْإِطْعَانِ مَنْ أَنْتَ فَاجِعٌ (8)
 بِقِيَّةِ سَيْلٍ أَحْرَزْتَهَا الْوَقَائِعُ (9)
 إِلَيْهَا سَبِيلًا غَيْرَ أَنْ سَيْطَالِعُ (10)
 مِنَ اللَّيْلِ وَاخْضَلَّتْ عَلَيْكَ الْمَضَاجِعُ (11)
 وَمَنْ حَزَنَ أَنْ زَادَ شَوْقَكَ رَابِعُ

(1) الرعية : اسم من الرعاية .

(2) الحجة : السنة . والشحط : البعد .

(3) النوى : البعد . يسترجع الحي ، أي يرجعهم ويردهم .

(4) الخذول من الظباء والبقر : التي تخذل صواحباتها وتتخلف عن القطيع وتتفرد مع والدها : ويقال هو

مقلوب لأنها هي المتروكة . ظلع كمنع : غمز في مشية .

(5) البث : اشد الحزن .

(6) تشب : توقد ، القرا : الظهر . ذروة : اسم جبل . الفارع : العالي .

(7) اصطلوا النار : يريد جدوا في السير لنصطي النار إنها قريب .

(8) خبت : اسرعت ، وقد اخبها صاحبها . ظعن كمنع : سار وإطعنه اطعانا : سيرة . من أنت فاجع : أي

أصحابك .

(9) النطفة : الماء الصافي قلّ أو كثر ، والجمع نطاف . والطود : الجبل . وضريّة : بئر .

(10) اطاف به : الم به وقاربة . حران صاد : عطشان . طالعاه : اطلع عليه أي اشرف .

(11) الطارق : الاتي ليلاً . اخضلت : نديت .

سعى بينهم واش بأفلاق برممة
بكت من حديث بثّة وأشاعه
فلا يسمعن سري وسرك ثالث
وكيف يشيع السرّ مني ودونه
وحب لهذا الربع يمضي أمامه
لهوت به حتى إذا خفت أهله
نزعت فما سري لأول سائل
وقد يحمد الله العزاء من الفتى
ألا قد يسلي الهوى عن حبيبه
وما رايني إلا المنادي ألا اظعنوا
فجئت كأني مستضيف وسائل
فقال: تزحزح ما بنا كبر حاجة
فما زلت تحت الستر حتى كأنني
فهزت إليّ الرأس مني تعجباً
فأيهما ما أتبعن فأننني
بكي من فراق الحيّ قيس بن مُنقذ
بأربعة تنهل لمّا تقدّمت
وما خلّت بين الحيّ حتى رأيتهم

ليفجع بالأظعان من هو جازع⁽¹⁾
ورصفة واش من القوم راصع⁽²⁾
ألا كل سرّ جاوز اثنين شائع
حجاب ومن دون الحجاب الأضالع!
قليل القليّ منه جليّ ل و رادع⁽³⁾
وبين منه للحبيب المخضادع
وذو السر ما لم يحفظ السر ماذع
وقد يجمع الأمر الشتيت الجوامع
فيسلي، وقد تردي المطي المطامع
وإلا الرواغي غدوة والقعاقع⁽⁴⁾
لأخبرها كل الذي أنصات مع
إليك ولا منا لفقرك راقع
من الحرّ ذو طمرين في البحر كارع⁽⁵⁾
وعضّض مما قد فعلت الأصابع
حزين على إثر الذي أنا وادع⁽⁶⁾
وإذراء عيني مثله الدمع شائع⁽⁷⁾
بهم طرّق شتى وهنّ جوامع⁽⁸⁾
ببينونه السفلى وهبت سوافع⁽⁹⁾

(1) برمّة : عرض من أعراض المدينة قرب " بلاكت " بين خيبر ووادي القرى ، وافلاق جمع فلق كسبب ، وهو المطمئن من الأرض بين ربوتين .

(2) بث الخبر : نشره ، و رصف الشيء كقتل : ضم بعضه إلى بعض ونظمه و رصعة بالرمح : طعنه طعناً شديداً غيب السنان .

(3) الربع : المنزل .

(4) رغت الناقة رغاء : صوتت فهي راغية والجمع الرواغي ، والقعاقع : تتابع أصوات الرعد في شدة ، جمع قعقة ، والمراد هنا أصوات تقويض الاخبية وما إلى ذلك تأهباً للرحيل .

(5) الطمر: الثوب الخلق. كرع في الماء كمنع وسمع: تناوله بفيه من موضعه من غير ان يشرب بكفيه ولا بإناء
(6) يستشهد بهذا البيت على استعمال وادع بمعنى تارك .

(7) اذرت العين الدمع إذراء : صبته .

(8) بأربعة ، أي بأربع اعين وهي عيناه وعيناها . وانهلّت العين : سالت بالدمع .

(9) البين : الفراق . وبينوته : موضع بين عمان والبحرين ، السوافع : لوافح السموم ، سفحته الشمس والسموم : لفحته لفحاً يسيراً فغيرت لون بشرته وسودته .

حذار وقوع البين والبين واقـع
ومُعري عن الساقين والثوب واسع⁽¹⁾
فإن الهوى يا نَعْم والعيش جامع
بأهلي بَيْن لي متى أنت راجع؟
إذا أضمرته الأرض ما الله صانع⁽²⁾
وأمعن بالكحل السَّحيق المدامع⁽²⁾
بوصلك ما لم يطوني الموت طامع
وإني لعهد الودِّ راعٍ، وإنني

وفي مطلع قصيدة لعروة بن الورد نجده يبدؤها بذكر زوجته سلمى، حيث الذكريات الجميلة، والأيام الحلوة، التي يحركها رؤية البرق، فتجيش العاطفة وتعتصر الحسرة والندم قلبه على فراقها، والتفريط فيها فنجده يلوم نفسه تارة، ويتذكر حديثها تارة، متمنياً لوعادت تلك اللحظات الجميلة السابقة، فينعـم بوصولها، ويهنأ بقربها يقول⁽³⁾.

أرقتُ وصُحبتِي، بمضيق عمق
إذا قلت استهل على قديد
تكشف عائد بلقاء، تنقي
سقى سلمى، وأين ديار سلمى
إذا حلت بأرض بني عليّ
ذكرت منازل من أم وهب
وأحدث معهداً من أم وهب
وقالوا: ما شاء؟ فقلت ألهو
لبرق، في تهامة، مستطير⁽⁴⁾
يحور ربابة حور الكسير⁽⁵⁾
ذكور الخيل عن ولد شفور⁽⁶⁾
إذا حلت مجاورة السري⁽⁷⁾
وأهلي بين زامرة وكير⁽⁸⁾
محل الحي أسفل ذي النقي⁽⁸⁾
معرسنا بدار بني النضير⁽⁹⁾
إلى الأصباح، آثر ذي أثير

(1) النجاء : السرعة في السير .

(2) أمعن الماء : سال وجرى .

(3) الديوان : 62-64 ،، ديوان الصعاليك : 75-77 .

(4) عمق : اسم بلدة بالمدينة ، مستطير : منتشر .

(5) قدير : مكان قريب من مكة، - استهل : صات، - ربابة : سحابة - يحور : يرجع ، - الكسير : البطيء في المشي .

(6) العائد : الحديثة النتاج، - شفور : الشفر هو رفع الرجلين .

(7) السريير : اسم مكان في بلد بني كنانة .

(8) بنو علي : قوم من بني كنانة - زامرة وكير : موضعان .

(9) أم وهب : كنية زوجته . - ذو النقيير : اسم موضع لبني القين ولبنين كلاب .

بأنسة الحديث، رضاب فيها
أطعت الأمرين بصرم سلمى
سقوني النسء، ثم تكنفوني
وقالوا : لست بعد فداء سلمى
ألا وأبيك، لو كاليوم أمرى
إذا لملكت عصمة أم وهب
فيا للناس كيف غلبت نفسي
ألا يا ليتني عاصيت طلقاً

بعيد النوم، كالغنب العصير(1)
فطاروا في عضاه اليستعور(2)
عداة الله من كذب وزور(3)
بمغن، ما لديك، ولا فقيـر
ومن لك بالتدبر في الأمـور
على ما كان من حسك الصدور(4)
على شيء، ويكرهه ضميري
وجباراً، ومن لي من أمير(5)

وفي مطلع قصيدة أخرى يتحدث عن موضوع ليس ببعيد عن السابق حيث فارقتـه زوجته ليلي بنت شعواء فنجده يقول :

تحنُّ إلى ليلي بحرّ بلادها
يحلُّ بوادٍ من كراءٍ مُضِلَّةٍ
وكيف ترجّيتها وقد حيل دونها
تبغاني الأعداءُ إما إلى دمٍ
يظلُّ الأباء ساقطاً فوق متنه
كأنَّ خوات الرعدِ رزءٌ زئيره
إذا نحنُ أبردنا وردت ركابنا

وأنت عليها بالملا كنت أقدار(6)
تُحاولُ ليلي أنْ أهَابَ وأحصرا(7)
وقد جاورت حياً بتيمنٍ منكر(8)
وإمّا عراض السعادين مصدراً(9)
له العدوَّة الأولى، إذا القرنُ أصحرا(10)
من اللاء يسكنُ العرينَ بعثرا(11)
وعن لنا من أمرنا ما تيسرا(12)

(1) الأنسة : التي لا تتفر - رضاب فيها : ريق فمها .

(2) اليستعور : اسم موضع .

(3) النسء : المُسكر .

(4) الحسك : الخشونة والغل والعداوة .

(5) طلق وجبار : أخوة وابن عمه .

(6) بحرّ بلادها : بين قومها ، - الملا : الأرض الواسعة (في الصدرين السابقين سلمى بدل ليلي) وفي

الأغاني ليلي وهو الأصوب . وأشار ديوان الصعاليك إلى الروايتين بليلى وسلمى في الحاشية .

(7) كراء : أرض تكثر فيها الأسود . - أحصرا : أصيف عن ذلك ، أعجزه .

(8) تيمن : أرض قريبة من جرش ، وقيل في بلاد اليمن ، - منكر : غير معروف .

(9) عراض الساعدين : يراد به الأسد .

(10) الأباء : القصب ، أي أن هذا الأسد يسكن الغياض ، ويتساقط القصب على متنه .

(11) خوات الرعد : شبه صوت زئير الأسد بصوت الرعد ، - الخوات : صوت الرعد . - بعثرا : مكان

مأسدة .

(12) ردت ركابنا : ردت ما شئتنا من الرعي ، - عن لنا : عرض لنا .

بدالك مني، عند ذاك صر يمتي	وصبري، إذا ما الشيء ولى فأدبرا ⁽¹⁾
وما أنس م الأثيَاء لا أنس قولها	لجارتها ما إن يعيش بأحورا ⁽²⁾
لعلك يوماً أن تسري ندامة	علي بما جشمتني يوم غصورا ⁽³⁾
فغربت إن لم تخبريهم فلا أرى	لي اليوم أدنى منك علماً وأخبرا ⁽⁴⁾
قعيدك ، عمر الله، هل تعلميني	كريماً إذا اسود الأنامل أزهرا ⁽⁵⁾
صبوراً على رزء الموالي وحافظاً	لعرضي، حتى يوكل النبت أخضرا ⁽⁶⁾
أقب ومخماص الشتاء مرزأ	إذا اغبر أولاد الأذلة أسفرا ⁽⁷⁾

ويشكو القتال الكلابي في مطلع قصيدة له من هجر محبوبته، وصددها له، لأنه كبير في السن وتفضيلها للشباب الصغار، مذكراً إياها بفعاله وبفروسيته وبطولته، التي لا يقوى عليها مثل هؤلاء الصغار يقول (8).

صرمت شميلاً وجهاً فتجلد	من ذا يقول لها علينا تقصد ⁽⁹⁾
أشميل ما أدراك إن عاصيتني	أن الرشاد يكون خلفك من غد
يا ظبية عطفت لآدم شادن	هلاً أويت لقلب شيخ مقصد ⁽¹⁰⁾
فإن أراد الوصل لا تصلينه	ووصلت أصحاب الشباب الأعيد ⁽¹¹⁾
وتطربت حاجات ذب فاضل	أهواء حب في أناس مُصعد ⁽¹²⁾
حضرُوا ظلال الأثل فوق سعائد	ورقوا فراخ حمامه المتغرد
أشميل ما يدريك أن رُبَّ ماجن	طام عيالمه مخوف المرصد ⁽¹³⁾

(1) صريمتي : أي مضائي وعزيمتي في الأمور .

(2) بأحورا : هو في هذا الموضع العقل ن يقال للرجل : ما إن يعيش بأحور ، أي ذهب عقله .

(3) تسري : تظهر ، حضور : ماء لطى ، - جشمتني : حملتني .

(4) فغريت : يدعو عليها بالبعد حتى تصير غريبة .

(5) معيدك : قسم يعني به : اذكرك - عمر الله : بقاء الله .

(6) رزء الموالي : أي منالهم مني .

(7) ديوان الصعاليك : 53 - 54 .

(8) منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك ، ص 646 .

(9) صرمت : هجرت ، تجلد : تصبر وتحمل .

(10) عطفت : مالت ، لشادن : ولد الظبية الذي استغنى عن أمه . - شيخ مقصد : يقصد نفسه .

(11) الإعيد : الناعم لين الأعطاف .

(12) ذب : نقول ذباً ذباً : أي دفع عنه ومنع وحامى ، الذباب " الدفاع عن أهله وقومه .

(13) الماجن : هو المازح قليل الحياء، وقد تأتي بمعنى : الصلب الغليظ .

جاهرته بزمام ذات بُرايية وَحَدِي سَوِي أُجْدِ وَسَيْفٍ مُفْرَدٍ⁽¹⁾

ويشكو يعلى الأحوال* من وشاية الوشاة، ويتحدث عن شدة حبه وتعلقه بمحبوبته، وأرقه عند رؤية البرق اليماني، الذي حرك شجونه، وأثار أحزانه وأشواقه، فأنشد يقول⁽²⁾.

أرقت لبرق دونه شـدون	يمان وأهوى البرق كل يمان
فبت لدى البيت الحرام أخيله	ومطوي من شوق له أرقان
إذا قلت شيماه يقولان والهوى	يصادفه منا بعض ما يريان
جرى منه أطراف الشرى فمشيع	فأبيان فالحيان من ذمران
هنالك لو طوّفتما لوجدتُ تما	صديقاً من اخوان بها وغوان
وعزف الحمام الورق في ظلّ أَيْكة	وبالحيّ ذو الرودين عزف قيان ⁽³⁾
أويحكما يا واسيي أمّ معمـر	بمن وإلى من جنّما تشيان
بمن لو أراه عانياً لفديتُـه	ومن لو رأني عانياً لفدانِي ⁽⁴⁾

ومن الشعراء الصعاليك الإسلاميين جدر العكلي الذي يتحدث عن الهموم التي لا تفارقه، ثم نراه يتحدث كغيره من الشعراء عن البرق الذي يهواه، والذي يذكره بمن يحب، ويأخذ منه اليأس ومأخذه، فيكتفي بأن ينظر إلى البدر الذي تنتظر إليه محبوبته، فهما مجتمعان على تفرقهما، أليس الليل يجمعهما بظلمته، والنهار يشملهما بضوئه، ويبلغ الأمر ذروته حين يصل الأمر إلى الموت المحقق، إذا ما بعدت المحبوبة، يقول⁽⁵⁾.

تأوبني فبت لها كنيعاً	همومٌ لا تفارقتي حوان ⁽⁶⁾
هي العواد لا عواد قومي	أظنّ عيادتي في ذا المكان
إذا ما قلت قد أجلين عني	ثنى ريعانهنّ عليّ ثانٍ

(1) أُجْدُ : الأجد الناقة القوية .

* يعلى الأحوال بن مسلم، شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية، وكان لصاً فاتكاً حرباً، وكان خليعاً يجمع صعاليك الأزدي وخلعاءهم فيغير بهم على أحياء العرب، ويقطع الطريق على السابلة، فشكّي إلى نافع بن علقمة بن الحرث الكناني، فطلبه وأمسك به وقيده وأودعه السجن .

(2) الأغاني، جزء 19 : 111-112 . (دار الفكر) .

(3) الورق : جمع ورقاء ، وهي الحمامة التي يميل لونها إلى الرماد . - الأيكة " الشجر الملتف الكثيف - القيان جمع قينة، وهي المغنية

(4) عانياً : أسيراً .

(5) منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك . : 633 634 .

(6) تأوبني : التّأوب هو الزيارة ليلاً .

فإن أفتها فالقلب أن (1)
يحبك أيها البرق اليماني
على عداوء من شغل وشان (2)
مطاوعتا الأزيمة ترحلان
تشوقان المحب وتوقدان
على غصنين من غرب وبان
وفي الغرب اغتراب غير دان
وإيانا فذاك بننا تدان
ويعلوها النهار كما علاني
بقين من المحرم أو ثمان
أقلا اللوم إن لم تنفعاني
وأودية اليمامة فانهياني
بكي شبانهم وبكى الغواني

فإن مقرّ منزلهنّ قلبي
ليس الله يعلم أن قلبي
وأهوى أن أعيد إليك طرفي
نظرت وناقناتي على تعاد
إلى ناريهما وهما قريب
وهيجني بلحن أعجمي
فإن البان أن بانتي سليمي
أليس الليل يجمع أم عمرو
بلى ونرى الهلال كما تراه
فما بين التفرق غير سبع
فيا أخوي من جشم بن سعد
إذا جاوزتما سعفات هجر
إلى قوم إذا سمعوا بنعي

ويشكو عبيد بن أيوب العنبري من بعد المحبوبة، واستحالة الصلة لكثرة الموانع فيجهش الشاعر بالبكاء، حيث يغدو الحب ألماً ممضاً، وبكاءً عالياً، وحرقة تعنصر القلب، وتورثه سقماً قلماً يفارقه، يقول (3):

جری ظبيّ ببينِ الحيّ فرداً
وقلت لصاحبي والقلب يهفو
فقال نعم جرّين ببين سلمى
كأن دموع عيني يوم بانوا
كأنّ حملهم يوم استقلوا
ذري عنب سفته العين حتى

..... وفاتحه خطوف
أترجر ذي السوانح أم تعيف (4)
وبعض البين منتعف شطوف (5)
جمان خانة رسن ضعيف
وعام السرح وانشمر القطوف (6)
له في كل هاجرة رفيف (7)

(1) أن : الآن هو الرفق والدعة والسكينة .

(2) عداوء : عداوء الشغل موالفة .

(3) شعر عبيد بن أيوب العنبري ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

(4) السوانح : مفردھا سانح ، وهو الذي يأتي من جهة اليمين ، - تعيف : تتركھا .

(5) شطوف : بعيد .

(6) السرح : الماشية ، - انشمر : مرّ مسرعاً ، - القطوف " من الدواب التي تسير السير وتبطن .

(7) الرفيف : الاهتزاز نضارة .

فلما أن أظعان سلمى ودون كلامهم حنق أنواف⁽¹⁾
 وجدت هشاشةً ووجدت خوفاً ووقرني يمانية هتوفاً

ولتوبة بن الحمير * قصائد كثيرة يبدوها بغزل رقيق، مفعم بالحب، الخالص المتدفق الدائم الذي يرى توبة أنه لن ينتهي حتى بالموت، يقول في مطلع قصيدة له (2).

ألا هل فؤادي عن صبا اليوم صافح وهل ما وأت ليلي به لك ناجح⁽³⁾
 وهل في غد، إن كان في اليوم علة سراح لما تلوى النفوس الشحائح⁽⁴⁾
 سقتني بشرب المستضاف فصردت كما صرد اللوح النطاف الضحاضح⁽⁵⁾
 ولو أن ليلي الأخيلية سلّمت عليّ، ودوني تربةً وصفائح⁽⁶⁾
 لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح⁽⁷⁾
 ولو أرسلت وحيّاً إلى عرفته مع الريح في موماتها إذ تناوح⁽⁸⁾
 ولو أن ليلي في السماء لأصعدت بطر في إلى ليلي العيون الطوامح⁽⁹⁾
 وأغبط من ليلي بما ليس ناعمي بلى، كل ما قرت به العين صالح⁽¹⁰⁾

فهل تبكني ليلي إذا مت قبلها وقامت على قبري النساء النوائح
 كما لو أصاب الموت ليلي بكيثها وجد لها جار من الدمع سافح

(1) الحنق: شديد الغيظ، - الأنوف: عزيز النفس .

* هو توبة بن الحمير بن حزم، من بني ربيعة ابن عامر بن صعصعة، يكنى أبا حرب، وهو صاحب ليلي الأخيلية، كان فارساً مغواراً بعيد الغارات، قتل ثور بن أبي سمعان، فقتله بنو عوف بن عامر به .

(2) المنتخب من أشعار العرب، : 286-288 .

(3) صافح: معرض، - وأى: وعد، والمصدر وأى .

(4) لواه دينة: مطلة، الشحائح: جمع شححة، كصحيفة وصحائف .

(5) المستضاف: الملجأ المخرج المثقل بالشر، - صردت: أعطت قليلاً من الشراب، وصرود شربة أيضاً قطعة . - اللوح: العطش . - النطاف: الماء، - الضحاضح والضحاضح: الماء القليل يكون في الغدير .

(6) الصفائح: حجارة عريضة، يعني القبر .

(7) زقا: صاح، - الصدى: كانوا يزعمون أن عظام الموتى تصير هاماً وأصداء .

(8) الوحي: الإشارة والكلام الخفي، - المومة: الفلاة لا ماء بها، - تناوح: تناوحت الرياح: هبت من جهات مختلفة .

(9) الطوامح: نقول طمّح بصري إليه، أي علا وامتد .

(10) يقول: أنا محسود منذ عرفت بليلي، وإن لم أنل منها ما أطلب، ولكنني قرير العين بأن أنكر بها .

ويقول في قصيدة أخرى، متحدثاً عن نأى ليلى، وبعد دارها فيقول (1).

وأنتك بليلى دارها لا تزورها	وشطت نواها واستمر مريرها
وخفت نواها من جنوب عفيرة	كما خف من نيل المرامي حفيرها
يقول رجال لا يضيرك نأيهما	بلى كل ما شف النفوس يضيرها
أليس يضير العين أن تكثر البكا	ويمنع منها نومها وسرورها
لكل لقاء نلتقيه بشاششة	وإن كان حولاً كل يوم نزورها
وإني ليشفيني من الشوق أن أرى	على الشرف النائي المخوف أزورها
وأن أترك الغس الحسير بأرضها	يطيف بها عقباتها ونسورها
حمامة بطن الواديين ترنمي	سقاك من الغر الغوادي مطيرها
أبيني لنا لا زال ريشك ناعماً	ولا زلت في خضراء دان بريرها
وقد تذهب الحاجات يسترها الفتى	فتخفى وتهوى النفس ما لا يضيرها
وكنت إذا ما زرت ليلى تبرقت	فقد رابني منها الغداة سفورها
وقد رابني منها صدود رأيتة	وإعراضها عن حاجتي وبسورها

(3) الحوار بين الشاعر والمحبوبة :

إذا كانت قصائد الصعاليك لا تبدأ بالوقوف على الأطلال صراحة، مع ذكرها ووصفها، في جو نفسي مفعم بالحزن والأسى، بعد أن هيّج الموقف ذكرياته مع أحبائه، وإذا لم تبدأ بالغزل والتشبيب بالمحبوبة، دون ذكر لأطلالها أو الوقوف عليها مع ذكر دائم لصد المحبوبة، وبعدها، ووصف ما يعانیه الشاعر من هذا، فإن شعرهم يبدأ غالباً بحوار هادئ بين الشاعر وصاحبته، التي غالباً ما تكون زوجته، حوار نجده مفعماً بالود والمحبة والاحترام الذي يكنه الشاعر لزوجته ورفيقة دربه، التي أحبها وأجلّها، وعرف لها قدرها وهذه أمثلة على مقدمات هذا القسم من الشعر .

يطلب عروة من زوجته أن تتركه وشأنه، ولا تكثر من لومه وتعنيفه على منهجه الذي خطه لنفسه، فيقول(2):

أقلى على اللوم يا بنت منذر ونامي وإن لم تشتمي النوم فاسهري

(1) منتهى الطلب من أشعار العرب : 80-81 .

(2) ديوان عروة : 67 .

بها، قبل أن لا أملك البيع مشتري
إذا هو أمسى هامةً فوق صير

رأيت الناس شرُّهم الفقير
وإن أمسى له حسب وخير

أفيد غنى، فيه لذي الحق محمل

ويطلب قيس بن الحدادية من صاحبه أن تكف عن عدله، وتنتظر عسى الله أن

يجمع بينهما يقول (3).

أن يجمع الله شمالاً طالما افترقا
فطال في نعمة يا سلم ما اتفقا

ويطلب الشنفرى من زوجته أن تتركه ونفسه، فالموت لا مفر منه، فلم الخوف (4).

سيُعْذَى بنعشي مرةً فأعيب

إذا كانت الأمثلة السابقة تبدأ بألفاظ يغلب عليها صيغة الأمر، لأن الشاعر في معرض الطلب . فإن بعض القصائد والمقطوعات الشعرية تبدأ بحديث الزوجة إلى زوجها، مثل قول عروة (5).

لها القول طرفٌ أحور العين داعم

ويقول في مطلع أبيات أخرى ذكراً لوم زوجته له على مخاطرته، وتخويفه من

أعدائه (6):

تخوفني الأعداء والنفس أخوف
ولم تدرِ أنني للمقام أطوف
يصادفه في أهله المتخلف

أرى أم حسان الغداة تلومني

تقول سليمي : لو أقت لسرتنا

لعل الذي خوفتنا من أماننا

ويقول تأبط شراً (7):

(1) ديوان عروة : 79

(2) السابق : 97 .

(3) الأغاني جزء 14 : 143 .

(4) ديوان الصعاليك : 11 .

(5) ديوان عروة : 82 .

(6) الديوان : 87 .

(7) ديوان الصعاليك : 173 .

من الله إثمًا مستسرًا وعالنا⁽⁸⁾
وجئت إلينا فارقًا متباطنا⁽¹⁾

أرى ثابتًا يقنًا حوقلا⁽³⁾
ألفَ اليديين ولا زملاً⁽⁴⁾

تقول أراك اليوم أشعث أغبراً⁽⁶⁾
رأيتك براق المفارق أيسراً⁽⁷⁾

وجفا الأقارب، فالفؤاد قريح⁽⁹⁾
وصباً، كأنك في الندي نطيح⁽¹⁰⁾

وشدة نفسي أم سعد وما تدري⁽¹²⁾
ليلقى على حال أمر من الصبر
كريم نثا الإعسار مشترك اليسر⁽¹³⁾

ألا تلكما عرسي منيعة صمّنت
تقول تركت صاحباً لك ضائعاً
ويقول أيضاً⁽²⁾:

تقول سلمي لجاراتها
لها الويل ما وجدت ثابتاً
ويقول أيضاً⁽⁵⁾:

ألا عجب الفتیان من أم مالك
تبوعاً لآثار السرية بعدما
ويقول عروة⁽⁸⁾:

قالت تماضر إذ رأته ما لي خوى
مالي رأيتك في الندى منكأ
ويقول سعد بن ناشب⁽¹¹⁾:

تفندني فيما ترى من شراستي
فقلت لها أن الكريم وإن حلا
إن تعذليني تعذلي بي مرزأ
ويقول عمرو بن براق⁽¹⁴⁾:

(8) عرسي : زوجتي ، - عالناً : ظاهراً .

(1) فارقاً : وحيداً من دون رفيق ، - متباطن : متستر .

(2) ديوان الصعاليك : 156 .

(3) اليقن : الهرم ، - حوقلاً : ضعيفاً .

(4) ألف اليديين : قويمهما ، - الزمّل : الضعيف الجبان .

(5) ديوان الصعاليك : 131 .

(6) أشعث : متلبّد الشعر .

(7) السرية : الجماعة من المقاتلين ، - براق المفارق : مشرق الجبين ، - أيسر : سهل المخالقة .

(8) ديوان عروة : 54 .

(9) خوى : فرغ .

(10) الوصب : المريض ، - النطيح ، من نطحه الثور بقرنه : أصابه به ، - ونطع فلان : دفعه عنه وأزاله .

(11) الأصمعيات : 270-271 .

(12) تفندني : أي تجهلني ، - الشراسة : سوء الخلق .

(13) العذل : اللوم والتعنيف .

(14) منتهى الطلب : 843

تقول سليمي لا تعرض لتلفة
وليك عن ليل الصعاليك نائم
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم
قليل إذا نام الخلي المسالم

والأمثلة على حوار الصعلوك مع صاحبتيه كثيرة، منتشرة في شعرهم ومقطوعاتهم، وسأتي إليه بالتفصيل في الفصل الثاني، حين أتكلم عن الزوجة في شعر الصعاليك .

وبعد فإن الذي يتتبع شعر الصعاليك سواء كانوا جاهليين أم مخضرمين، أم أمويين، يصل إلى قناعة لا يخالطها شك، بأن هؤلاء الشعراء، كان لهم مقدمات طليئة، ونسيب وغزل، افتتحوا قصائدهم بها، كغيرهم من الشعراء في عصرهم، فوقفوا على الأطلال ووصفوها كما وصفها غيرهم، وبكوا واشتكوا، وتذكروا الأحبة وحنوا إلى تلك الذكريات، وعانوا من الهجر، وبعد من يحبون، فسهروا وراقبوا النجوم وكل ذلك في شعر جيد الوصف، ودقيق المعاني، وعميق الإحساس .

كذلك نجدهم يبدأون بالنسيب والتشبيب بالمحبوبة، مباشرة ذلك إن لم يذكروا الأطلال صراحة، وقد ذكرت من الأدلة على القسمين بما يوضح الفكرة، وفي الغرض .

إذاً كان للصعاليك مقدمات غزلية وطيئة، وهذا الأمر واضح وضوحاً راسخاً في شعرهم، بما لا يدع مجالاً لإنكاره، أو تجاهله، أما الذين قالوا بعدم وجود مقدمات غزلية للصعاليك، فربما يكونون بنوا رأيهم على أحد سببين، أولهما، أنهم اعتبروا الصعاليك عروة والشنفري وتأبط شراً والسليك، وعمرو بن براقه، رغم أن في شعر هؤلاء كثير من المقدمات الغزلية كما ذكرت . وإما أنهم لم يطلعوا على شعر هؤلاء، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عنها ودراستها، فأطلقوا هذا الرأي جزافاً، بناء على انطباع شخصي أن هؤلاء الشعراء لم يكن لديهم وقت للغزل والحب، ولقاء الأحبة، ففي حياتهم من الأهوال والأمور الجسام، ما يصرفهم عن هذا كله .

وهذا الأمر غير صحيح، فالذي يتتبع شعر قيس بن الحدادية، ومالك بن حريم، وعروة بن الورد، وعبد بن الطبيب، وتوبة بن الحمير، وغيرهم من الشعراء يجد فيه من الغزل اللطيف العذب، ما يجعله يغير فكرته، ويرجع عن رأيه، ويصل إلى قناعة على أن هؤلاء كان لديهم بعض الوقت، يحيون فيه حياه العشاق، المحبين، بما فيها من شوق وحب، للمحبوب، وألم وحسرة على فراقه، وبكاء على ذكرياته، وكل هذا واضح في شعرهم، الذي سبق ذكره، وقد يتضح الأمر أكثر بعد استكمال موضوعات هذا الفصل .

ثانياً : الحب وآثاره

نالَت المرأة المحبوبة نصيباً وافراً من شعر العرب في الجاهلية والإسلام، بل لقد استحوذت على النصيب الأكبر منه، ففاقت الأم والأخت والزوجة فالشعراء توجهوا إليها بشعرهم ووقفوا عليها مقدمات قصائدهم، بكل ما تحمل كلماتهم من معاني الحب والوفاء، والشوق واللهفة، " لهذا كان ما وقفه الشاعر الجاهلي على الحبيبة أكثر مما وقفه على من سواها من النساء، وأكثر مما وقفه عليها من الشعراء الذين عاصروه من الأمم الأخرى، توجه إليها الشاعر العربي بغزله ونسيبه، وتعرض لوصفها مباشرة كما تعرض لها بأسلوب غير مباشر " (1) .

" وكان غاية أمنية الشاعر المحب أن يسمعها نشيده، وأكبرهم الواحد منهم أن ينال رضاها أما غير الحبيبة من النساء فلم يثرن في الرجال ما أثارتته هي " (2) .

والشعراء الصعاليك كغيرهم من شعراء عصرهم شغلتهن المرأة، فأحبوها، واكتووا بنار حبها، وألم فراقها، فبكوا ديارها، وبعد مزارها، وشغلتهن بجمالها، فوصفوها وصفاً جميلاً، ينم عن أذواقهم ، وما لفت انتباههم، رغم نظام حياتهم الذي يختلف عن غيرهم، فلم تشغلهم خشونة العيش، وبعد المنازل، وكثرة الكرّ والفرّ، وطول الحروب، وشدة الفقر وشظف العيش، وسوء الحال، وكل ذلك لم يشغلهم عن الجانب الإنساني فيهم، فنجدهم يطلقون العنان لمشاعرهم، وأحاسيسهم، فيأخذ الحب منهم مأخذه، فيطفوا ذلك الجانب الإنساني وتلك المشاعر الفياضة، التي تدل على صدق العاطفة، وصفاء السريرة، وعفة النفس وعمق الإحساس .

(1) هجرة المحبوبة وبعدها :

قد يبلغ تأثير الحب في المحبين ذروته، حين تبعد المحبوبة، ويصعب لقاءها الأمر الذي يورث الشاعر ألماً وحرناً ولوعة، مما يجعله يصرخ متألماً باكياً شاكياً من الأرق والهموم التي لا تفارقه، بعد أن أخذ الشوق مأخذه يقول صخرالغي الهذلي، مصوراً فزعة وذعره، وشدة حزنه وذلك لتذكره محبوبته التي بعدت عنه وعزّ مزارها (3) :

(1) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 88 .

(2) السابق : 89 .

(3) الأغاني ، جزء 22 : 379 .

إني بدهماء وعزّ ما أجدُ عاودني من حبّائها زُودُ⁽¹⁾
عاودني حبُّها وقد شحطت صرف نواها فإتني كمدُ⁽²⁾

ويذكر عبدة بن الطبيب خولة وهجرها له، متسائلاً هل بعد هذا الفراق والبعد من لقاء أم أن قلبه المرتهن عندها لا فكاك له؟ يقول⁽³⁾ :

هل حبيل خولة بعد الهجر موصولُ أم أنت عنها بعيد الدار مشغولُ
حلت خويلة في دار مجاورةً أهل المدائن فيها الديك والفيلُ
فخامر القلب من ترجيح ذكرتها رسُّ لطيفٍ ورهنٌ منك مكبولُ

وقد يكون البين أحياناً خصاماً بين الحب وعشيرة المحبوبة، أي بين العشيرتين فيمنع الفريقان عندئذٍ عن المحاورة، بكل ما في هذه الكلمة من حياة البدوي من معنى ولكن ألم تكن المحبوبة ذاتها في الأصل الجارة⁽⁴⁾؟ يقول الشنفرى⁽⁵⁾ :

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلّت وما ودعت جيرانها إذ تولّت⁽⁶⁾
وقد سبقتنا أم عمر بأمرها وكانت بأعناق المطي أظلت⁽⁷⁾
بعيني ما أمست فباتت فأصبحت فقضت أموراً فاستقلّت فولّت⁽⁸⁾
فواكبدا على أميمة بعدمها طمحت فهبها نعمة العيش زلت⁽⁹⁾

وقد يكون البعد والهجر مدعاة للصبر والتجدد كما يقول القتال الكلابي⁽¹⁰⁾ :

صرمت شميلةً وجهةً فتجدد من ذا يقول لها علينا تقصد

ويشكو توبة بن الحمير من بعد دار ليلي فيقول⁽¹¹⁾ :

نأتك بليلى دارها لا تزورها وشطت نواها واستمرّ مريرها
وخفت نواها من جنوب عفيرة كما خفّ من نيل المرامي حفيرها

(1) عزّ ما أجد : أي شدّ ما أجد ، - حبّاً بها : حبها وهو واحد ليس بجمع . - الزُودُ : الفزع والدُعر .

(2) صرف نواها : الوجه الذي تصرف إليه قصدها إذا نأت ، - الكمد : شدّة الحزن .

(3) المفضليات : 135 .

(4) انظر الغزل عند العرب : ج . ك . فادية ، ترجمة د . إبراهيم الكيلاني : 51-52 .

(5) المفضليات : 108 .

(6) أجمعت : عزمت أمرها ، - استقلّت : ارتحلت .

(7) سبقتنا بأمرها : استبدت واستأثرت به ، - وكانت : أي فاجأتنا بالإبل حتى أظلتنا بها .

(8) بعيني : يأسف أن يرى رحيلها ولا حيلة له .

(9) زلت : ذهبت ، من قولهم زلّ عمره : ذهب .

(10) منتهى الطلب : 646 .

(11) السابق : 80 .

وتهيج أشواق جدر العلكي، وتتحرك شجونه، بروية حمامتين تبيكان على شجرة،
فينذكر سليمي التي بعدت عنه وبانت، حيث لا سبيل لرؤيتها⁽¹⁾:

وقدماً هاجني فازدت شوقاً بكاءً حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحنٍ أعجمي على عودين من غرب وبان
فكان البان أن بانت سليمي وفي الغرب اغتراب غير دان

(2) الأرق :

إن بعد المحبوبة، وعدم رؤيتها، والتنعم بقربها، والهناء بوصولها قد أورت المحبين
أرقاً وسهراً لا يغادرهم، ولذلك نجد الشعراء الصعاليك يكثر من الحديث عن الأرق وقلة
النوم، يصور تأبط شراً في مطلع مفضلتيه، ما يعانيه من الأرق، وطول الليل، وشدة الشوق،
متحدثاً عن خيال محبوبته الذي يطرقه ليلاً، فيقول⁽²⁾:

ياعيدُ مالك من شوقٍ وإيراقٍ ومن خيالٍ على الأهوالِ طرّاقٍ
طيف ابنة الحرِّ إذ كنا نجاورها ثم افتتنت بهـا بعد التفراقِ
يسري على الأين والحيات محتفياً نفسي فداؤك من سار على ساقِ
تالله آمن أنثى بعدما حلفتُ أسماء بالله من عهدٍ وميثاقِ
ممزوجة الودِّ بينا واصلت صرمتَ الأوّل اللذّ مضي، والآخر الباقي

ويأرق عروة لرؤية البرق . الذي ذكره بمحبوبته التي أحبها واشتاق إليها، وندم على
فراقها، المحبوبة التي كانت يوماً من الأيام زوجة ينعم بقربها، إلى أن أكره على مفادتها
وتخييرها، فاختارت أهلها، فظل نادماً على فراقها، يذكرها في كل مناسبة، يقول⁽³⁾:

أرقتُ وصُحبتِي، بمضيقٍ عمقٍ لبرق، في تهامة، مستطير
إذا قلت استهل على قديدٍ يحورُ ربابُهُ حور الكسير
تكشف عائذٍ بلقاء، تنفسي ذكور الخيل عن ولدِ شفور
سقى سلمى، وأين ديار سلمى إذا حلت مجاورة السريـر

ولا يجد عبدة بن الطبيب سوى خيال هند الذي يطرقه ليلاً، فيذهب نومه ويسهر
ليله، وذلك بعد أن يبأس من وصلها، وهذا أمر شائع عند الصعاليك، وهو ذكر الخيال الذي
يطرق ليلاً، ولعل هذا أمرٌ نفسيّ يجعل الصعلوك يحيا مع خياله وذكرياته، بعد أن

(1) العقد الفريد ، جزء 6 : 224-255 .

(2) المنتخب في محاسن أشعار العرب : 282-283 .

(3) الديوان : 62-63 .

صعب عليه لقاء من يحب، وذلك لأسباب كثيرة لا تخفى على أحد . يقول عبدة بن الطبيب (1) :

تَأَوَّبُ مِنْ هَنْدٍ خِيَالٍ مُؤرِّقٍ إِذَا اسْتَيْأَسْتُ مِنْ ذِكْرِهَا النَّفْسَ يَطْرُقُ (2)
وَأَكْوَارُنَا بِالْجَوِّ جَوًّا جُـوَازَةً بَحِيثٌ يَصِيدُ الْآبِدَاتَ الْعَسَائِقُ (3)
وَحَلَّتْ مُبِينًا أَوْ رِمَادَانَ دُونَهَا إِكَامٌ وَقِيْعَانٌ مِنَ السَّرِّ سَعْلِقُ (4)
شَامِيَّةٌ تَجْرِي الْجَنُوبَ بِقَرْضِهَا مَرَارًا فَوَاقٍ كَيْلُهَا وَمُحَلِّقُ

ويبيت تأبط شراً يراقب النجوم، بعد أن أذهب خيال سعاد نومه، وأقضى مضجعه، وكيف لا يسهر هؤلاء، والذي يؤرقهم طيف الأحبة، الذي يمر بخاطر أحدهم مرور الصبا في ساعات المساء، فيلامس قلباً صادقاً مخلصاً، أحبت حباً فطرياً خالصاً ولم تنعم بهذا الوصل وهذا الحب؛ بسبب كثرة الترحال، وبعد المحبوبة، وشدة الطلب وقساوة الحياة، وهذا كله يجعل هؤلاء الشعراء يعانون من الحرمان والهجر والصد أكبر المعاناة، وتشتد المعاناة ليلاً، حين يفرد الإنسان وحيداً، فيصبح الليل طويلاً ثقیلاً، يضيق به الشاعر ذرعاً، يقول تأبط شراً (5) :

نَقْدٌ قَالَ الْخَلِيُّ وَقَالَ حُسْنًا بظَهْرِ اللَّيْلِ شَدُّ بِهِ الْعُكُومُ (6)
لَطِيفٌ مِنْ سَعَادٍ عِنَاكَ مِنْهَا مِرَاعَاةَ النُّجُومِ وَمِنْ يَهِيمُ

ويشتد الأرق بجحدر العكلي، حتى كأن في عينيه شيء من العوار، أو أصابها شيء من الفلفل، فنجده يصرح بهذا في مطلع قصيدة له حيث يقول (7) :

إِنِّي أُرْقْتُ لِبَرْقِ ضَافِنِي سَارِي كَأَنَّ فِي الْعَيْنِ مِنْهُ مَسَّ عَوَارٍ
أَوْحَرَ فَلَفْلَةً كَانَتْ بِهَا قَدِيتُ لَمَّا يَرَى قَشْرَهَا عَنْ حَرِّهَا الْبَارِي
وَيَأْرُقُ يَعْلى الْأَحْوَالُ أَيْضًا لِرُؤْيَةِ الْبَرْقِ فَنَجْدُهُ يَقُولُ (8) :

(1) انظر شعره في موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

(2) التَأَوَّبُ : الورود ، - خيال مؤرِّقٌ : مُسَهِّرٌ .

(3) الْأَكْوَارُ : قد تعني الجماعة من الناس ، وقد تعني الأرض يكون بها المساكن ، - والآبِدَاتُ : جمع أبده

وهي الوحوش

(4) الْأَكَامُ ، والآكَامُ والأُكْمُ : جمع الجمع ومفردها : أكم وأكمت والتي مفردتها : أكمة وهي النمل أو الموضع الذي يكون أكثر ارتفاعاً مما حوله ، - الْقِيْعَانُ : جمع قاع وهي الأرض السهلة المطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .

(5) الأغاني ، جزء 21 : 175 .ديوان الصعاليك : 167 .

(6) قال حلساً : قال كلاماً جاداً ، - العكوم : جمع عكم : ما يشد به فم البعير .

(7) منتهى الطلب : 635 .

(8) الأغاني جزء 19 : 111 (دار الفكر) .

أرقت لبرقِ دونه شدوان
فبت لدى البيت الحرام أخيله
يما وأهوى البرق كل يمان
ومطواي من شوقٍ له أرقان
يصادف منا بعض ما يريان

لقد مثل الأرق ظاهرة في شعر الصعاليك، حيث كثر ذكره في شعرهم، وهذا أمر غير مُستغرب ولا مستهجن، بل قد يكون أمراً طبيعياً عند المحبين المتيمنين، وهو عند الصعاليك أكثر، نظراً لظروف عيشهم، وقلة نومهم، ولكن الأمر اللافت للنظر هو العلاقة بين الأرق والبرق الذي يتكرر كثيراً في شعرهم، يقول الدكتور عبد الكريم يعقوب معلماً على أبيات عروة السابقة: "من المفيد الإشارة إلى أن انكشاف السحاب وعدم هطول المطر كانا دليلاً على انحباس الهم والحزن في نفس الشاعر، لقد أفقرت حياته من مظاهر الفرح والبهجة، وأفقر المكان الذي عاش فيه مع زوجته من مظاهر الحياة، فأهمية المكان تتبع من كونه قيمة اجتماعية، أو بعبارة أدق من كونه مكاناً اجتماعياً زاخراً بالحياة والحضور الإنساني، وإذا ما تلاشى هذا الحضور، واندثرت تلك الحياة، حل الخراب واليباس فالمطر لم ينهمر لأن سلمى رحلت، ورحل معها الخصب والنماء والعطاء والحنان، ولعله في استحضاره صورة العائذ التي تذود الخيل عن ولدها برجلها فينكشف بياض بطنها كانكشاف السحاب وتبدده، يشير إلى الأمومة المتجسدة في سلمى والتي حرم الشاعر منها بعد رحيلها، فألت حياته قفراً خاوياً من مظاهر الحياة، ورغم المسافات التي تفصل بينهما ما زالت تسكن قلبه ووجدانه، فهي الكائن الذي استوطن وجدانه وكيانه" (1).

ربما كان الشعراء ينظرون إلى البرق على أنه بشير خير، حيث يشير بقرب هطول المطر، الذي يعم به الخصب والنماء، وتعمر الديار التي طالما دعا لها الشعراء بالسقيا كي تظل عامرة بأهلها، فلا يرحلون عنها، بل يبقون بها، فينعم الشاعر بقرب محبوبته. لذلك سرعان ما يتذكر الإنسان الديار وساكنيها كلما رأى البرق والسحاب وقرب المطر، فيثير فيه ذلك شجوناً وأحزاناً، وآلاماً مؤرقة تذهب النوم وتسهر العين وتقض المضجع.

3- شدة الحب :

لم يمر بالأدب العربي عصر من من العصور لم يكن الحب فيه ينبوعاً من ينابيعه، فالشعر الجاهلي القديم في البادية، بصوره التقليدية ولغته المتقنه، وتشبيهاته القوية، وبحوره الدقيقة وأوزانه الرصينه، كانت كل قصيدة من قصائده، تقريباً، تفتح باسم حبيب تغنى

(1) المرأة الزوج في أشعار الصعاليك الجاهلين، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، مجلد

13، (عدد 1) 1411هـ - 1991م ص 127.

باسمه، أو وصف لمنزله ودياره، أو وقوف لوداعه أو بكاء لفراقه، أو ذكر لأي شأن من شؤونه وهذا كان تقليداً في الجاهلية ثم نهج كثيرون من الإسلاميين عليه . لم يكن ذلك إلا لما للحبيبة من أثر في نفوس الشعراء والسامعين (1) .

لقد أحب الشعراء وهاموا بمن يحبون، حتى ملكن عقولهم وقلوبهم، وشغلن تفكيرهم، يقول مالك بن حريم (2) :

منعمة لم تلق في العيش ترحة ولم تلق بؤساً عند ذاك فتجدعا
أهيم بها لم أقض منها لبانة وكنت بها في سالف الدهر موزعا

بل قد يتمنى الشاعر أن تطيب نفسه بذكرها قبل الموت، لشدة، شوقه لها، وحبها إياها إنه يفكر فيها حتى في أشد الأوقات وأعصبتها على الإنسان، يقول أبو الطمحان القيني (3) :

ألا علاني قبل نوح النوائح وقبل ارتقاء النفس فوق الجوانح(4)
وقبل غد يالهف نفسي على غد إذا راح أصحابي ولست برائح

لقد " كانت الحبيبة بل كان حبها ألماً ممضاً وبكاءً عالياً، وحنناً وشغفاً وهياماً، وجنوناً مستعراً، كم أسهرت الحبيبة المحبين، فقضوا لياليهم الطويلة يرعون نجومها، فلا غرو إذا ما استهانوا بالموت وتمنوه "(5) .

ومن الشعراء المتيمين الذين لم يفوزوا بحظ عند محبوباتهم، أو فرق بينهم مفرق قيس بن الحدادية الذي يقول (6) :

فإن كانت الأيام يا أم مالك تسليكم عني وترضي الأعدايا
فلا يأمّن بعدي امرؤ فجع لذة من العيش أو فجع الخطوب العوافيا

ويبلغ به الأمر مبلغه حين يجد نفسه في حيرة وقلق شديدين فلا هو ينعم بوصول أم مالك، ولا هو ميت فمستريح مما هو فيه :

فلا مدركاً حظاً لدى أم مالك ولا مستريحاً في الحياة فقاضيا(7)

(1) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 116-117 .

(2) الأصمعيات : 63 .

(3) الحماسة لأبي تمام : 83 .

(4) التعليل : تطيب النفس بذكر ما تحب ، - الجوانح : ضلوع الصدر ، - ارتقاء النفس : بلوغها التراق .

(5) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 128 .

(6) الأغاني : جزء 14 : 150 .

(7) الأغاني جزء، 14 : 150 .

وقد يلجأ الشاعر أحياناً إلى الشكوى والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى، راجياً قربها
فنجده يصرخ صرخات عالية تبوح بما في صدره من حرقه من حرقه وشوق
وآلم، يقول قيس (1):

شكوت إلى الرحمن بعد مزارها وما حملتني وانقطاع رجائيا
وكيف لا يصرخ شاكياً، وقد اضرَّ بجسمه بعدها، وأورثه أسقاماً، وآلاماً وأحزاناً
غيرت من شكله مما جعله يفضل أنه مات قبل سماعه نبأ رحيلها، يقول (2):

وإن الذي أملت من أم مالك أشاب قذالي واستهام فواديا
فليت المنايا صبحتي غديّة بدبح ولم أسمع لبين مناديا
وهنا يبلغ الأمر ذروته عن الشاعر الوله، المتيم، الهائم بحب محبوبته، فالحياة تصبح
غير ذات قيمة بدونها، فهي لا تحلو ولا تطيب إلا بقرب الأحبة، أما إذا كان البين والفرق،
فهنا يصبح الموت خياراً مفضلاً، وهذا يبين مدى تعلق الشاعر بمحبوبته، وتعلقه بها،
وإخلاصه في حبها، ووفائه لها يقول قيس (3):

خليلى إن دارت على أم مالك صروف الليالي فابعث لي ناعيا
ولا تتركاني لا لخير معجل ولا لبقاء تنظران بقائيا
ويقول (4):

إذا ما طواك الدهر يا أم مالك فشانُ المنايا القاضيات وشأنيا
فالتوبة بن الحمير فيذهب إلى ما بعد الموت، حيث أن حب ليلي باق حتى بعد موته
فالموت وإن فرق الأجساد، فلن يفرق الأرواح العاشقة الهائمة يقول (5):

ولو أن ليلي الأخيلى سلمت على، ودوني تربةً وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدئ من جانب القبر صائح
ولو أرسلت وحيّاً إلى غرفته مع الريح في موماتها إذ تنأوح
ولو أن ليلي في السماء لأصعدت بطرفي إلى ليلي العيون الطوامح

(1) السابق جزء، 14: 151 .

(2) السابق : 151 .

(3) السابق : 150-151 .

(4) السابق : 151 .

(5) المنتخب من أشعار العرب : 287 .

ثم يتساءل توبة عن مدى حب ليلى له، وهل ستبكيه بعد موته، كما سيبكيها لو أنها ماتت قبله (1) :

فهل تبكين ليلى إذا مت قبلها وقام على قبري النساء النوائحُ
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها وجادَ لها جارٍ من الدمع سافحُ
لقد كان الحب عند توبة مثلاً يحتذى في العفة وصدق العاطفة، واللهفة على رؤية المحبوب، والرضى منه بأقل القليل من الوصل، وهو العاشق المتيم، الذي لا يشفيه ولا يذهب شوقه إلا رؤية ليلى، أو حتى ديارها، يقول (2) :

وإني ليشفيني من الشوق أن أرى على الشرف النائي المخوف أزورها
ويقول (3) :

يقر بعيني أن أرى العيس تغتلي بنا نحو ليلى وهي تجري ضفورها
وأشرف بالأرض اليفاع لعنني أرى نار ليلى أو يراني بصيرها
ويطلب الشاعر من نفسه التمسك بحب ليلى، وعدم اطاعة الوشاة قائلاً :

تمسك بحبل الأخيلىة وأطرح عدى الناس فيها والوشاة الأدانيا

أن حب توبة لليلى قد تمكن منه حتى لم يعد بالإمكان السيطرة عليه فغدا طوفاناً من المشاعر الفياضة الصادقة التي تعصف بالمشاعر، فلا يملك من أمره شيئاً إلا أن يطيعه ويذهب معه إلى حيث لا يدري، يقول (4) :

فهما منعم إذ منعم كلامها خيالاً يوافيني على النأي هاديا
ولو كنت مولى حقها لمنعتها ولكن من دوني لليلى مواليا
يلومك فيها اللائمون فصاحة فليت الهوى بالائمين مكاتيا
لو أن الهوى في حب ليلى أطاعني أطعت ولكن الهوى قد عصانيا
وكم من خليل قد تجاوزت بذله إليك وصاد لو أتيت سقانيا

بل إن الشاعر يستلذ بذكرها، وإن كانت بعيدة عنه، لا يمكنه الوصول إليها، حتى وإن كان ذكرها يجعله يشرف على الهلاك من شدة ما يجد يقول (5) :

ولو أن ليلى في بلاد بعيدة بأقصى بلاد الجن والناس واديا
لكانت حديث الركب أو لاتحى بها

(1) منتهى الطلب : 86 .

(2) منتهى الطلب : 81 .

(3) السابق : 82 .

(4) السابق : 87 .

(5) السابق : 88 .

4- البكاء :

إن بعض الشعراء الصعاليك، رغم ما عرفوا به من بأسٍ وشدة، وصلابة، وفروسية وشجاعة، وجرأة على مجابهة الأخطار، رغم كل هذه الصفات التي طالما افتخروا واعتدوا بها، إلا أنهم لا يجدون غضاضة في ذكر بكائهم، في بعض المواقف إذا ما جاشت العاطفة، وشفهم الوجد والهوى، وآلمهم الفراق، وحركت شجونهم الذكريات فهذا عروة يقف على منازل صاحبتة (أم عمرو)، ويصف وقوفه بها وبكائه عليها فيقول (1) :

ألم تعرف منازل أم عمرو
بمنعرج النواصف من أبان
وقفت بها فغاض الدمع مني
كمنحدرٍ من النظم الجُمان
ولكن لن يلبث وصل حيي
وجده وجهه مر الزمان

إن عروة يأنف أن يبكي في الشدائد والملمات، ولكنه يبكي حين رأى ديار أم عمرو، الديار التي حركت شجونه، وأثارت الكوامن من ذكرياته، فطغى الجانب الإنساني الضعيف الذي تحكمه العاطفة الجياشة الصادقة، وهنا تفيض الدموع حسرة وأماً على حب مضي، وشوقاً لمحبيب رحل ولم يبق منه إلا أطلالاً على الأرض، وذكريات يحملها الشاعر .
ويقف أبو الطمحان القيني على أطلال محبوبته، التي تبدو رسوماً كالوشم في ظاهر اليد فتأخذه الحيرة، ويشند به الشوق، ويحن إلى تلك الأيام الجميلة، فيبكي، ولكن سرعان ما ينتبه لنفسه، فيعرف أن بكاء ما مضى سفاهة ؛ إن كان يشغل الإنسان عن منهجه الذي خطه لنفسه، فالإنسان لا يمكن أن يظل رهين أطلال وذكريات، بل لا بد أن يتجاوز هذه الحالة، وينطلق في حياة رحبة واسعة، يقول (2) :

لمن طلل عاف بذات السلاسل
وقفت به حتى تعالى لي الضحى
وولما رأيت الشوق مني سفاهة
صرفت وكان اليأس مني خليقةً
ويبكي عبيد بن أيوب العنبري لفراق سلمى، وبعدها عنه، يقول مصرحاً بذلك (3) :

كرجع الوشم في ظهور الأنامل
أسائله ما إن يبين لسائل
وأن بكائي عن سبيلي شاغلي
إذا ما عرفت الصرّم من غير واصل
وقلت لصاحبي والقلب يهفو
أترجر ذي السوانح أم تعيفُ

(1) عروة بن الورد، حياته وشعره د. إبراهيم الخواجة : 191 .

(2) أبو الطمحان القيني ، موسوعة الشعر، المجمع الثقافي .

(3) عبيد بن أيوب العنبري، موسوعة الشعر، المجمع الثقافي .

فقال نعم جرين ببين سلمى
وبعض البين منتعف شطوف
كأن دموع عيني يوم باتوا
جمان خانة رسن ضعيف

ويجيب توبة بعض من يقول أن الفراق والبعد لا يضره، قائلاً، إن كل ما يؤذي النفس يضرها ولا ينفعها، وأنتم لا تعرفون خصائص الحب وأحواله، ثم يذكر لهم دليلاً على تأثره وألمه لفراق محبوبته قائلاً : لو أردتم دليلاً على ذلك فانظروا العين عند فرط البكاء كيف يضرها ويحول بينها وبين النوم والسرور، أليس ذلك ضراراً بها وإيذاء لها، وكأن توبة يريد أن يدلل على صدق عاطفته، وعميق شوقه، ببكائه على فراق محبوبته، يقول (1):

يقول أناس لا يضيرك نأيها
بلى كل ما شف النفوس يضيرها
أليس يضير العين أن تكثر البكا
ويمنع منها نومها وسرورها

ويصرح مرة أخرى بأن بكاء الأحبة حق لا يستطيع أحد سلبه إياه، فإن كان بإمكان أهل ليلى منعها من رؤيته ولقائه، فإنه ليس بمقدورهم منعه من الشعور والبكاء يقول (2):

فإن تمنعوا ليلى وحسن حديثها
فلن تمنعوا مني البكا والقوافيا

ويرى توبة أن البكاء دليلاً على صدق العاطفة والإخلاص في الحب، والوفاء حتى بعد الموت، يقول متسائلاً (3):

فهل تبكين ليلى إذا مت قبلها
وقام على قبري النساء النوائح
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها
وجاد لها جوار من الدمع سافح

ولكن توبة يعرف أن من الحلم والوقار أن يدع الإنسان البكاء، ولكنه لا يستطيع أن يمنع نفسه منه، يقول مخاطباً حمامة، هيجته وزادت من بكائه (4):

لعمري لقد سهرتني يا حمامة ال
عقيق وقد أبكيت من كان باكيا
وكنت وقور الحلم ما يستهشني
بكاء الصدى لو نحت نوحاً مدانيا

لقد ظل العربي على مرّ العصور لا يجد حرجاً في ذكر البكاء تذلاً لمن يحب، أو ألماً وحسرة على فراقه، أو شوقاً لرؤيته، وكيف لا وهي المرأة التي أحببتها القلوب، واستهوتها الأنفس، ولذت برؤيتها الأعين، وتاق لها العشاق، وضعف أمامها الفرسان، أما البكاء في غير هذا الموضع، فهو مستنكر، معيب، يأنف منه العربي ويراه نقصاً في

(1) الحماسة لأبي تمام : 132 ، - منتهى الطلب : 80 .

(2) منتهى الطلب : 87 .

(3) منتهى الطلب : 86 .

(4) منتهى الطلب : 87-88 .

الرجولة والمروءة، وعنوان ضعف وخور، وهذا ما لم نجده عند أي من الشعراء الصعاليك أو غيرهم، وهذا ما صرح به أبو فراس في سجنه وهو يخاطب حمامة قائلاً⁽¹⁾:

أيضحك مأسوراً وتبكي طليقةً
ويسكت محزون ويندب سالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة
ولكن دمعي في الحوادث غالي

5- تبادل الحب :

قد توصف عواطف المرأة أحياناً بالتقلب وعدم الثبات، فالمرأة يستهويها الجمال، والغنى والشباب في الرجل، فأينما وجد هذا مال قلبها، وهذا أمرٌ أشار إليه الشعراء بوضوح في شعرهم يقول . ثعلبة بن صفيير واصفاً تقلب المحبوبات وعدم استمرارهن على حبهن :

وأرى الغواني لا يدوم وصالها
أبدأ على عسرٍ ولا لمياسر⁽²⁾
ويشير علقمة الفحل إلى سعي المرأة وراء الثراء والشباب عند
الرجل فقال⁽³⁾:

فإن تسألوني بالنساء فإنني
بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
فليس له من ودّهـن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه
وشرخ الشباب عندهن عجيب

لقد كان الصعلوك يعرف كغيره من العرب أن الطريق إلى قلب المحبوبة هو الشباب، والنضارة والمال، فبغيرهما لا سبيل لقلبها، وأكثر ما كان يقض مضجع العربي، ويقلقه، رؤية الشيب قد وخطه، لأنه نذير بطي حقة من الحياة بكل ما فيها من لهو، وسهر وشرب، ومغازلة للنساء، وبكل ما فيها من فتوة وقوة ونشاط، وفروسية ومغامرة، لذلك نجد الشاعر العربي يجزع جزعاً شديداً من رؤية الشيب كما يصور ذلك مالك بن حريم حين يقول⁽⁴⁾:

جزعت ولم تجزع من الشيب مجزعاً
وقد فات ربعي الشباب فودعا
ولاح بياض في سواد كأنه
صوارٌ بجوٌّ كان جذباً فأمرعا

(1) ديوان أبي فراس الحمداني دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة 1993 : 126 0

(2) المرأة في الشعر الجاهلي، علي الهاشمي : 108 .

(3) الشعر والشعراء : جزء 1 : 146 0

(4) الأصمعيات : 62-63 .

إن هذا الجزع والفرع من تولي الشباب، له ما يبرره عند هؤلاء الشعراء فكبر السن، وتولي الشباب، وضعف الصحة مدعاة لشماتة الأعداء، وسأم الأهل والبقاء في ساحة البيت، بين الأطفال، يقول عروة (1):

أليس ورائي أن أدباً على العصا فيشمت أعدائي، ويسأمني أهلي
رهينة قعر البيت، كل عشية يطيف به الولدان أهدج كالرأل (2)

ويذكر عروة عزوف النساء عنه بسبب تقدم سنه، قائلاً (3):

ويدعوني كهلاً، وقد عشت حقبةً وهن، عن الأزواج نحوي، نوازع (4)
كأني حصان مال عنه جلاله أغر كريمٍ حوله العوذ راتع (5)

ويذكر القتال الكلابي صراحة عزوف المرأة عنه بسبب كبره في السن، وميلها بوصولها إلى أصحاب الشباب الأغيد، وهذا الميل في المرأة فطري، نلمسه في عواطفها وحديثها، ونظرات عينيها، وتقاسيم وجهها، يقول (6):

صرمت شميلاً وجهاً فتجلد من ذا يقول لها علينا تقصد
أشميل ما أدراك إن عاصيتني أن الرشاد يكون خلفك من غد
يا ظبية عطفت لآدم شادن هلاً أويت لقلب شيخ مقصد
فإذا أراد الوصل لا تصلينه ووصلت أصحاب الشباب الأغيد
ويقول في قصيدة أخرى (7):

فصدت حياءً والمودة بيننا وأبيض بل بالظعائن حابس
فإما تريني قد تجلل لمتي رداع الشباب فاسألي ما أمارس

إن إعراض المرأة عن الرجل إذا تقدمت به السن، وبدا الشيب عليه، وعزوفها عنه، جعل كثير من الشعراء ينصرف عن اللهو، ويراه أمراً لا يليق بسنه، ولا بشيبه حيث أن لكل زمن أهله ورجاله، وحيث أن الصبابة أو التصابي لا يليق بشيخ كبير، حتى وإن أثارت فيه رؤية الأطلال، والذكريات شعوراً نابياً بعودة شبابه، يقول عبدة بن الطبيب:

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل إن الصبابة بعد الشيب تضليل

(1) الديوان : 89 .

(2) أهدج : خائف، - الرأل : فرخ النعام .

(3) الديوان : 82 .

(4) كهلاً : شيخاً كبيراً .

(5) العوذ : الحديثة النتاج (الوضع) من الظباء والإبل والخيل، ومفرها : عائذ .

(6) منتهى الطلب : 646 .

(7) منتهى الطلب : 651 .

وثانية أن لا أصمت كلبنا
 وثالثة أن لا تقذع جارتني
 ورابعة أن لا أحجل قدرنا
 وإني لأعدي الخيل تفرع بالقنا
 إذا نزل الأضياف حرصا لنودعا⁽¹⁾
 إذا كان جار القوم فيهم مقذعا⁽²⁾
 على لحمها حين الشتاء لنشبعنا⁽³⁾
 حفاظا على المولى الحريد ليمنعا⁽⁴⁾

إن هؤلاء الشعراء يريدون أن يصرفوا نظر المرأة، من المظهر الحسي والشكل للإنسان - وهو مهم بالطبع لأي امرأة - وتوجيه نظرها واهتمامها، إلى خصال أخرى أكثر أهمية، وهي الفروسية والبطولة، والكرم والشجاعة، ومجابهة الأهوال والملامات بكل ثبات وعزيمة، مع كرم الأخلاق ونبيل الصفات .

والصعاليك يختلفون في ردة فعلهم وتعاطيهم مع انصراف المرأة عنهم ، وصدودها وإعراضها ، فمنهم من تجده ينفر منها ، ويقابل صدودها بصدود مثله ، ونفورها بنفور أشد وأقوى ، وبين متذلل لها ، باك على أعتابها .

أما المثال الأول من هؤلاء الصعاليك فيمثله تأبط شرا ، الذي يذكر صراحة أنه سيقابل القطيعة بالقطيعة ، وأنه يأبى أن يضعف أمامها ، أو يثنيه حبها عن منهجه الذي خطه لنفسه، يقول⁽⁵⁾:

إني إذا خلة ضنت بنائلها
 وأمسكت بضعيف الوصل أحذاق⁽⁶⁾
 نجوت منها نجائي من بحيلة إذ
 ألقيت ليلة خبت الرهط أوراقني⁽⁷⁾

ويعلق صاحب كتاب الغزل عند العرب على هذين البيتين قائلاً : "وفي المفضليات حالات يغتبط فيها الحبيب من جراء قطع صلته بالحبيبة ، مصرحاً أنه سيعمد إلى القطيعة ذاتها كل مرة تدعو إليها أي عندما لا يلقي من محبوبته استجابة فورية ، إن البين حادث عادي في حياته العشقية"⁽⁸⁾ والحقيقة أن البين ليس حادثاً عادياً في حياة الصعاليك ، بل إنهم

(1) لنودع : لنترك ، يقصد أنه لا يمنع كلبه النباح خوف الضيف .

(2) تقذع : من القذع ، وهو الرمي بالفحش وسوء القول .

(3) لا أحجل : أي لا استرها ، يريد انه يظهرها ليطعمها الضيفان .

(4) أعدي الخيل : أحملها على العدو ، تفرع : تكبح لتكف من بعض جريها ، الحريد : المنفرد المنعزل

(5) المفضليات : 28.

(6) الخلة : الصداقة وتطلق على الذكر والمؤنث والجمع ، النائل : ما ينال ، بضعيف الوصل : بحبل ضعيف ، الأحذاق : المتقطع .

(7) بجيلة : القبيلة التي أسرتة ، الخبت : اللين من الارض . الرهط : موضع ، أوراقني : استنفذت مجهودي في العدو .

(8) الغزل عند العرب : 53.

عانوا منه أشد معاناة ، وفي شعر عروة وقيس بن الحدادية ، وتوبة وعبد بن الطبيب وغيرهم شعر كثير يبين عظيم المعاناة التي عانوها جراء الفراق والبين والبعد عن المحبوبة ولكن الصعلوك لديه من الشدة والصلابة والعزيمة ، وقوة الإرادة ما يجعله يسيطر على عواطفه ، فيفوقها هو ، ولا يسمح لها أن تفوقه، لكن المفارقة العجيبة أن الصعلوك لا يحب المرأة المبتذلة الرخيصة ، التي هانت عليها نفسها، وفرطت في عفتها وشرفها ، يقول السليك (1) :

يعاف وصال ذات البذل قلبي ويتبع الممنعة النوارا (2)

فقلب الشاعر يعاف المرأة التي تجود بوصلها، ويعلق بالممنعة التي لا تأتي ريبة إن هذا النفور الذي نجده عن تأبط شراً، قد لا نجده عند بكر بن النطاح* الذي يمثل، القسم الثاني من الصعاليك الذين نجد فيهم ضعفاً وليونة وتذلاً للمرأة من أجل استرضائها، والفوز بوصلها يقول (3) :

أطالوا غيظي بطول الصدود	أهل دار بين الرصافة والجسر
بحزنين طرف وتلبد	عذبوني ببعدهم وابتلوا قلبي
وقال الفؤاد للعين جودي	ما تهب الشمال إلا تنفست
فتخبرت كالطريد الشريد	قل عنهم صبري ولم يرحموني
ي فأعيت وأنتهى مجهودي	وكلنتي الأيام فيك إلى نفس

فالشاعر هنا يشكو عذابه وحزنه، وقلة صبره، ونفاذ حيلته، حتى إنه لم يجد إلا البكاء . ويقول (4) :

وتظهر الإبرام والنقضتا	العين تبدي الحب والبغضا
ولا رحمت الجسد المنضى (5)	درة ما أنصفتني في الهوى
يعشق منها بعضها بعضاً (6)	مرت بنا في قرطق أخضر
لا أشرب البارد أو ترضى	غضبي ولا والله يا أهلها

(1) ديوان الصعاليك : 188 .

(2) الممنعة : الصعبة ، - النوار : المرأة النفور من الريبة .

* بكر بن النطاح، شاعر اسلامي، كان صعلوكاً يصيب الطريق، ثم أقصر عن ذلك ، وكان شجاعاً بطلاً فارساً، شاعراً حسن الشعر والتصرف فيه ، كثير الوصف لنفسه بالشجاعة والإقدام .

(3) الأغاني ، جزء 19 : 48-49 .

(4) الأغاني جزء 19 : 49 .

(5) المضى : المهزول .

(6) القرطق : رداء .

كيف أطاعتكم بهجري وقد جعلتُ خدي لها أرضاً؟ (1)

إن الشاعر يتذلل ويستعطف محبوبته كي ترضى عنه، ويبلغ به الأمر من التذلل وهوان النفس مبلغه في البيت الأخير، حين يجعل خده أرضاً لها تطوُّها وهذا لا يليق برجل، فكيف بطائفة من الناس هم أشد الناس أنفة وبأساً وقوة، واعتداداً بأنفسهم، وهم الصعاليك، ولكن ربما غيرت طباع هذا الشاعر حياة المدينة التي ألفها، والعيش الناعم المرفه بين الجواري والقيان .

ويقول أيضاً مصوراً حاله أثر صدودها، وما أورثه هذا الصدود من سقم بعد صحة وبكاء بعد ضحك، وحرناً بعد سعادة، حتى أن الدموع تحولت دماً لفرط بكائه وشدته مما جعل القرطاس والقلم يرقان له، ويبيكان معه (2):

صدت فأمسى لقاؤها حرماً	واستبدل الطرف بالدموع دماً
وسلّطت حبها على كبري	فأبدلتني بصحة سقماً
وصرت فرداً أبكي لفرقتها	وأقرع السنَّ بعدهما ندماً
شق عليها قول الوشاة لها	أصبحت في أمر ذا الفتى علماً
لولا شقائي وما بليت به	من هجرها ما استشرت ما اكتتما
كم حاجة في الكتاب بحت بها	أبكيت منها القرطاس والقلمما

بل قد يصل به الأمر إلى التفكير في الانتحار، لأنه لا يطيق غضب محبوبته، أو صدودها فالسرور له أهله، والأحزان والعبرات لها أهلها يقول بكر بن النطاح (3):

غضب الحبيب على في حبي له	نفسى الفداء لمذنب غضبان
مالي بما ذكر الرسول يدان بل	إن تم رأيك ذا خلعت عنائي
يا من يتوق إلى حبيب مذنب	طاوعته فجزاك بالعصيان
هلا انتحرت فكنت أول هالك	إن لم يكن لك بالصدود يدان
كننا وكنتم كالبنان وكفها	فالكف مفردة بغير بنان
خلق السرور لمعشر خلقوا له	وخلقت للعبرات والأحزان

ثم يفسر ضعفه وشحوبه بشدة ما يلاقي من الابتلاء في حبها، الإبتلاء الذي يعجز الشاعر عن وصفه، فلم يتبلى أحد - في نظر الشاعر - بما ابتلي به إلا أيوب عليه السلام ورغم كل هذا فهو ما زال متمسك بمحبوبته، مفتوناً بجمالها، متعلقاً بها . يقول (4):

(1) ويروي : كيف تعاطيكم بهجري وقد *** جعلت خدي لها أرضاً .

(2) الأغاني، جزء 19 : 49 .

(3) السابق : 51 .

(4) السابق : 50-51 .

هل يبئلى أحدٌ بمثلِ بليتيــــــــــــــــي
 قالت عنان وأبصرتني شاحباً
 فأجبتها يا أختٍ لم يلقِ الــــذي
 قد كنتُ أسمعُ بالهوى فأظنــــه
 حتى ابتليت بحلوه وبمــــرّه
 والمرُّ يعجزُ منطقي عن وصفه
 فأنا الشقيُّ بحلوه وبمــــرّه
 يا درَّ حالفك الجمالُ فمالــــه
 كل الوجوه تشابهت وبهــــرتها
 والشمس يغرب في الحجاب ضياؤها
 أم ليس لي في العالمين ضريبٌ ؟
 يا بكر ما لك قد علاك شحوبٌ ؟
 لا قيتُ إلا المبتلى أيــــوبُ
 شيئاً يلدُّ لأهــــله ويطيبُ
 فالحلُّو منه للقلــــوب مُذيبُ
 للمرِّ وصفٌ يا عنان عجبُ
 وأنا المعنى الهائم المــــكروبُ
 في وجه إنسان سواك نصيبُ
 حسناً فوجهك في الوجوه غريبُ
 عنا ويشرق وجهك المحجوبُ

إن تذلل بكر بن النطاح، وضعفه أمام محبوبته، واستماتته من أجل أن ينال رضاها وينعم بوصولها، يعد أمر مستغرباً ومستهجناً في عالم الصعاليك، ولكن ربما كون بكر بن النطاح شاعر إسلامي متأخر نوعاً ما عاش في القرن الثاني الهجري، وكونه كان يعيش في بغداد بين قصورها وجواربها، كل هذا، جعله لين الجانب، عذب الحديث، رقيق الشعر، بخلاف أولئك الصعاليك الذين عاشوا في الصحراء، فنشأوا أشداء صلاب، كشدتها وصلابتها وقسوتها .

ثالثاً: ملامح المحبوبة وصفاتها:

1- الصفات المعنوية:

من الأشياء التي تميز الفتاة العربية، حياؤها، وعفتها، وتمنعها، وعدم ابتذالها، وهذه الأشياء الثلاثة هي عدة الفتاة وسلاحها في الحياة، وهي سمات حرصت عليها بنات العرب، فالحياء يحتم على الفتاة أن لا تظهر كاشفة عن وجهها حتى على أقرب الناس إلى قلبها، وحتى لو كان ذلك في وقت فراق بين المحبوبين، وقد ساد الحزن وعم الأسى، ولم يبق إلا البكاء. يقول قيس بن الحداية (1) :

فشدت على فيها اللثام وأعرضت وأمعن بالكحل السحيق المدامع

وقد تلجأ المرأة العربية أحياناً إلى رفع نقابها أو خمارها، والكشف عن وجهها أو شعرها، ولكن هذا الأمر لا يكون إلا في وقت شديد عصب، كأن تخشى المحبوبة على حبيبها من الموت، كما فعلت ليلي الخيلة حين علمت بتربص قومها لتوبة لقتله، فجلست في طريقه، وكشفت عن وجهها، فاستنكر توبة فعلتها، وعلم أن هناك أمراً، فعاد من حيث جاء ثم قال (2) :

وكنت إذا ما زرت ليلي تبرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها

وقد تنزعه في حالة المعركة واشتداد الخطر عليها، استتهاضاً لأهلها، وإثارة لحميتهم، كما فعلت فكيهة، حين أجارت السليك، واجتمع عليها القوم، فنزعت خمارها، وصرخت بأخوتها، فجاؤها، ودفعوا عنها، يقول السليك (3) :

وما عجزت فكيهة يوم قامت بنصل السيف واستلبوا الخمارا

والمرأة العربية تحرص أن تحيا عفيفة شريفة، طاهرة، نقية من كل شائبة، فهذا هو رأس مالها في الحياة، فإن مست العفة، سقطت المرأة من شاهق إلى وادٍ سحيق، فتناوشتها صخوره وأحجاره وأشواكه، تاركة جروحاً لا تندمل، وآلاماً لا تنتهي . لذلك تظل الفتاة العربية حريصة على سمعتها، وشرفها. فتحيا في مجتمعها- الذي يقدر هذه الأشياء - حياة كريمة عزيزة .

لذلك نجد بعض الشعراء إذا ما أراد مدح فتاة، سارع إلى مدحها بهذه الصفات، التي تعتبر أفضل ما تمدح بها امرأة، يقول السليك (4) :

(1) الأغاني، جزء 14: 150

(2) الأغاني جزء 11 : 198 ، ومنتهى الطلب : 81.

(3) ديوان الصعاليك : 188 .

(4) ديوان الصعاليك : 187 .

لَعْمَرُ أَبِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْمِي
لنعم الجارُ أختُ بني عوارا
من الخفريات لم تفضح أباهما
ولم ترفع لأخوتها شناراً(1)

سأل الحجاج ليلي الأخيلية فقال لها، إن شبابك قد ذهب ، واضمحل أمرك وأمر توبة، فأقسم عليك إلا صدقتني، هل كانت بينكما ريبة قط؟، أو خاطبك في ذلك قط؟ فقالت : لا والله أيها الأمير إلا أنه قال لي ليلةً وقد خلونا كلمةً ظننت أنه خضع فيها لبعض الأمر، فقلت له :

وذي حاجة فُننا له لا تبخ بها
فليس إليها ما حبيت سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه
وأنت لأخرى فارغٌ وحليلُ

فلا والله ما سمعت منه ريبة بعدها حتى فرق بيننا الموت. قال لها الحجاج: فما كان منه بعد ذلك : قالت: وجه صاحباً له إلى حاضرنا فقال : إذا أتيت الحاضر من بني عبادة بن عقيل فاعل شرفاً ثم اهتف بهذا البيت :

عفا الله عنها هل أبيتن ليليةً
من الدهر لا يسري إلي خيالها

فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى فقلت له :

وعنه عفا ربي وأحسن حفظه
عزيزٌ علينا حاجةٌ لا ينالها(2)

إن هذه القصة تبين بجلاء مدى حرص المرأة العربية على شرفها، وعفتها، وتمنعها على من أحبها، واشتاق لها، وتاق للقائها .

إن التمتع في المرأة أمر محبوب عند الرجل، وهذا ما صرح به السليك حين كره وصل المرأة المبتذلة، ومال إلى المرأة النافرة، الممنعة، فقال (3) :

يعاف وصال ذات البذل قلبي
ويتبع الممنعة النوارا

لذلك كان الشاعر حريصاً على سمعة محبوبته، حتى لا تشوبها شائبة، ولا يظن بها سوء، يقول توبة (4) :

علي دماء البدن إن كان زوجها
يرى لي دنباً غير أني أزورها

وأني إذا ما زرتها قلت يا اسلمي
فهل كان في قولي اسلمي ما يضيرها

إنه يريد أن يعلو بمحبوبته عن كل شك وريبة، معلناً أنه إذا زارها لم يزد في زيارته على السلام والسلام فقط .

(1) من الخفريات: من الحبيبات ، - الشنار : العيب والعار .

(2) الأغاني جزء 11 : 197.

(3) ديوان الصعاليك : 188.

(4) الأغاني جزء 11 : 299.

والمرأة تخشى الوشاة وتكرههم، لأنهم يفسدون الود، ويفرقون المحبين ويقطعون
الوصل، ويغيرون النفوس، ويكدرن الصفو، لذلك فهي تخشى من ذبوع سرها، وانكشاف
أمرها، وذبوع صيتها، فتصبح حديث الناس الأمر الذي تخشاه، يقول قيس بن الحداية (1) :

سعى بينهم واشٍ بأفلاق برممة
ليفجع بالأطعان من هو جازع⁽²⁾
بكت من حديث بثه وأشاعه
ورصفه واشٍ من القوم راصع⁽³⁾
بكت عين من أبكاك لا يعرف البكا
ولا تتخالجك الأمور النـوازع
فلا يسمعن سري وسرك ثالث
ألا كل سر جاوز اثنين شائع
وكيف يشبع السر مني ودونه
حجاب ومن دون الحجاب الأضالع

إن الفتاة العربية تظل دائماً خائفة وجلّة، تحرص كل الحرص على سمعتها، وطيب
ذكرها، وقد يحرص المحبون على بقاء حبهم طي الكتمان، حتى لا ينكشف أمرهم
ويحال دون لقاءهم، والشعراء خصوصاً كانوا لا يذكرون أسماء محبوباتهم خوفاً عليهن،
وحرصاً على سمعتهم، وحتى لا يجرموا لقاءهن .

والفتاة العربية تحب الشاب أو الرجل العاقل الرزين الممتزن في أقواله وأفعاله، لذلك قد
تواجه الرجل بحقيقة أمره إذا ما رأت منه غير ما تريد، يقول توبة (4) :

وقد زعمت ليلى بأني فاجرٌ
لنفسى تقاها أم عليها فجورها

والفتاة بطبيعتها تهوى الشباب في الرجل، فهي مفتونة بالشباب والفتوة، والقوة والحيوية
والنشاط في الرجل، وهذا أمرٌ لطالما تحدث عنه الشعراء في شيء من التحسر أحياناً كثيرة.
كذلك فهي تحب منه جمال الشكل، وحسن المظهر، ونضارة الوجه، فهي تصرح بهذا
الأمر، إذا ما رأت في محبوبها غير ما تريد، يقول مالك بن الريب (5) :

وقد تقول وما تخفي لجارتها
إني أرى مالك بن الريب قد نحلا

(1) الأغاني جزء 14 : 148.

(2) برمّة : عرض من أعراض المدينة قرب "بلاكت" بين خيبر ووادي القرى. - أفلاق : جمع فلق كسبب،
وهو المظمن من الأرض بين ربوتين.

(3) الربع : المنزل.

(4) منتهى الطلب : 83.

(5) الأغاني جزء 22 : 312.

إن هذا الأمر يزعج الشاعر، ويؤثر في نفسه، لذلك نجده يسارع إلى تعليل ذلك بقوله (1):

من يشهد الحرب يصلها ويسعرها تراه مما كسته شاحباً وجلاً
وإذا كان مالك بن الربيع فسر شحوب لونه وهزاله، بأحوال الحروب التي يصلها، فإن توبة قد تغير لونه من السير في الهواجر دون ستور، يقول (2):

وقالت أراك اليوم أسود شاحباً وأنى بياض الوجه حر حرورها
وغيرني إن كنت لما تغيري هواجر تكتنيها وأسيرها
إذا كان يوم ذو سموم أسيره وتقصر من دون السموم ستورها
وقد يكون سوء المظهر مدعاة سخرية من قبل المرأة، متناسية ما يجب النظر إليه من حسن خلق، وكريم صفات. يقول عبيد بن أيوب العنبري (3):

تقول وقد أملت بالإنس لمةً مخضبة الأطراف خرس الخلاخل
أهذا خليل الغول والذئب الذي يهيم بربات الحجال الهراكل (4)
رأت خلق الأدارس أشعث شاحباً على الجذب بساما كريم الشمائل (5)

إن سوء المظهر، أمر ملازم للصعاليك غالباً، نظراً لظروف عيشهم، فالصعلوك قد يكون شاحب اللون، وهذا ناتج عن قلة طعامه وشرابه، ويكون أشعث أغبر رث الثياب، لأنه دائم السفر والتنقل في مجاهل الصحراء ومناهاتها، ليس لديه وقت للاهتمام بمظهره الخارجي، فالأمر أكبر من ذلك، لذلك فمن الطبيعي أن تكون المرأة بطبيعتها، وما فطرت عليه، من حب للجمال وحسن المظهر، نافرة من هذا الأمر، معترضة عليه ساعية إلى تغييره .

والمرأة تحب المال، وتكره الفقر، وهذه الحقيقة أدركها الصعلوك، وصرح بها في شعره لذلك نجده دائب السعي وراء جمع المال، كي يحيا حياة كريمة، يفوز فيها بالمكانة في المجتمع، ويحوز رضى المرأة سواء كانت محبوبة، أو زوجة، فالفتيات يملن إلى الثراء ووفرة المال، لأن فيه عيشاً كريماً، وتحقيقاً للترغبات، وحصناً من عوادي الزمن . فالفقر

(1) السابق : 312.

(2) منتهى الطلب : 83 .

(3) الشعر والشعراء: 669 .

(4) ربات الحجال: النساء - الهراكل : جمع هركلة وهي الشابة الحسنة الجسم والخلق .

(5) الأدراس: الثياب البالية. - الأشعث : مغبر الشعر، الشحوب: اصفرار اللون ، - الشمائل: الصفات

والخصال .

وحش ضار، يجعل صاحبه منبوذاً عند المجتمع، موضع ازدراء عند النساء .
يقول عروة (1) :

دعيني للغنى أسعى فإنني	رأيت الناس شرهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم	وإن أمسى له حسب وخير ⁽²⁾
ويقصيه الندي، وتزدريه	حليلته وينهره الصغير ⁽³⁾
ويلقى ذو الغنى وله جلال	يكاد فؤاد صاحبه يطير ⁽⁴⁾
قليل ذنبه والذنب جـم	ولكن للغنى رب غفور

إن عروة يدرك أن الغنى المادي هو المقياس الحقيقي لقيمة الإنسان، لذلك يطلب من صاحبه أن تتركه لحال سبيله، كي يحصل على المال والثروة ، فالناس تنظر إلى الفقير على أنه شر الناس وأضعفهم وأهونهم عليهم، فلا خير فيه، ويقابل بكل احتقار وازدراء من زوجته، ومن الصغار، أما الغني مهما كان وزنه ينعم بالاحترام والتقدير ، يقبل المجتمع كل خطاياهم ويغفرها له. وإذا كان هذا حال الفقير مع زوجته، التي هي أقرب الناس له، فما بال المحبوبة التي ما زالت حرة، لا يربطها بالرجل رابطة الزواج، وليس بينهما ميثاق غليظ.
يقول قيس بن الحدادية (5) :

وما راعني إلا المنادي ألا اظعنوا	وإلا الرواعي غدوة والقعاقع
فجئت كأني مستضيف وسائل	لأخبرها كل الذي أنا صانع
فقال ترحزح ما بنا كبر حاجة	إليك ولا منا لفقرك راقع

إنها لا تريد أن تربط مصيرها برجل فقير، وما الذي يجبرها على ذلك وهي ما زالت في حيرة من أمرها، وبمستطاعها أن تختار الغني الذي يريحها ويكفيها مشقة العيش وسوء الحال ، وهذا صنف من النساء ،ولكن هناك بعض منهن قد تضحى بهذا الأمر من أجل أن تفوز برجل يتصف بالحلم ، ورجاحة العقل ،وبالرجولة والفروسية ومكارم الأخلاق ،وان كان فقيراً، فالغنى ليس كل شيء في هذه الحياة.

ومن الأشياء التي اشتهرت بها الفتاة أو المحبوبة ، إخلاف الموعد ويرجع ذلك لأسباب منها ، الخوف من الرقيب ، أو الواشي ، أو التمتع والدلال ، حتى لا تظهر بمظهر المبتذلة

(1) الديوان: 79 .

(2) الخير هنا بمعنى الشرف .

(3) تزدريه: تحقره، حليلته : زوجته ، ينهره : يزره ويعامله معاملة سيئة .

(4) جلال: إكرام وإكبار وتعظيم.

(5) الأغاني جزء 14: 149 .

الرخيصة، وهذا أمر لم يكن يروق للمحبين ، الذين طالما اشتكوا من هذا الأمر .
يقول تأبط شرا (1) :

تالله آمن أنثى بعدمما حلفت أسماء بالله من عهد وميثاق (2)
ممزوجة الود بينا واصلت صرمت الأول اللذ مضى، والأخر الباقي (3)
تريك وعد أمانى تغر به كالقطر مر على ضجنان براق (4)

والتمنع صفة من صفات المرأة العربية ، تحرص عليها ، وحرص الشعر الجاهلي
على إظهارها بهذه الصفة، فالشاعر دائما يظهر في مظهر المحب المدله بحبها ، اللاهث
خلفها ، المتمني قريبا ، الباكي المتذلل عندها طمعا في رضاها ، وطلبا في وصلها.
إن المرأة إذا بالغت في دلالتها ، وأمعتت في تمنعها ، قد تجعل المحب العاشق لها
يصرخ صرخات عالية ، ألما وحرقة على فراقها ، يقول قيس بن الحدادية (5) :

وبدلت من جدواك يا أم مالك طوارق هم يحتضرن وساديا
فلا مدركا حظا لدى أم مالك ولا مستريحا في الحياة فقاضيا
وان الذي أملت من أم مالك أشاب قذالي واستهام فؤاديا
شكوت إلى الرحمن بعد مزارها وما حملتني وانقطاع رجائيا
ويقول (6) :

كأن فؤادي بين شقين من عصا حذار وقوع البين والبين واقع

هذه بعض صفات المرأة المعنوية التي ذكرها الشعراء الصعاليك للمرأة المحبوبة ،
وسياتي إن شاء الله في الفصل الثاني من هذا البحث ذكر الصفات المعنوية للزوجة بشكل
أوسع ، وذلك أن الشعراء الصعاليك أعطوا زوجاتهم نصيبا وافرا من شعرهم وبذلك أكون
قد عرضت لبعض ملامح المرأة العربية المعنوية ، التي ذكرها الشعراء ، واسترعت انتباههم
سواء كانت محبوبة أو زوجة ، فتاة أو امرأة .

(1) المنتخب في محاسن أشعار العرب : 283.

(2) تالله آمن : أي لا آمن ، و(لا) تحذف في القسم كثيرا ومنه قوله تعالى : " تالله تفقؤ تذكر يوسف".

(3) ممزوجة الود: غير صافية . - الأول اللذ مضى : يعني وصلها الذي انقطع ، -الأخر الباقي : يعني
هجرها الذي استمر . - اللذ : لغة في الذي .

(4) ضجنان : جبل بناحية مكة على طريق المدينة ، -القطر : السحاب هنا ، - براق : يبرق ولا يمطر فهو
خلب .

(5) الأغاني جزء 14 : 150-151

(6) الأغاني جزء 14 : 149 .

2- الوصف المادي للمحبوبة :

ذكر أفلاطون أن إدراك الجمال يكون على مرحلتين ،المرحلة الأولى مرحلة الحس ،ويصل إليها المعجبون عن طريق النظر و السمع وهؤلاء هم الغالب في كل أمة ،فيعجبون بالأشكال والصور ،والألوان والأصوات ، وكل ما دخلت في تركيبه هذه الأشياء من آثار الفن والمرحلة الثانية مرحلة إدراك كنه الجمال فسامها أفلاطون بمرحلة المعرفة لما فيها من إدراك الحقيقة ، وهي مرحلة لا يصل إليها إلا القادرون على التفكير الحر في الجمال المطلق وهم قليلون ، يدركون هذا النوع من الجمال المتجلي في الأشياء الجميلة ، فيستطيعون إدراكه مجردا عن هذه الأشياء (1).

ونحن إذا رجعنا إلى الشعر الجاهلي وجدنا الشاعر يبدو فيه وهو يحمل في ذهنه عناصر كثيرة للجمال ، هي مجموعة القيم المتوارثة ، والقيم الثقافية له ، أي التي ورثها عن أسلافه على أنها عناصر للجمال ،مضافة إلى ما انتزعه من محيطه، فكان لهذا بقر الوحش والظباء، والرخام والعاج والماء البارد الصافي موطنًا يقتبس منه عناصر الجمال، كما كانت الشمس والقمر وغيرهما موطنًا لذلك أيضا، ونجد الشاعر من ناحية محبوبته يحب واحدة في الغالب، فيسميها باسمها، ويخلص إليها كل الإخلاص (2).

لقد اهتم الشعراء بجسم المرأة ، ووصفوه وصفا دقيقا ، وصوروا مواطن الجمال فيه ؛ كل حسب ذوقه ، وبيئته ، وطبيعة حياته .

لقد أعجب الشعراء بالفتاة العربية الصغيرة ، تلك الفتاة التي لاخبرة لديها في الحياة، فهي التي افتتن بها الشعراء، يقول القتال الكلابي (3):

وإني ليدعوني إلى طاعة الهوى كواعب أتراب مراض قلوبها (4)

فالشاعر يعترف بمدى تأثير الفتيات الصغار الكواعب ، حتى أنه لا يستطيع مقاومة شراكهن التي قلما تخطئ صيدها .

كذلك فإن الشعراء أعجبهم الفتاة البضة الغضة ، الناعمة اللينة ، يقول حاجز الأزدي واصفا أمامه (5):

صباحك و اسلمي عنا أماما تحية وامق وعمي ظلاما

(1) الجمهورية لأفلاطون :149 . عن المرأة في الشعر الجاهلي علي الهاشمي :90 .

(2) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 91 .

(3) شعر القتال الكلابي ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

(4) الكواعب : جمع كاعب وهي الفتاة التي برز نهداها .- أتراب : متساويات في سن واحدة .

(5) الأغاني ، جزء 13 : 212 .

برهرة يحار الطرف فيها كحقة تاجر شدت ختاماً (1)

و المرأة تدرك أن الرجل تستهويه المرأة الشابة ، حسنة الجسم و الخلق ، لذلك فهي تستغرب في شيء من التعالي و التكبر ، أن يهيم بها رجل صعلوك ، أشعث الرأس ، يعيش بعيداً مع الوحوش الضارية . يقول عبيد بن أيوب العنبري (2) :

تقول و قد ألممت بالإس لمة
أهذا خليل الغول والذئب الذي
رأت خلق الأدراس أشعث شاحباً
على الجذب بساماً كريم الشمائل

والهراكل هن الشابات حسنات الجسم و الخلق . كذلك فإن الشعراء أعجبوا بأرداف المرأة الكبيرة ، و ذكروها في شعرهم ، و عدوا ذلك من مفاتن المرأة التي تسترعي الانتباه . يقول تأبط شراً (3) :

و تلك لئن عنيت بها رداح من النسوان منطقتها رخيماً (4)

و يشبه السليك أرداف صاحبتة بكثيب الرمل المتحرك ، الذي درجت عليه الريح ، فأردافها كبيرة ، و ناعمة و لينة ، كبر و نعومة و لين هذا الكثيب . يقول (5) :

كأن مجامع الأرداف منها نقى درجت عليه الريح هارا (6)

أما مشية المرأة ، فشبهوها بمشية الأرخ ، - وهي أنثى البقر التي لم تنتج - التي شربت الماء و ارتوت ، فتقلت مشيتها . يروى أن تأبط شراً أحب جارية من قومه ، فطلبها زماناً لا يقدر عليها ، ثم لقيته ذات ليلة فأجابته ، و أراها فعجز عنها فلما رأت جزعه من ذلك تناومت عليه فأنسته ، و هدأ ثم جعل يقول (7) :

ما لك من سليب الخلعة عجزت عن جارية رفاة (8)

تمشي إليك مشية هركلة كمشية الأرخ تريد العلة (9)

(1) برهرة : بضة غضة ، - الحقة بضم القاف : وعاء من خشب أو من عاج .

(2) الشعر و الشعراء : 669 .

(3) ديوان الصعاليك : 167 .

(4) رداح : كبيرة الردفين .

(5) ديوان الصعاليك : 188 .

(6) النقي و (النقا) : كثيب الرمل المتحرك ، - هار : حرك .

(7) الأغاني : جزء 22 : 148 .

(8) الرقل : الكثير اللحم ، و الطويل ذيل الثياب .

(9) الأرخ : الأنثى من البقر التي لم تنتج ، - العلة : تريد أن تعل بعد النهل ، أي أنها قد رويت ، فمشيتها ثقيلة ، و العلّ : الشرب الثاني .

فالشاعر يستغرب من عجزه عن فتاة كثيرة اللحم، متناقلة في مشيتها، كمشية البقرة الوحشية، التي تسير ببطء تريد أن تشرب من الماء مرة ثانية، و قد أنقلها الشرب الأول .
ويعصور تأبط شراً حسن القوام وبطء المشية بقوله (1) :

فإذا تقوم فصعدة في رملية لبدت بريق الديمة لم تغدق (2)
وإذا تجيء تجيء شحب خلفها كالأيم أصعد في كئيب يرتقي (3)

إنها معتدلة القوام كالقناة المستقيمة، تمشي ببطء كمشية الحية في كئيب الرمل .
إن بطء المرأة وتناقلها في مشيتها، ينتج عن طبيعة جسمها، الغض اللين غير المؤهل للأعمال الشاقة القاسية، فهي خلقت لبيتها وتربية صغارها، ولا تغادر البيت إلا في أوقات قليلة، بعكس الرجل الذي يتحمل الأعباء والمشقات. وربما تكون المشية المتناقلة مقصودة من قبل المرأة، تعبيراً عن الدلال والزهو بالنفس.

أما الجيد وطول العنق فمن مفاتن النساء التي تحدث عنها الشعراء، يقول مالك بن الريب (4):

كأن النار إذ شبت لليلي أضاعت جيد مغزلة نوار

ويشير تأبط شراً إلى طول عنق صاحبه، بقوله (5) :

نياق القرط غراء الثنايا وريداء الشباب ونعم خيم (6)

وتحدث الشعراء عن صفاء الخد، وجماله، وإشراقه يقول القتال الكلابي (7) :

فما إن برحنا السجن حتى بدا لنا جبين كقرن الشمس غير مشنج

وخذ أسيل من فتاة حبيبة ألا فسقاها كل مزن مبعج (8)

(1) ديوان الصعاليك : 151 .

(2) الصعدة : القناة المستقيمة ، - الديمة : الغيمة الماطرة .

(3) الأيم : الحية .

(4) الأغاني : جزء 22 : 308 .

(5) ديوان الصعاليك : 168 .

(6) نياق القرط : طويلة القرط ، كناية عن طول جيدها ، - غراء الثنايا : براءة الثنايا أي الفم و الأسنان ، - ريداء : لينة ناعمة ،

نعم خيم : نعم الطبيعة و السجية .

(7) منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك : 650 .

(8) أسيل : تقول خيد أسيل؛ طال و استوى و صار أملكاً . - مزن مبعج : أي سحاب ممطر .

و يقول (1):

يضيء سناها وجه ليلي كأنما يضيء سناها وجه أدماء مغزل (2)

ومن مفاتن المرأة التي أحبها الشعراء ، بياض البشرة ، و خصوصاً و أن اللون الغالب على المرأة العربية في الجزيرة ، هو اللون الأسمر مما جعل الشعراء يمدحون البشرة البيضاء للمرأة ، كذلك أحبوا الشعر الأسود المسترسل ، يقول بكر بن النطاح في مزج بديع بين بياض محبوبته و سواد شعرها(3):

بيضاء تسحب من قيام فرعها و تغيب فيه و هو وحف أسحم (4)

فكأنها فيه نهار ساطع و كأنه ليل عليها مظلم

إن هذه الحبيبة ببيضاء صافية نقية طويلة الشعر، فإذا قامت جرتة ، و إذا أرسلته سترها ، فتغيب فيه ، و هو مع طوله و كثرة أصوله كثير السواد شديد الظلمة فكأنها فيه لشدة بياضها نهار ساطع من خلال ظلام، و كأن ذلك الشعر لشدة سواده عليها ليل مظلم يغطي بياض النهار. وقد يكون الشعر الناعم الطويل سلاحاً ، تؤثر به المرأة على الآخرين ، يقول مالك بن الربيب (5):

و تصطاد القلوب على مطاها بلا جعد القرون و لا قصار

أما جمال الفم و الأسنان فقد أكثر الشعراء الصعاليك من التغني بهما و وصفهما ، يقول قيس بن الحدادية (6):

فما نطفة بالطود أو بضريفة بقية سيل أحرزتها الوقائع (7)

يطيف بها حران صاد و لا يرى إليها سبيلا غير أن سيطال (8)

بأطيب من فيها إذا جئت طارقاً من الليل و اخضلت عليك المضاجع (9)

(1) السابق : 644 .

(2) سناها : ضوءها ، الأدماء من النساء : من كان في لونها سمرة .

(3) الحماسة : لأبي تمام : 64 .

(4) الفرع : شعر الرأس ، - الوحف : الكثير الأسود ، - الأسحم : المظلم .

(5) الأغاني : جزء 22 : 308 .

(6) الأغاني : جزء 14 : 148 .

(7) النطفة : الماء الصافي قل أو كثر ، و الجمع نطاف ، - و الطود : الجبل ، - وضريفة : بئر .

(8) أطاف به : ألمّ به و قاربه . - حران صاد : عطشان . - طالعه : أطلع عليه أي أشرف .

(9) الطارق : الآتي ليلاً . - اخضلت : نديت .

إن فيها أطيّب من الماء البارد عند الظمئان الذي لا يجد الماء و لا يقدر عليه ، و يقول مالك بن حريم (1):

كأن جنا الكافور والمسك خالصاً
و برد النداء و الأقحوان المنزعا (2)
وقلتاً قرت فيه السحابة ماءها
بأنيابها و الفارسيّ المشعشعا (3)

فالشاعر يرى أن الرضابة فيها أطيّب من ماء السحابة البارد ، و أطيّب من خمور فارس كذلك فإنه يشبّه أسنانها بالأقحوانة ، و هو تصوير شائع عند العرب .

ومن الذين شبهوا أسنان المرأة بالأقحوي لشدة بياضها
مالك بن الريب إذ يقول (4):

و تبسم عن نقي اللون عذب
كما شيف الأقاحي بالقطار (5)
وشبهها القتال الكلابي بالبرد حيث يقول (6):

كأن الشفاه الحو منهن حملت
ذرى برد ينهل عنها غروبها
و يصف تأبط شراً بريق أسنان محبوبته و نصاعة لونها قائلاً (7):

نياق القرط غراء التنايا
و ريداء الشباب و نعم خيم
ويقول حاجز الأسدي و اصفاً عذوبة ثغر محبوبته قائلاً (8):

منازل عذبة الأنياب خود
فما إن مثلها في الناس نيم

و لم ينس الشعراء و هم يتحدّثون عن مفاتن المرأة ، و مواطن الجمال فيها أن يتحدّثوا عن طيبها ، حيث أن الطيب أمر مهم عند النساء العربيات، يقول عبيد بن أيوب (9):

أقاتلتي بطالة عامريّة
بأردانها مسك ذكي و عنبر

(1) الأصمعيّات : 63 .

(2) الجنى : كل ما يجنى ، - الأقحوان : نبت له نور أبيض ، - المنزوع : المنزوع .

(3) القلت : النقرة في الجبل تمسك الماء ، - قرت : جمعت ، - الفارسي : المنسوب إلى فارس ، أراد به الشراب ، و هو الخمر ، المشعشع : الممزوج بالماء .

(4) الأغاني : جزء 22 : 308 .

(5) شيف: زين ، - القطار : المطر .

(6) شعر القتال الكلابي : موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

(7) ديوان الصعاليك : 168 .

(8) منتهى الطلب من أشعار العرب ، ابن المبارك : 2083

(9) السابق : 606 .

ومن الأشياء المؤثرة عند النساء ، رخامة الصوت و لين الحديث ، و هذا أمر محبب عند الرجال ، يؤثر فيهم تأثير السحر ، يقول تأبط شراً⁽¹⁾:

و تلك لئن عنيت بها رداح من النسوان منطلقها رخيـم
فالشاعر يمتدح محبوبته برخامة صوتها ويصور صخر الغي الهذلي شدة تأثير صوت
محبوبته و مقالتها بقوله⁽²⁾:

والله لو أسمعت مقالتهـا شيخاً من الزب رأسه لبد
مآبه الروم أو تنوخ أو الـ آطام من صوران أو زبد
لفاتح البيع يوم رؤيتهـا و كان قبل انبياعه لكـد

هذه بعض ملامح المرأة المادية التي تعرض لها الصعاليك في شعرهم و استرعت انتباههم ، حيث تحدثوا عن جمال الوجه ، و طول الجيد ، و حسن القوام ، و رخامة الصوت ، و بطء الحركة ، و كبر الأرداف ، و حلاوة الشعر ، و بريق الأسنان.... إلخ .
و سيأتي إن شاء الله حديث آخر عن ملامح المرأة المعنوية و المادية في الفصل الثاني ، عند الحديث عن و صف الزوجة معنوياً و مادياً . و بذلك تكتمل الصورة و تنضح وتعم الفائدة إن شاء الله .

(1) ديوان الصعاليك : 167 .

(2) ديوان الهذليين : 254 - 255 .

رابعاً: وفاء المحبوبة:

إن وفاء الزوجة لزوجها في حياته أو بعد موته ليس أمراً مستغرباً عند العرب ، بل أمراً عادياً تتفاوت فيه النساء ، بحسب النشأة و التربية و الأخلاق و ظروف العيش ...، بل قد تكون الزوجة وفية لزوجها حتى بعد طلاقها منه ، و مفارقتها إياه ، و هذا ما فعلته سلمى الكنانية مع زوجها عروة بن الورد حين فادأها و فضلت أهلها لأسباب قاهرة خارجة عن إرادتها ، سأذكرها فيما بعد . فقد جعلها و فاؤها لزوجها تقول فيه كلاماً صادقاً ، يدل على أصالة المرأة العربية ، و حسن أدبها و أخلاقها ، حيث أقبلت عليه و قالت : " يا عروة أما إني أقول فيك ، و إن فارقتك الحق ، و الله ما أعلم امرأة من العرب ألفت سترها على بعلٍ خيرٍ منك ، و أغض طرفاً و أقل فحشاً و أجود يداً و أحمى للحقيقة "(1).

إن هذا القول من امرأة مفارقة لزوجها يعد أمراً جميلاً ، و لكن الأمر الأجمل هو أن نجد أسمى درجات الوفاء عند المحبوبة ، حيث تظل المحبوبة وفية لمحبوبها تخاف عليه ، و تحفظ عهده، في حياته ، فإن مات بكته بكاءً عالياً ، و رثته رثاءً خالداً .

وسأتناول في موضوع وفاء المحبوبة نموذجاً فريداً، من نماذج الوفاء الخالدة في أدبنا العربي، بطلته شاعرة عربية معروفة أحببت صلوكاً من صعاليك العرب، أما الشاعرة فهي ليلى الأخيلية، وأما الشاعر الصلوك فهو توبة بن الحمير، فقد جمعها حب خالد يعد من نماذج الحب الفريدة في شعرنا العربي رغم أنها كانت متزوجة غيره، وهو متزوج غيرها .

لقد كانت ليلى تخشى أن يمس توبة أي سوء في حياته ، و ذلك أنها علمت أن قومها يترصدونه ، يريدون أن يوقعوا به ، فجلست في طريقه سافرة عن وجهها ، فلما جاء و رآها عرف أن في الأمر شيئاً ، فعاد أدراجه ناجياً بنفسه و قال في ذلك :

و كنت إذا ما جئت ليلى تيرقعت فقد رابني منها الغداة سفورها(2)

أي شيء يجعل المرأة العربية تتخلى عن نقابها ، و تكشف عن وجهها ؟ ، إنه أمر جلل ؛ ألا و هو خوفها عليه ، و حبها له .

أما وفاؤها له ، فقد تجلى بكل معاني الإخلاص و الحب بعد وفاته ، و هذا أسمى درجات الوفاء ، الوفاء لمن مات و فارق الدنيا ، و انقطع وصله ، حيث بكته بكاءً مرأً ، و رثته

(1) ديوان عروة : 62 (الحاشية) .

(2) الأغاني : جزء 11 : 198 .

رثاءً صادقاً ، فخلدت ذكره ، و نعتته بما لم تتعت به أحداً من أبناء عصره ، و جعلته حديث العامة و الخاصة.

سأل معاوية بن أبي سفيان ليلي الأخيلية عن توبة بن الحمير فقال : ويحك يا ليلي !
أكما يقول الناس كان توبة ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ليس كل ما يقول الناس حقاً ، و الناس شجرة بغي يحسدون أهل النعم حيث كانوا و على من كانت . و لقد كان يا أمير المؤمنين سبط البنان ، حديد اللسان ، شجا للأقران ، كريم المخبر ، عفيف المنزر جميل المنظر ، و هو يا أمير المؤمنين كما قلت له ، قال : و ما قلت له ؟ قالت : قلت و لم أتعد الحق و علمي فيه (1) :

ألد ملد يغلب الحق باطله(2)

ليمنعهم مما تخاف نواز له

يخافونه حتى تموت خصائله(3)

فقال لها معاوية : ويحك ! يزعم الناس أنه كان عاهراً خارباً .

فقال من ساعتها (4) :

جواداً على العلات جمًا نوافله(5)

تحلب كفاه الندى و أنامله(6)

جميلاً محياه قليلاً غوائله

على الضيف و الجيران أنك قاتله

إذا ما لنيم القلب ضاقت منازلـه

ويضحى بخير ضيفه و منازلـه

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قعره

إذا حل ركب في داره و ظلـه

حماهم بنصل السيف من كل فادح

معاذ إلهي كان و الله سيـداً

أغرّ خفاجيا يرى البخل سبـة

عفيفاً بعيد الهم صلبا قناتـه

وقد علم الجوع الذي بات سارياً

وأنك رحب الباع ياتوبُ بالقـرى

يبيت قرير العين من بات جارـه

(1) الأغاني ، جزء 11 : 222 .

(2) الألد : الكثير الجدل و الخصومة الشحيح الذي لا يزيغ إلى الحق - و ملد : وصف من ألدت بفلان إذا عسرت عليه في الخصومة .

(3) (الفادح هنا : الخطب من خطوب الدهر . - الخصائل : جمع خصيلة و هي كل لحمة فيها عصب ، و الظاهر أنها كنت بموت خصائل الفادح عن سكونه و ذهابه .

(4) الأغاني ، جزء 11 : 223 .

(5) على العلات : أي على كل حال من عسره و يسره .

(6) خفاجي : منسوب إلى خفاجة و هو من آباء توبة .

فقال لها معاوية : ويحك يا ليلى ! لقد جرت بتوبة قدره . فقالت : و الله يا أمير المؤمنين لو رأيتَه و خبرته لعرفت أنني مقصرة في نعته ، و أنني لا أبلغ كُنَّة ما هو أهله . فقال لها معاوية : من أي الرجال كان ؟ قالت (1):

أنته المنايا حين تم تمامه وأقصر عنه كل قرن يطاوله
وكان كليث الغاب يحمي عرينه وترضى له أشباله و حلاله
غضوب حليم حين يطلب حلمه وسم زعاف لا تصاب مقاتله (2)

فأمر لها معاوية بجائزة عظيمة . و قال لها : خبريني بأجود ما قلت فيه من الشعر . قالت : يا أمير المؤمنين ، ما قلت فيه شيئاً إلا و الذي فيه من خصال الخير أكثر منه ، و لقد أجدت حين قلت (3) :

جزى الله خيراً و الجزاء بكفـــــــــــــــــه فتى من عقيل ساد غير مكلف
فتى كانت الدنيا تهون بأسرهما عليه و لا ينفك جم التصرف
ينال عليات الأمور بهونــــــــــــــــة إذا هي أعيت كل خرق مشرف (4)
هو الذوب بل أري الخلايا شبيههــــــــــــــــه بدرياقة من حمر بيسان قرقف (5)
فيا توب ما في العيش خير و لاندى يعد و قد أمسيت في ترب نفنف (6)
وما نلت منك النصف حتى ارتمت بك ال منايا بسهم صائب الوقع أعجف (6)
فيا ألف ألف كنت حيا مسلمــــــــــــــــا لألقاتك مثل القسور المتطرف (7)
كما كنت إذ كنت المنحى من الــــــــــــــــردى إذا الخيل جالت بالقتنا المتقصف (8)
وكم من لهيف محجر قد أجبتهــــــــــــــــه بأبيض قطاع الضريبة مرهف (9)

(1) الأغاني ، جزء 11 : 223 .

(2) السم الزعاف (و قيل الذعاف بالذال) : القاتل لساعته .

(3) الأغاني ، جزء 11 : 224 .

(4) الهونة : الرفق و السهولة . و أعياه الشيء : أعجزه . - الخرق (بالكسر) : السخي ، أو الفتى الحسن الكريم الخليفة .

(5) الذوب : العسل - الأري : العسل أيضا - الشوب : الخلط و المزج - الدرياقة : الخمر - بيسان : بلدة بالشام كانت مشهورة بالخمر - القرقف : أحمر يرعد صاحبها النفنف : المفازة

(6) النصف هنا : اعطاء الحق ، مثل الإنصاف ، و النصف و النصفة - السهم الأعجف : الرقيق .

(7) القسور : الأسد - المتطرف : المغير .

(8) القنا المتقصف : المتكسر - و جولان الخيل : كناية عن الحرب .

(9) المحجر : المضيق عليه .

فأنفذته و الموت يحرق نابسه عليه و لم يطعن و لم يتنسف (1)

ودخلت ليلى على الحجاج، فقال لها : يا ليلى ، أنشدينا بعض شعرك في توبة، فأنشدته قولها (2):

لعمرك ما بالموت عار على الفتى
وما أحدٌ حيٍّ و إن عاش سالماً
فلا الحي مما أحدث الدهر معتب
وكل جديد أو شباب إلى بلى
قتيل بني عوف فيا لهفتا له
و لكنني أخشى عليه قتيلاً
إذا لم تصبه في الحياة المعابر
بأخذ ممن غيبته المقابر
و لا الميت إن لم يصبر الحي ناشر
و كل امرئ يوماً إلى الموت صائر
و ما كنت إياهم عليه أحاذر
لها بدروب الشأم باد و حاضر

وفي رواية أخرى أنها أنشدته قولها (3):

فإن تكن القتلى بواء فإنكم
فتى كان أحيا من فتاة حيية
أنته المنايا دون درع حصينة
فنعم الفتى إن كان توبة فاجرا
كان فتى الفتيان توبة لم ينخ
فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر (4)
وأشجع من ليث بخفان خادر
وأسمر خطي و جرداء ضامر
وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر
قلانص يفحصن الحصا بالكرامر

فقال لها أسماء بن خارجة : أيتها المرأة إنك لتصفين هذا الرجل بشيء ما تعرفه العرب فيه . فقالت : أيها الرجل هل رأيت توبة قط ؟ قال لا . فقالت : أما والله لو رأيت لوددت أن كل عاتق (5) في بيتك حاملٌ منه ؛ فكأنما فقىء في وجه أسماء حبُّ الرمان . فقال له الحجاج : و ما كان لك و لها! (6).

لقد وصل الأمر بليلى أن فضلتها على الخلفاء، مما أغضبهم عليها، يروى أن عبد الملك بن مروان دخل على زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فرأى عندها امرأة بدوية أنكرها، فقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا الوالهة الحرى ليلى الأخيلية . قال : أنت التي تقولين :

(1) حرق الأنياب : حكها بعضها ببعض ، و هو كناية عن الغضب - و تنسف في الصراع : قبض بيده

على خصمه ثم عرض له رجله فعثره

(2) الأغاني ، جزء 11 : 226 - 227 .

(3) السابق : 228 .

(4) باء فلان بدم فلان : قتله به ، و دم فلان بواء لدم فلان إذا كان كفاً به .

(5) العاتق : الشابة .

(6) الأغاني ، جزء 11 : 228 .

أريقت جفان بن الخليع فأصبحت
حياض الندى زالت بهنّ المراتب (1)
فعفاته لهفى يطوفون حولـه
كما انقضّ عرش البئر و الورد عاصب (2)
قالت أنا التي أقول ذلك . قال : فما أبقيت لنا ؟ قالت الذي أبقاه الله لك . قال : و
ماذاك ؟ قالت : نسباً قرشياً ، و عيشاً رضيعاً ، و امرأة مطاعة . قال : أفردته بالكرم ! قالت :
أفردته بما أفرده الله به . فقالت عاتكة : إنها قد جاءت تستعين بنا عليك في عين تسقيها (3)
وتحميها لها . و لست ليزيد إن شفعتها في شيء من حاجاتها ، لتقدمها أعرابياً جلفاً على
أمير المؤمنين . فوثبت ليلي فقامت على رجلها و اندفعت تقول (4) :

سحمتني و رحلي ذات وخذ	عليها بنت آباء كـرام (5)
إذا جعلت سواد الشام جنباً	و غلق دونها باب اللئام
فليس بعائد أبداً إليهم	ذوو الحاجات في غلس الظلام
أعاتك لو رأيت غداة بنّاء	عزاء النفس عنكم و اعترامي
إذا لعلت و استيقنت أني	مشيعة و لم ترعى ذمامي
أجعل مثل توبة في نـداه	أبا الذبان فوه الدهر دامي (6)
معاذ الله ما عسفت برحلي	تغذ السير للبلد التهامي (7)

و أقبل الحجاج على ليلي يوماً فقال لها : بالله يا ليلي أرأيت من توبة أمراً تكرهينه ،
أو سألك شيئاً يُعاب ؟ قالت لا والله الذي أسأله المغفرة ما كان ذلك منه قط . فقال : إذا لم
يكن فيرحمنا الله و إياه (8) .

لقد مثلت ليلي نموذجاً رائعاً للمحبة الوفية ، التي أحبت فأخلصت في الحب ،
المحبة الحرّى الوالهة التي فجعت بموت حبيبها ، فرثته رثاءً صادقاً مفعماً بالحزن ، و
اللوعة و الأسى ، و وصفته بكريم الصفات ، مما جعله حديث الركبان و مجالس السمر .

(1) تريد أنه قد مات فأريقت جفانه و مات الندى بموته . و الخليع من آباء توبة .
(2) العفاة : طالبو المعروف - اللهف (بالتحريك) : الحزن و التحسّر ، و الوصف منه لهف ككتف
ولهيف ولهفان الورد : الماء المورود - عاصب : جامع ، ويحتمل أن يكون عاصب هنا شديداً ، على أن
يكون الورد العطش .
(3) تسقيها : تجعلها لها سقياً .
(4) السابق : 230 - 231 .
(5) الوخذ : ضرب من السير .
(6) أبو الذبان : كنية عبد الملك بن مروان لشدة بخره و موت الذباب إذا دنا من فيه .
(7) عسفت : سارت و خبطت .
(8) الأغاني : جزء 11 ، 234 .

إن طول الزمن ، لم ينس ليلي توبة ، حيث ظلت وفية له حتى وفاتها ، حيث يروى أن ليلي الأخيلية أقبلت من سفر ، فمرت بقبر توبة و معها زوجها و هي في هودج لها . فقالت : و الله لا أبرح حتى أسلم على توبة ، فجعل زوجها يمنعها من ذلك ، و تأبى إلا أن تلم به . فلما كثر ذلك منها تركها . فصعدت أكمة عليها قبر توبة ، فقالت : السلام عليك يا توبة ، ثم حولت وجهها إلى القوم فقالت : ما عرفت له كذبة قط قبل هذا . قالوا : وكيف ؟ قالت : أليس القائل :

و لو أن ليلي الأخيلية سلّمت
عليّ و دوني تربة و صفائح
لسلّمت تسليم البشاشة أوزقا
إليها صدى من جانب القبر صائح
و أعبط من ليلي بما لا أناله
ألا كل ما قرّت به العين صالح

فما باله لم يسلم علي كما قال : وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة، فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت و طارت في وجه الجمل، فنفر فرمى بليلى على رأسها، فماتت من وقتها، فدُفنت إلى جنبه يقول صاحب الأغاني وهذا هو الصحيح من خبر وفاتها (1) .

نماذج من رثاء ليلي لتوبة :

لعل المواقف السابقة توضح مدى وفاء ليلي لتوبة ، و حبها له ، و إخلاصها في هذا الحب و لعل ما قالته ليلي من شعر في رثائه ، يعد نموذجاً فريداً ، حيث بكته بكاء الوالدة الحرّى ، و هذه بعض النماذج من رثائها لتوبة . تقول (2) :

نظرت و دوني من عماية منكب
وبطن الركاء أي نظرة ناظر(3)
إلى الخيل أجلى شأوها عن عقيرة
لعاقرها فيها عقيرة عاقر(4)
فآنست خيلا بالرقمي مغيرة
سوابقها مثل القطا المتواتر(5)
لا بصر جيشا من فوارس غاوروا
فلم تقصر الأخبار و الطرف قاصري(6)
فإن تكن القتلى بسواء فإنكم
فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر(7)

(1) الأغاني : جزء 11 : 229 - 230 .

(2) المنتخب من أشعار العرب - جزء 2 : 287 - 289 .

(3) عماية : جبل بنجد ، و سمي عمايه لأنه لا يدخل فيه شيء إلا عمي ذكره و أثره ، بطن الركاء : واد بنجد .

(4) شأوها : سرعتها و جريها ، العقيرة : تعني توبة - أي أن من عقر مثل توبة فقد عقر عقيرة لها شأن .

(5) الرقي : موضع معروف بديار بني عقيل . - المتواتر : الذي يأتي بعضه في أثر بعض .

(6) غاور القوم : أغار عليهم .

(7) باء فلان بدم فلان : عدله ، و باء بفلان قتله له .

ستلقون يوماً ورده غير صادر ⁽¹⁾	وإلا يباؤه السليل فإنكم
وآب بأسلاب الكمي المغاور ⁽²⁾	فإن يك عبد الله آسي ابن أمه
سباعا و قد ألقينه في الجراجر ⁽³⁾	وظل كذات البو تضرب حوله
لقاء المنايا دارعاً مثل حاسر ⁽⁴⁾	فلا يبعدنك الله يا توب إنما
وأسمر خطي و كبداء ضامر ⁽⁵⁾	أنته المنايا دون زغف حصينة
تصادرن عن صافي الحديد باتر ⁽⁶⁾	توارده أسيافهم و كأنما
دم زل عن بادٍ من الأثر دائر ⁽⁷⁾	من الهند وانيات في كل قطعة
ونعم الفتى إن كان ليس بفاجر	فنعم الفتى إن كان توبة فاجر
وأجرأ من ليث بخفان خادر ⁽⁸⁾	فتى هو أحي من فتاة حيية
وللطارق الساري قرى غير قاتر ⁽⁹⁾	فتى كان للمولى سناء و رفعة
لقدر عيالاً غير جارٍ مجاور	فتى لا تخطاه الرفاق ولا يرى
قلانس يفحصن الحصا بالكرامر ⁽¹⁰⁾	كأن فتى الفتيان توبة لم ينخ
صريف خطاطيف الصرى في المحاور ⁽¹¹⁾	جنوحاً بمومة كأن صريفها
كرام ، و يرحل قبلهم في الهواجر ⁽¹²⁾	ولم بين أبراداً دقاقاً لفتية

- (1) يباؤى : يساوي ، السليل : هو السليل بن ثور قتله توبة و كان شريراً نظير توبة في القوة و البأس .
- (2) عبد الله : أخو توبة ، و كان قاتل مع توبة حتى قتل توبة ، - الكمي : الشجاع ، -المغاور : أصحاب الغارات .
- (3) ذات البو : الناقة، و البو : جلد الحوار يحشى قشا، و يقرب من الناقة لتدر عليه، -الجراجر : الحلوق .
- (4) الدارع : اللابس السلاح ، و الحاسر ضده .
- (5) الزغف : اللينة من الدروع ، - الأسمر الخطي : الرمح ينسب على الخط ، - الكبداء : العظيمة الوسط ، و في الديوان خمصاء ، و هي التي غارت عيناها من الجهد .
- (6) توارده : أي تداولته سيوفهم واحداً بعد الآخر .
- (7) سيف مهند ، و هندواني ، و هندي : صنع في الهند و أحكم عمله ، - أثر السيف : رونقه و فرنده .
- (8) خفان : مأسدة قرب الكوفة - الخادر : مقيم في خدره . أي أجمته .
- (9) المولى : ابن العم و الجار و الحليف ، - الطارق : الذي يأتي ليلاً ، - الساري : الذي يسير بالليل ، - القرى : ما يقدم للضيف من طعام ، - القاتر : المضيق على من حوله .
- (10) القلائص : جمع قلوص ، و هي الناقة الشابة القوية ، - الكراكر : جمع كركرة و هي رحي زور البعير أو صدره . مدحته بالسير في الهواجر وذلك أن الإبل إذا أنيخت في الهاجرة فحصت بكركرتها الأرض تطلب برد الثرى .
- (11) الموماه : الفلاة لا ماء فيها . الصريف : الصوت . - الخطاف : حديدة حبناء في جانبي البكرة يكون فيها المحور . الصرى : الماء المجتمع .
- (12) أبراداً رقاقاً : أي أخبية تقي حر الشمس .

وللحرب يرمي نارها بالشرائر
وللخيل تعدو بالكماة المساعر⁽¹⁾
بغاز و لا غاد بركب مسافر⁽²⁾
دعاك ، و لم يقنع سواك بناصر
وسائق أو معبوظة لم يغادر⁽³⁾
لسان و مجذام السرى غير فاتر⁽⁴⁾
على الهول منها ، و الحتوف الحواضر
لتوبة في نحس الشتاء الصنابر⁽⁵⁾
تقته الخفاف بالثقال البهارز⁽⁶⁾
مشاش مصايح السباط المشافر⁽⁷⁾
على مثله أخرى الليالي الغوابر⁽⁸⁾
بنا أجهليها بين عاو وشاعر⁽⁹⁾
لعا لأخينا عالياً غير عاثر⁽¹⁰⁾

ولم يدع يوماً للندی حين ببتغي
وللبازل الكوماء يرغو حوارها
فليس شهاب الحرب يا توبة بعدها
و كنت إذا مولاك خاف ظلاماً
وقد كان قبل الحادثات إذا انتحى
وقد كان موهوب السنان و بين الـ
وداع على مكروهة قد أجبتـه
ولا تأخذ الكوم السمان سلاحها
إذا ما رأته مقبلاً بسلاحه
قرى ضيفه شحم السنام و سيفه
فتى ليس تبني بيتها أم عاصم
طوت نفعها عنا كلاب و أوسدت
و قد كان حقاً أن تقول سراتهم

- (1) البازل : البعير استكمل الثامنة و طعن في التاسعة ، و ذلك زمن قوته و استحكامه ، يستوي فيه المذكر و المؤنث ، الكوماء : عظيمة السنام ، الحوار : ولداناقة ، - الكماة : جمع كمي الذي لا يدري كيف يؤتى . - المساعر : جمع مسعر وهو من يشعل الحرب ويقودها .
- (2) تقول : لا يقود الخيل بعك احد مثلك . شهاب الحرب : رجلها و مسعرها ، شبهته بالنجم المنقض .
- (3) الوسائق : الطرائد من الإبل ، تقول : كأن ابن عمك إذا طردت طريدة لم تبطئ عليه ، و لم تتخلف ، - المعبوظة : المنحورة بغير علة .
- (4) مجذام السرى : رجل مجذام و مجذامة : قاطع للأمر فيصل ، و رجل مجذامة للحرب و السير .
- (5) يقال : أخذت الإبل سلاحها و رماحها إذا سمتت فيبخل صاحبها بنحرها ، فكان سمنها سلاحها يقبها النحر ، - و النحس : الرياح الباردة ، - الصنابر : البرد .
- (6) تقاه و انقاه بمعنى واحد ، - البهارز : العظام الضخام ، و المفرد بهرزة .
- (7) قرى ضيفه : قدم القرى و هو الطعام الذي يقدم للضيف ، قدم له لحم السنام ، كما قرى السيف المشاش ، و هو رؤوس العظام ، مثل الركبتين و المرفقين . و المفرد : مشاشة . و المصايح : جمع مصباح و مصبح : و هو من الإبل التي تصبح في مبركها لا ترعى حتى يرتفع النهار ، و هو مما يستحب من الإبل ، و ذلك لقوتها و سمنها ، - السباط المشافر : الطويلة المشفر ، و المشفر للبعير كالشفة للإنسان .
- (8) أم عاصم : امرأة توبة ، على أنها لا تعرف كليهما مذلة أبداً .
- (9) أوسدت : دعت و أغرت ، تستعمل للكلب في الصيد ، إذا أغريته به .
- (10) لعا : دعاء للعائر معناه انتعش .

و قالت ترثيه (1):

يا توب للضيف إذ تدعى وللجار
و بدلوا الأمر نقضاً بعد إمرار
أو يوردوا الأمر تحلله بإصدار

كم هاتف بك من باك و باكيئة
و توب للخصم إن جاروا و إن عدلوا
إن يصدروا الأمر تطلعه موارده
و قالت ترثيه (2):

له نبأ نجدية سيغور
له يوم هضب الردهتين نصير (3)

هراقت بنو عوف دماً غير واحد
تداعت له أفناء عوف و لم يكن
و قالت ترثيه (4):

و ابكي لتوبة عند الروع و البهم (5)
ماذا أجنّ به في الحفرة الرجـم
مثل السنان و أمر غير مقتصم
و جفنة عند نحس الكوكب الشبم (6)

يا عين بكّي بدمع دائم السجم
على فتى من بني سعد فجعت به
من كل صافية صرف و قافية
ومصدر حين يعيي القوم مصدرهم

(1) الأغاني : جزء 11 : ص 220 .

(2) السابق : 220 .

(3) أفناء الناس : أخلطهم و هم النزاع من هاهنا و هاهنا .

(4) السابق : 220 .

(5) السجم : ظاهر أنها تريد دائم القطران، فحركت الجيم للشعر، أما السجم بالتحريك فهو الماء و الدمع .

البهم هنا : مشكلات الأمور و احدثها بهمة (بالضم) .

(6) الشبم : البارد . و نحس الكوكب الشبم كناية عن الشتاء .

أولاً : مكانة الزوجة في الشعر الجاهلي

حظيت الزوجة في الشعر الجاهلي بمكانة بارزة، ربما تلي مكانة المرأة المحبوبة حيث أن الشعر الجاهلي رسم لها صورة واضحة متكاملة، أظهر فيها بجلاء صورة المرأة العربية الزوجة، شريكاً أساسياً للرجل في الحياة، تشاركه همومه وأحزانه، كما تشاركه أفراحه، وتقف بجانبه في العسر واليسر، يجلس إليها فيفضي لها بما يختلج في صدره، ويشغل باله، ويكدر صفو حياته، فيجد قلباً، حانياً، وأذناً واعية، يقول فتصغي له، ويأمر فيطاع، ويطلب فيلبى طلبه، بنفس راضية مطمئنة، كذلك نجد الزوج يستمع لأرائها بعناية، ويتقبل هذه الآراء في كثير من الأحيان، فكثيراً ما يصور لنا الشاعر لومها له، وخوفها عليه، وحرصها على حياته، وماله وعياله، وتبرمها من طيشه ولهوه، بينما يحاول هو أن يحاورها ويحاول إقناعها بشيء من الهدوء، والعطف والحنان والود، الذي يدل دلالة واضحة على عقلية العربي الذي ظل على الدوام يحترم المرأة، ويعرف لها قدرها، ويحافظ على شعورها.

لكن ربما نجده يغلظ عليها إذا ما تجاوزت الحد في اللوم أو تدخلت في بعض شؤونه.

إن رقي مكانة المرأة الزوجة في الجاهلية جعلت الكثير من الشعراء يفتتحون قصائدهم بذكرها، يتوددون إليها، ويحاولون استرضاءها، ويتغنون بوصفها في حلها وترحالها، فهذا زهير بن أبي سلمى يبدأ معلقته بذكر " أم أوفي " ويسهب في وصف آثارها ورحلتها (1).

وإذا كان الشعر العربي يزخر بالشعر الذي أبدع أصحابه في وصف المحبوبة وصفاً معنوياً وحسياً، حتى أنهم لم يتركوا شيئاً يخصها إلا وصفوه، فإن الشاعر العربي أيضاً لا يجد حرجاً أيضاً في وصف الزوجة وصفاً حسياً وخصوصاً في أوقات المعارك، يقول عمرو بن كلثوم (2):

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

(1) انظر المعلقة في شعر زهير بن أبي سلمى .للأعلم الشنتمري ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ص 9

وما بعدها .

(2) شرح القصائد المشهورات ، ابن النحاس ، ج2 : 122- 126 .

إذا مارحن يمشين الهوينا كما اضطربت متون الشاربينا
يقتن جياننا ويقتن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

فالمرأة تحتاج إلى الرعاية، والمحافظة، ولا يتأتى ذلك إلا بالتضحية من أجلها بكل غالي ونفيس، فيجب على الرجل الجود بنفسه رخيصة في ساحات الوعى من أجل زوجته، يقول الأعشى واصفاً نساء العرب وزوجاتهم في معركة " ذي قار " التي انتصر فيها العرب على الفرس:

لما أتونا كأن الليل يقدمهم مطبق الأرض يغشاها بهم سدْفُ (1)
وُظَعْنَا خَلْفَنَا كُحْلًا مَدَامِعُهَا أكبادها وُجِفَ مما ترى تجفُ (2)
حواسِرٍ عن خدود عاينتُ عبْرًا ولأحها وعلها غُبرَةٌ كُسُفُ (3)
من كل مرجانة في البحر أخرجها غَوَّاصُهَا وَوَقَّاهَا طَيْتُهَا الصَدْفُ (4)

وقد نجد الشاعر العربي يصفها وصفاً معنوياً بديعاً، يصور فيه حياء الزوجة وعفتها، وكرمها، وحسن علاقتها بجيرانها، يقول الشنفرى (5):

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت
تحل بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالمذمة حلت
كأن لها في الأرض نسياً تقصه على أمها وإن تحدثك تبلت
أميمه لا يخزي نثاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت
إذا هو أمسى أب قرّة عينه مآب السعيد لم يسئل أين ظلت

وكانت المرأة إذا خالفت زوجها في الرأي، إنما تعمل على أداء واجبها الاجتماعي في تقويم ما اعوج منه، ولفت نظره إلي ما يجب أن يعنى به، وفي أداء الزوجة لهذا الواجب دليل على مقدار الحرية الواسعة التي كانت المرأة تتمتع بها في الجاهلية (6).

(1) السدفة: الظلمة .

(2) الطعينة: الزوجة، المدامع: جمع مدمع وهي العين، تجف: تخفق .

(3) كُسُفُ: جمع كاسف وهو المهموم .

(4) الديوان: 347 . شرح محمد محمد حسين . المكتب الشرقي للنشر . بيروت _ لبنان .

(5) المفضليات: 109، ديوان الصعاليك: 16 .

* الشنفرى شاعر جاهلي صعلوك من بني الحرث بن ربيعة، من الأزدي، والشنفرى لقبه هو ابن أخت تأبط شراً، ضرب به المثل في العدو، والمكر والدهاء، له ديوان شعر مطبوع ومن أشهر شعره (لامية العرب) .

(6) المرأة في الشعر الجاهلي . علي الهاشمي: 144 .

وقد نجد العربي في كثير من شعره، يستمتع لرأيها، ويحاورها حواراً هادئاً، محاولاً إقناعها بوجهة نظره، يقول حاتم الطائي مصوراً لومها له علي بذل ماله (1).

وعاذلة هبّت بليل تلومني
وقد غاب عيوقُ الثريا فعردا (2)
تلوم علي إعطائي المال خلةً
إذا ضن بالمال البخيلُ وصرّداً
تقول ألا أمسك عليك فإنني
أرى المال عند الممسكين معبداً (3)
ذريني وحالي إن مالك وافر
وكل أمرىء جار على ما تعودا

إنه يحاورها حواراً هادئاً، بسعة صدر، وطول بال، محاولاً إقناعها على أن تكف عن لومه بحدّة فيقول (4):

أعاذل لا آلوك إلا خليقتي
فلا تجعلي فوقى لساتك مبرداً
ذريني يكن مالي لعرضي جنّة
يقي المال عرضي، قبل أن يتبدد (5)
أريني جواداً مات هزلاً لعنني
أرى ما ترين، أو بخيلاً مخلداً
وإلا فكفي بعض لومك واجعلي
إلى رأي من تلحين رأيك مستداً (6)

كذلك نجده يحاورها حواراً رزيناً، ينم عن شخصية متزنة، تعرف للمرأة قدرها، ويقدر حرصها علي ماله ونفسه وعياله (7).

وهذه الصورة للمرأة نجدها واضحة في شعر الصعاليك، الذي يزخر بالحوارات بين الزوج وزوجته ، وهذا ما سيتم تفصيل القول فيه لاحقاً.

والزوجة تحب أن يظل زوجها مستقيماً، يحافظ على علاقته السليمة بها دون إسفاف، أو عكوف على الهوى والخمر، والانغماس في المذات، والملهيات، لما فيه من اعوجاج للخلق، وبعد عن الفضيلة، يقول الأعمش (8):

ذريني لك الويلات آتي الغوانيا
متى كنت زراعاً أسوق السوانيا

ولكن المرأة إذا ما تمادت في لوم زوجها، وخرجت عن الحدود التي رسمها لها، وتدخلت فيما لا يعنيها، فحينها قد تجد العربي قاسياً عليها، شديداً يُعنفها ويغلظ القول لها،

(1) الديوان : 74 .

(2) عيوق الثريا : هو النجم الذي يتلو الثريا ولا يتقدمها . عرد : مال للمغيب .

(3) المال المعبد : المال المعبود .

(4) الديوان : 74 .

(5) جنّة : وقاية .

(6) تلمين : تلومين .

(7) انظر الديوان ص 78,83,104 .

(8) الديوان : 365 .

يقول عنتره لامرأة له من بُجيلة لا تزال تذكر خيله وتلومه علي جواد كان يؤثره، ويطعمه ألبان إبله (1):

لا تذكرني مهري وما أطعمته
إن الغبوق له وأنت مسوءة
كذب العتيق وماء شنّ بارد
إن الرجال لهم إليك وسيلة
ويكون مركبك القعود ورحله
ويكون جلك مثل جلد الأجرب
فتأوهي ما شئت ثم تحوبي (2)
إن كنت سائلتي غبوقاً فذهبي (3)
إن يأخذوك تكحلي وتخضبي
وابن النعامة يومئذ مركبي

والعربي كان دائم الغيرة علي زوجته، محباً لها، يسعى لحمايتها، ويحاول إبعادها عن عيون الآخرين، يقول الأعشى واصفاً غيرة أحد الأزواج علي زوجته (4):

لها ملك كان يخشي القراف
إذا نزل الحي حل الجحي
يقول لعبديه حثا النجاء
فليس بمرع على صاحب
وليس بمانعها بابها
فبان بحسنا براقه
إذا خالط الظن منه الضميرا (5)
ش شقياً غوياً مبيناً غيوراً (6)
وغضا من الطرف عنا وسيرا (7)
وليس بمانعه أن تحورا (8)
ولا مستطيع بها أن يطيرا
على أن في الطرف منها فتورا

كذلك فإن الزوج في الجاهلية، يري أن من الرجولة أن يحافظ علي امرأته، ويقوم سلوكها، ولا يرضي منها إلا بالطاعة والموافقة، وحفظ الأمانة الزوجية ويرى أن الرجل الذي لا يكون كذلك فهو والنساء سواء ، بل نجد العربي أحياناً يلجأ إلي ضرب زوجته، وهذا كله ما أجمله الشنفرى في قوله (9):

إذا أصبحت بين جبال قو
وبيضان القرى لم تحذريني (10)

(1) الديوان : 108 .

(2) الغبوق : شراب العشي . ، التحوب : التوجع .

(3) العتيق : التمر . ، الشن : القرية الخلق الصغيرة .

(4) الديوان : 129 _ 130 .

(5) القراف : المخالطه .

(6) الجحيش : المكان المنعزل البعيد .

(7) النجاء: السير السريع .

(8) المرع : اسم فاعل من أرعى ، مثل أبقى _ مبق .

(9) ديوان الصعاليك : 54 .

(10) القو : موضع بين البصرة والكوفة كان ينزله المسافرون . - بيضان : جبل لبني سليم بالحجاز .

سأخلى للظعينة ما أرادت
إذا ما جئت ما أنهاك عنه
ولست بحارس لك كل حين⁽¹⁾
ولم أنكر عليك فطلقيني
بسوطك لا أبالك فاضربيني
فأنت البعل يومئذ فقومي

والمرأة بطبيعتها تميل إلى الشباب في الزوج، وتبغض الشيخوخة والهرم، فهي تحب أن تري زوجها شاباً علي الدوام، وهذا ما نجده في شعر كثير من الشعراء الجاهليين يقول عبدة بن الطبيب⁽²⁾:

فإن تسألوني بالنساء فإنني
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله
بصير بأدواء النساء طبيبُ
فليس له من ودهن نصيب
وشرخ الشباب عندهن عجيب
يردن ثراء المال حيث علمنه

فالمرأة تحب الزوج الشاب الغني كثير المال، وهذا ما تمنته بنت ذي الإصبع العدواني حين قالت⁽³⁾:

ألا ليت زوجي من أناس ذوي غنى
طبيب بأدواء النساء كأئمه
حديث الشباب طيبُ الريح والعطرِ
خليفة جان لا ينام على وتر

ومهما يكن فإن الرجال كانوا شديدي التعلق بأزواجهم يقدرسونهن، ويعشقونهن وكان رباط الزواج المقدس كبير القيمة في نظرهم، لهذا كان تعرضه للتصدع أو لأي لون من ألوان الكدر أمراً تستعظمه نفوسهم الكبيرة⁽⁴⁾.

فألزوجة كانت حبيبة وزوجة، وأم عيال، وشريكة حياة، تقول فيسمع لقولها، وتشير فينظر في رأيها، وتحاور زوجها بحرية، فيحاورها حواراً هادئاً فيه من الود والمحبة ما فيه، وهذا ينم عن مكانة مرموقة، احتلتها الزوجة في العصر الجاهلي، كركن أساسي في بناء نسيجه الاجتماعي.

(1) الظعينة : الزوجة المسافرة في الهودج .

(2) الشعر والشعراء ، الجزء الأول : 146 .

(3) المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي : 168 .

(4) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 146 _ 147 .

ثانياً : حضور الزوجة في شعر الصعاليك

ظلت الزوجة حاضرة حضوراً بارزاً في شعر الصعاليك، حضوراً فاق حضور المحبوبة في شعر كثير منهم، وهذا ينم عن مكانة عالية تبوأتها الزوجة عند زوجها، فالصعلوك يرى في الزوجة كائناً، يستحق التقدير والاحترام، تشاركه أفراحه، وأحزانه، وتحمل معه أعباء الحياة، وتقف معه وإلى جانبه في السراء والضراء، إن الزوجة بالنسبة له تمثل الحاضر والواقع الذي يعيشه، الواقع الذي يحب العمل من أجله، والسعي من أجل توفير الحياة الكريمة له، إن الزوجة في شعر الصعاليك هي تلك المرأة المحبة لزوجها، والحريصة على حياته ونفسه وماله.

وقد اتخذ الحديث مع الزوجة في هذه الأحاديث الاستهلاكية أشكالاً متعددة، فكان يخاطبها بلهجة مفعمة بالود والتحبب، وبألقاب متنوعة، فيها تكريم وإشعار بالعزيزية (0) والزوجة في شعر الصعاليك غيرها في شعر الأمراء وأبناء البيوتات، وهي تختلف في شعر شاعر منهم عنها في شعر شاعر آخر، فعروة بن الورد مثلاً وهو أحد الصعاليك كان عطوفاً، محباً لزوجته، وهذا يظهر جلياً في مخاطبته لها ، في كثير من شعره، لذلك نجد حاضرة على الدوام في حوارات هادئة، تتم عن علاقة ود وحب تربطهما، وكذلك نجد أن النساء ما كانت ترغب في تأبط شراً لمغلاته في الخشونة في حياته، كذلك كان الشنفرى خشناً في معاملته مع زوجته، وكان قيس بن الحداية محباً لزوجته مثل عروة، وهي تحبه وتخشى عليه الأخطار⁽¹⁾.

إن شعر الصعاليك يصور لنا المرأة الزوجة على أنها تلك المرأة المحبة لزوجها والمتوددة له، التي تحمل همه، وتخاف عليه، فتلومه حيناً، وتزجره حيناً، وتبكي عنده ومن أجله حيناً آخر، كما يظهر شعرهم صبرهم على نساءهم في رفق ولين وومحبة وتقدير، فشعر عروة، والشنفرى، وتأبط، وعمر بن بواق، وقيس بن الحداية، وأبي خراش، وعبد بن الطبيب والسليك وغيرهم، يزخر بالحوارات الهادئة مع الزوجة مما يدل على حضورها البارز في شعرهم .

(1) أنظر المرأة في الشعر الجاهلي، على الهاشمي : 141 - 142 .

ثالثاً : صفات الزوجة

1 - الصفات المعنوية :

إذا كان الشعر الجاهلي الغزلي منصباً علي الحبيبة، فإن الزوجة في شعر الصعاليك تمثل في كثير من الأحيان المحبوبة التي يشترق لها زوجها، ولا يجد حرجاً في ذكرها والتودد إليها، بشوق وحرقة، ولعل الحياة القاسية التي كان يحيها الصعاليك و التي فرضت عليهم العيش بعيداً في مجاهل الصحراء، حيث السفر الطويل، والغزو المتكرر، والغربة عن الأهل، كل هذا جعل الصعلوك دائماً يتوق إلي الحياة المستقرة الهانئة في حضان بيت دافئ، وزوجة عطوفة .

إن هذه الزوجة كانت كثيراً ما تلفت نظر الشاعر الصعلوك بصفات المعنوية، التي يحبها العرب عادة في نسائهم، بل هي الصفات التي يسعد المرأة ويشرفها أن توصف بها، يقول الشنفرى في زوجته، واصفاً إياها وصفاً روحياً سامياً⁽¹⁾:

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها	إذا ما مشت ولا بذات تلفت
تببت بعيد النوم تهدي غبوقها	لجارتها إذا ما الهدية قللت ⁽²⁾
تحل بمنجاة من اللوم بيبتها	إذا ما بيوت بالمزمة حلت ⁽³⁾
كأن لها في الأرض نسياً تقصه	على أمها وإن تكلمك تبلت ⁽⁴⁾

إن زوجه الشنفرى كما يروي هو امرأة كريمة، عفيفة، بعيدة عن الريبة، شديدة الحياء، وقناعها لا يسقط عنها لشدة حياها، كما أنها لا تكثر التلفت، لأن هذا الفعل من أفعال الريبة، وهي امرأة كريمة، تهدي لجارتها الشراب في وقت يعم فيه الجذب، ويقل فيه الطعام، وإذا مشت تمشي بحياء، كالذي يبحث عن شيء فقده، فلا تكاد ترفع رأسها، إن هذه الصفات الخلقية من أفضل الصفات التي تحرص المرأة العربية على أن توصف بها، ويحرص الزوج على وجودها في زوجته.

كذلك فهي زوجة أمينة تحفظ سر زوجها، ولا تفشيها، ولا تذكر زوجها أمام الناس إلا بما يجب، عفيفة تقرأ في بيتها ولا تغادره، يقول⁽⁵⁾:

(1) المفضليات : 109 .

(2) الغبوق : ما يشرب بالعشي .

(3) المنجاة : مفعلة من النجوة وهي الارتفاع .

(4) النسى : الشيء المفقود، - تقصه : تتبعه، - أمها : قصدها .

(5) المفضليات : 109 .

أميمة لا يُخزي نثاها حليها
إذا دُكرَ النسوانُ عفتُ وجمتُ (1)
إذا هو أمسي أب قرّة عينه
مآب السعيد لم يسئل أين ظلت (2)

قال الأصمعي " هذه الأبيات أحسن ما قيل في حق النساء وعفتن " (3).

إن الصعلوك كثير التنقل، يطيل البعد عن بيته وزوجته، لذلك نجده يعجب بهذه الصفات في المرأة، لأنه أحوج الناس لزوجة، وفيّة، تصون نفسها، وتقرّ في بيتها، وتحافظ على شرفه، فلا تهتك له سراً، ولا تعص له أمراً ولا تقشي لها سراً، وبذلك نجده ينطلق في رحلة البحث عن الرزق هادئ البال، مطمئناً إلى أن خلفه زوجة عسوية على الأهواء، جمعت كل الصفات الحسنة، في مجتمع تنكر له، فلا عهد ولا ذمة ولا وفاء مجتمع لا يعرف إلا الغدر، والخديعة، يتربص به في كل وقت وكل حين فلا يشعر فيه بالطمأنينة، والراحة النفسية التي يطمع إليها، لذلك فهو يجدها متجسدة في زوجته، فيجد فيها الصدر الحنون الذي يفنقه، والوفاء الذي يتمناه، والصلة التي قطعت، والراحة والدعة التي يفنقدها، إنه الحزن الدافئ الذي يجد فيه مالا يجده في مجتمعه.

لذلك نجد العرب يحرصون على الزواج من الشريفة العفيفة، التي نشأت منشأً حسناً، حيث أنها ستصبح مسئولة عن بيتها وزوجها وأبنائها، فصلاح لأبنائها، وهذا ما يشير إليه عبيد بن أيوب العنبري حين يقول (4):

وأولُ خُبثِ الماءِ خُبثُ تُرابِهِ
وأولُ خُبثِ النَّجْلِ خُبثُ الحلائلِ

فالمراة الخبيثة السيئة، تثمر ثمرة خبيثة، وهو مالا يرغب فيه العرب في الجاهلية وأيده الدين الجديد حين قال ﷺ " إياكم وخضراء الدمن " قيل وما خضراء الدمن ؟ قال " المرأة الحسناء في المنبت السوء " .

أن زوجة الصعلوك تحب زوجها، تخاف عليه من مخاطر الصعلكة، التي لا حدود لها، وتظل قلقة من المجهول الذي ينتظره، فلا تطمئن ويهنأ بالها إلا إذا وجدته بجانبها، قريباً منها، وفي هذا تجد سعادتها، يقول عروة (5):

تقول: سليمي لو أقمت لسرنا!
ولم تدر أنني للمقام أطوفُ

(1) النثا : حديث المرأة عن زوجها حسن أو سيء ، - حليل : زوج .

(2) أب : رجع .

(3) المضليات : 109 (هامش الصفحة) .

(4) الحيوان للجاحظ ، جزء 5 : 138 تحقيق عبد السلام هارون الطبعة الثانية مطبعة الحلبي القاهرة -

مصر 1966م .

(5) الديوان : 87 .

إن حب الزوجة لزوجها، يجعلها تحاول استمالة قلبه، واستعطافه عن طريق البكاء، من أجل أن يدع الغزو، ويبقى بجانبها، لأنها لا تطيق فراقه ولا تقدر على العيش بدونه، يقول عروة⁽¹⁾:

تقول: ألا أقصر من الغزو واشتكى
سأغنيك عن رجوع الملام بمزْمع
لها القول، طرف أحور العين داعم
من الأمر لا يعيشو عليه المطاوع⁽²⁾

لعل أبرز ما يميز هذين البيتين ظاهرة الحزن المتبدية في عيني زوج الصعلوك، حيث استطاع، بما أوتي من ملاحظة دقيقة، أن يتفهم لغتهما، ويكشف أسرارهما، لأنهما مرآة النفس، وينعكس فيها ما تستنبطه النفس من مشاعر وأحاسيس، لذلك راح يديم النظر في عينيها، وما تحتبسهما من دموع أفرزتها مشاعر الحب والخوف والحزن، والرجاء، فهناك أشياء يعجز لسان المرأة عن البوح بها إلى شريكها، لأنها تبقى عصية على أن تتشكل أو تتكون في كلمات، وعلى الشريك أن يفهم وحده ما يدور في خلدتها من مطالب ورغبات، وعروة - ذلك الصعلوك الفارس - يُحسُّ بزوجته، ويعلم ما ينتابها من مشاعر القلق والخوف، بل يستجيب لظلال الحزن المرتسمة في عينيها، ولكنها استجابة تتحقق وفق أسلوبه في الحياة، فالحزن في عيني الحبيبة بقدر ما يثير الشفقة، ويوقد مشاعر الحب، ويضفي على عينيها جمالاً مشوباً باللطف والسكينة والوداعة، يكون دافعاً للصعلوك، ومحرضاً له على تأمين الحياة الحرّة الكريمة لحبيبتة، ولكي يؤمن لها الحياة التي تليق بها، بعيداً عن الفقر والذل والهوان، لابد من أن يتابع غزواته، ويستمر في غاراته، ويواجه الموت كل لحظة، لكي ينتزع منه أسباب الحياة التي ينشدها مع عائلته.

فالحزن في العيون، ليس له تأثير سلبي على الصعلوك، فهو لا يهزمه ولا يضعفه، ولا يقف حائلاً بينه وبين عزيمة - علماً بأنه أشد وقعاً علي المرء من اللغة المحكية - بل على العكس من ذلك تتجلي ايجابيته في كونه عاملاً فاعلاً، ومحركاً يدفع مسيرة الصعلوك إلي المثابرة من غير تردد أو تريث، حتى يحقق المجد لأسرته ومجتمعه الجديد.

وأشار عروة في موضع آخر لجمال زوجته بشكل عام فقال:

فراشي فراشُ الضيفِ والبيتُ بيتهُ
أحدثه إن الحديث من القرى
ولم يلهنِي عنه غزالُ مقنَعُ
وتعلمُ نفسي أنه سوف يهجعُ⁽³⁾

(1) الديوان : 82 .

(2) مزْمع : من أزمع الأمر أي قرره ، وأثبت عليه وأصرّ، واطهر فيه حزمًا . - يعيشو عليه : يقصده .

- المطاوع : الموافق .

(3) الديوان : 83 .

فقد اختصر في هاتين الكلمتين (غزال مقنع) ما يمكن أن يقوله في المرأة الجميلة وتجدر الإشارة إلي أن عروة في تشبيه زوجته بالغزال. قد كشف عن مدي اهتمامه بالصفات المعنوية للزوجه، بالإضافة إلي جمالها الخارجي، فالغزال يمثل الرقة واللطافة إلي جانب البراءة والوداعة والأمان، هذه الصفات التي يفتقدها الصعلوك في محيطه.

فصورة الغزال هنا لم تأت عفو خاطر، وإنما اختارها عمداً لما تحمله من دلالات ورموز، فالغزال يرمز للسلم لأنه " محمي بمقتضي العقيدة الدينية لما له من قداسة، أو لما فيه من قوى سحرية على سواء " (1) وحياة الصعلوك تفتقر إلي السلام _ في معظم الأحيان _ وهو أحوج ما يكون إلي ذلك الوجه البريء المسالم الجميل، كي يخفف عنه الكثير من المعاناة، ويمنحه الثقة بالغد، والأمل في الوصول إلي غايته التي يبتغيها.

ويرمز الغزال إلي الأمومة وما فيها من مشاعر الدفء والحب والحنان، حيث ينظر الصعلوك في محيطه وإلي ما حوله، فلا يجد هذه المعاني متجسدة إلا في زوجته . إن نظرة من عينيها تبعث فيه الدفء وترد الروح إلي نفسه المتعبة حتى تستعيد قواها وتصبح أكثر قدرة علي التصدي والمواجهة.

فما يفتقر إلي الصعلوك في محيطه، يجده متجسداً في ملامح حبيبته، وهو مع ذلك يؤثر ضيفه على نفسه، ويضحى بتلك الأوقات السعيدة التي يعيشها مع زوجته، حتى يقوم بواجبه تجاه ضيفه، ويقدم له ما يسد حاجته.

إن الصعلوك يهمله كثيراً أن تعرف زوجته فضائله وأخلاقه، لأنه يهمله رضاؤها، لأن رضا النساء عن أزواجهن. كان يوقد في نفوسهم الحزم، وهم جعلوا من أزواجهم مرايا تزيهم صور نفوسهم، وموازين تظهر لهم قيم فضائلهم، وكان رضاؤها أكبر سلوة يلجأون إليها، في الشدائد (2).

لذلك يصور لنا عروة زوجته في صورة المرأة العالمة بصفات زوجها، وأخلاقه فهي تحسن التعامل معه، فيقول مفتخراً (1):

وقد علمت سليمي أن رأيي	ورأي البخل مختلف شتيت
وأنني لا يريني البخل رأي	سواء إن عطشت وإن رويت
وأنني حين تشتجر العوالي	حوالي اللبّ ذو رأي زميت (3)

(1) الصورة في الشعر العربي : 68 .

(2) المرأة في الشعر الجاهلي : علي الهاشمي : 144 .

(1) الديوان : 50 .

(3) تشتجر العوالي : هو اختلاط بعضها ببعض في الحرب _ حوالي : بالتشديد المخفف. يقال للمحتال من الرجال إنه حوالي _ الزميت : الجليل الوقور .

وأكفي ما علمتُ، بفضل علم وأسأل ذا البيان إذا عميت
ويهم الشاعر الصعلوك، أن تعرف المرأة نسبه وقومه وأنه ليس من سوقة القوم أو
أراذل الناس، بل هو رجل أصيل النسب عريق الأصل، يقول حاجز بن عوف الأزدي* (1):
قومي سلامان إما كنت سائلاً وفي قريش كريم الحلف والحسب
إني متى أَدعُ مخزوماً تري عُناقاً لا يرعشون لضرب القوم من كُثب (2)
يدعى المغيرة في أولى عديدهم أولاد مرأساً ليسوا من الذنب (3)
إن الصعلوك يظل دائماً، يرنو إلي الحياة المستقرة في جماعة تحميه في وقت الشدة،
ينتمي إليها، وتنتمي إليه، يحن إلي الحياة الأسرية المستقرة، التي يسودها الأمن والأمان،
وهو أشد ما يفتقر إليه الصعلوك، في حياة يسودها التشرد والضياع، والبعد عن الأهل
والوطن بعيداً في مجاهل الصحراء . لذلك نجدة يفخر أمام الزوجة بأهله وقومه ونسبه، لأنه
يعلم علم اليقين أن المرأة تنزع دائماً إلي الحياة المستقرة، ولا تقوى علي حياة التشرد
والضياع.

إن الزوجة كغيرها من النساء تحب المال، وتفضل الرجل الغني، فالزوج إن لم يكن
غنياً، كان موضع ازدراء من الزوجة، الزوجة التي تحب المال والثروة، الثروة التي
تستهويها، فالفقير لا خير فيه عند المرأة، فهو يقابل بكل احتقار وازدراء عندها وعند
صغارها أما الغني مهما كان وزنه ينعم بالاحترام والتقدير، وتقبل خطاياها، ويغفر له
يقول عروة(4):

دعيني للغني أسعى، فإني	رأيت الناس شرهم الفقيرُ
وأبعدهم وأهـونهم عليهم	وإن أمسي له حسب وخيرُ
ويقصيه الندى ، وتزدرية	حليلته ، وينهره الصغيرُ
ويلقى ذو الغنى وله جلالُ	يكاد فؤادُ صاحبه يطيرُ
قليل ذنبه والذنبُ جـمُّ	ولكن للغنى ربُّ غفورُ

* شاعر جاهلي مقل ، ليس من مشهوري الشعراء ، وهو أحد الصعاليك المغيرين غلي قبائل العرب ،
وممن كان يعدو على رجليه عدواً يسبق به الخيل .

(1) الأغاني :جزء:13 : 211 .

(2) العنق :الجماعة الكثيرة من الناس .

(3) مرأسة : رأسة .

(4) الديوان : 79 .

إن عروة يطلب من زوجه أن تتركه لحال سبيله، كي يحصل على المال والثروة، فالناس تنظر إلى الفقير على أنه شر الناس، فهو يقابل بكل ازدراء واحتقار من زوجته، ومن الصغار، وأما الغني، مهما كان وزنه ينعم بالاحترام والتقدير.

وفي أبيات أخرى يبدو الفقر وحشاً ينشب أنيابه في نفس عروة، ويتضح من هذه الأبيات أثر المرأة المباشر في تمرد الجاهلي على واقعه، فالمرأة بطبيعتها، تحب المال، وتفضل الرجل الغني، ولا يعجبها تقاعس الزوج عن السعي في طلب الرزق، ويسوؤها بقاؤه مع العيال، لذلك فهي تواجهه بالحقيقة المرّة فإلّا قد خوى، وجفا الأقارب، والرجل أمسى منكساً، والقعود مع العيال قبيح.

إن الفقر مذله وفضوح، لهذا يجب عليه أن يخاطر بنفسه كي يصيب غنيمة ومالاً فالمال فيه مهابة وتجلة، والفقر شر لا يمكن احتمالها، والغنى خير عسير مناله، والنتيجة الحقيقية هي الخروج عن الجادة، والمخاطرة، وطلب الغنيمة، بنفس نائرة تشعر بظلم الواقع عليها، حيث الفقر من جانب، وجفاء الأقارب، وامتعاض الزوجة وتبرمها، وعدم رضاها بفقره، وهنا لا بد من التمرد على الواقع والخروج إلى البحث عن الرزق بشتى الطرق، والمخاطرة بالنفس من أجل ذلك حيث تكون المخاطرة بالنفس أمراً محتوماً أمام قسوة الواقع المعاش، وربما كانت ضرورات الحياة واقتناص العيش سداً للحاجة، ودرءاً لخطر الموت جوعاً وراء خروج كثير من الشعراء الصعاليك للسلب والنهب، يقول عروة⁽¹⁾:

قالت تماضر إذ رأت مالي خوى	وجفا الأقارب فالفؤاد قريح ⁽²⁾
مالي رأيتك في الندي منسكاً	وصباً، كأنك في الندي نطيح ⁽³⁾
خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة،	إن القعود مع العيال قبيح
المال فيه مهابة وتجلة؛	والفقر فيه مذلة وفضوح

إن حب الزوجة للمال يجعلها حريصة عليه، تخشى من تذييره وضياعه، لذا نجدها تطلب من زوجها الاقتصاد في الإنفاق، وقد يصل بها الأمر إلى البخل أحياناً، كما يصور لنا ذلك تأبط شراً حين يقول^{(4)*}:

(1) الديوان : 54 .

(2) خوى : فزع .

(3) الوصب : المريض - النطيح ، من نطحه الثور بقرنه : أصابه به ، ونطحه فلان : دفعه عنه وأزاله .

* هو ثابت بن جابر ، شاعر جاهلي، من صعاليك العرب المغيرين، وأحد ثلاثة لا يدركهم الطلب ،

عاصر الشنفرى ، وعمرو بن براق

(4) المفصليات : 30 .

تقول أهلكت ملاً لو قنعت به من ثوب صدقٍ ومن بزٍ وأعلاق⁽¹⁾
عاندتي إن بعض النوم معنفة وهل متاعٌ وإن أبقيتُهُ بـاقٍ

لعل حب المرأة الزوجة للمال، نابعٌ من خوفها المستمر من المجهول الذي ينتظرها ويف مستقبليها، حيث أن الفقر وضياع المال مدعاة للخروج المستمر، والتعرض للخطر الدائم الذي يؤول بالمرء إلى الموت أو الوقوع في الأسر، وهذا ما تخشاه المرأة دائماً. إن المرأة هي المرأة في كل زمان ومكان تستهويها، نضارة الشباب، لما فيها من فتوة وقوة، وانطلاق نحو الحياة بكل حيوية ونشاط، لذلك ليس عجباً أن نجدها تعرض عن الرجل إذا ما وخطة الشيب، فهذا قيس بن الحداية يدرك هذه الحقيقة كما أدركها غيره حيث يقول⁽²⁾:

هل الأدم كالأرام والنهر كالدمي معاودتي أيامهن الصوالح
زمان سلاحي بينهن شبيبتي لها سائف في سيبهن ورائح
فأقسمن لا يسقينني قطر مزنة لشببي ولو سالت بهن الأباطح

إن هؤلاء النسوة ضنن عليه بالوصل، لا لشيء إلا لأنه قد شاب رأسه، وهو ما لا ترغب فيه النساء.

والزوجة تميل إلى الشباب في الزوج، وتفضل الشاب، على الشيخ الكبير، لذلك ظل الشيب نذير شؤم عليهم، حيث أنه إيدان بنهاية مرحلة اللهو والتصابي والشباب، وبداية عهد جديد، إن الصعلوك كغيره من أبناء عصره، كان يؤرقه هذا الأمر، حيث أنه كان يدرك حقيقة حب النساء للشباب في الرجل وعزوفهن عن الشيوخ الكبار، لذلك نجدهم يبررون هذا الشيب بمبررات علها تجد إلى قلوبهن سبيلاً، يقول عروة⁽³⁾:

وما شاب رأسي من سنين تتابعت طوال، ولكن شيبته الوقائع

إن عروة يريد أن يسلك طريقاً آخر إلى قلب زوجته ألا وهو طريق الفروسية والبطولة وخوض الأحداث الجسم، فيقول لها إن ما بي من شيب ليس من طول عمر، ولكن بسبب كثرة المعارك التي خضتها، وجابهت أهوالها، واكتويت بحرّ نارها. وقد نجد سبباً للشيب عند قيس بن الحداية* غير الذي عند عروة، فقيس لم يكن

(1) ثوب صدق : عنى بها الجيد ، البز :

(2) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الزمخشري، 321 القاهرة 1292 هـ .

(3) الديوان : 82 .

* هو قيس بن منقذ بن عمرو، شاعر من شعراء الجاهلية، وكان فاتكاً، شجاعاً صعلوكاً خليعاً، خلعتة خزاعة لسوق عكاظ، وأخذت على نفسها بخلعها إياه، فلا تحتمل جريته له، ولا تطالب بجريته يجرها أحد عليه .

شبيهه بسبب خوض المعارك، ولكنه بسبب حب محبوبته التي أحبها، وهام بها حتى أنه ليتمنى الموت ولا يسمع برحيلها. فهو أيضاً شاب بسبب حبها ولم يشب بسبب طول عمره يقول⁽¹⁾:

وإن الذي أمّلت من أم مالك أشاب قذالي واستهام فؤاديا (2)
فليت المنايا صبحتني غديّة بذبح ولم أسمع لبين مناديا

إن الشيب نذير مقلق للصلوك كما يراه مالك بن حريم حيث يقول⁽³⁾:

جَزَعْتَ ولم تجزَع من الشَّيبِ مَجْزَعًا وَقَدَّ فَاتَ رَبِيعِي الشَّبَابِ فَوَدَّعًا
وِلاَحَ بِياضٍ في سِوَادٍ كَأَنَّهُ صُورًا بَجُورٍ كَانَ جَدْبًا فَأَمْرَعًا(4)

إن هذه الحقيقة التي أدركها الصلوك جعلته يعزف هو الآخر، عن طلب ودٍّ من لا يرغب في ودّه، والسعي وراء من أدار له ظهره، بل يدرك حقيقة تتكشف له يوماً بعد يوم، أن التصابي واللهو مع الناس قد أضحى لا يتناسب مع سنه وعمره.

لذلك فهو يشغل نفسه بوصف ناقته التي يبدع في وصفها، ويتحدث عن خوض الصحراء التي طالما تنقل في مجاهلها، وألف وحوشها، وربما يكون الصلوك يهدف من وراء هذا أن يقول أنه ما زال قوياً، قادراً على تحمل أعباء الحياة بكل ما فيها، وربما لأنه يجد في ناقته وارتحاله في الصحراء على ظهرها، ذهاباً لهمه وأجزائه، يقول عبدة بن الطبيب*⁽⁵⁾:

وللأحبة أيامٌ تذكرها وللنوى قبل يوم البين تأويل
إن التي ضربت بيتاً مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول
فعد عنها ولا تشغلك عن عمل إن الصبابة بعد الشيب تضليل
بجسرة كعلاة القين دوسرة فيها على الأين إرقال وتبغيل (6)
عنس تشير بقنوان إذا زجرت من خصبة بقيت فيها شمائل (7)

(1) الأغاني : جزء 14 : 151 .

(2) الفذال : جماع مؤخر الرأس، - استهام فؤاده : أذهب

(3) الأصمعيات : 62 .

(4) صوار : القطيع من البقر ، - الجورّ : ما انخفض من الأرض . أمرع : أخصب وأكلأ .

* هو عبدة بن الطبيب ، شاعر صلوك مجيد أسود اللون مخضرم ، أدرك الإسلام فأسلم ، شهد مع المثنى بن حارثة قتال هرمز سنه 13هـ ، وله في ذلك آثار مشهورة .

(5) المفصليات : 136 .

(6) الجسرة : الناقة الصلبة ، علاة الأين : سندان الحداد، الدوسرة : الصلبة الضخمة .

(7) العنس : الناقة القوية .

قرواء مقذوفة بالنخض يشغفها فرط المراح إذا كل المراسيل (1)

إن عبدة بن الطبيب يرى أن السعي في طلب المودة، بعد أن شاب رأسه فيه شيء من الضلالة، وهو لم يتوصل إلى هذه الحقيقة المؤلمة إلا بعد تجربة طويلة مع زوجته التي رحلت عنه وتركته، لذلك فهو لا يريد أن يقف عند هذا الأمر، ولكنه ينطلق بقوة نحو الحياة الرحبة الواسعة، التي يريد أن يثبت أنه ما زال قادراً على تحمل أعباءها، والمخاطرة في خوض أهوالها، لذلك ينطلق في ذكر ناقته.

وهذا قيس بن الحدادية يجد سلواه وذهاب همومه في ركوب ناقته، متناسياً ذكرها، محاولاً التناسي حيث يرى أن من الجهالة أن يبقى الإنسان مشغولاً بالنساء وقد كبر وخطه الشيب فيقول (2):

قد شَفَّهَ ذَكَرَ سَلْمَى الْيَوْمَ فَانْتَكَسَا	إِنَّ الْفَوَادَ قَدْ أَمْسَى هَائِماً كَلْفَاً
بَعْدَ السُّلُوِّ فَأَمْسَى الْقَلْبُ مُخْتَلَسَا	عِنَاهُ مَا عَنَاهُ مِنْ تَدَكُّرِهَا
وَبَاتَ عَنْهُ الصَّبَا وَالْجَهْلُ فَانْمَلَسَا	وَبَعْدَمَا لَاحَ شَيْبٌ فِي مَفَارِقِهِ
بِهَا الدِّيَارُ فَأَمْسَى الْقَلْبُ مُتَبَسَا	تَذَكَّرَ الْوَصْلَ مِنْهَا بَعْدَمَا شَحَطَتْ
وَأَشَدُّ بِرَحْلِكَ مَذْعَانَ السَّرَى سُدْسَا	فَعَدَّ عَنْكَ هُمُومَ النَّفْسِ إِذْ طَرَقَتْ
إِذَا الضَّعِيفُ وَنَى فِي السَّيْرِ أَوْ رَجَسَا	عَيْرَ أَنَّهُ عَنْتَرِيْسَا ذَاتُ مُعْجَمَةٍ
وَمَهْمُهُ مَا بِهِ حَبَسَ لِمَنْ حَبَسَا	تَجْتَابُ كُلَّ مَطَا نَاءٍ مَسَافَتُهُ
أَشْبَاهُ بَيْضِ مَلَاءٍ لَمْ تُصَبِّ دَنَسَا	إِذَا تَرَدَّى السَّرَابُ الْقَوْرُ فَالْتَمَعَتْ

والمرأة كما تحب الشباب في الرجل، فهي أيضاً تحب فيه النضارة والحيوية والجمال، وحسن المظهر، لذلك نرى الصعلوك يحاول أن يعتذر لها عن سوء مظهره، مبرراً ذلك بكثرة غاراته على الأعداء، واتباعه للسرايا، وأن الحياة ليست كلها لهواً، وإنما هي قسمان يوم يلهو فيه مع الحسان حسن المظهر طيب الريح، ويوم يخوض فيه المعارك، فهذا تأبط شراً يرد على أم مالك التي استنكرت مظهره حين رآته أشعث أغبر، وقد كان يوماً من الأيام براق المفارق، مشرق الجبين، سهل المخالقة فيقول (3):

تقول أراك اليوم أشعث أغبراً (4)	ألا عجبَ الفتیان من أم مالك
رأيتك براق المفارق أيسراً (5)	تبوعاً لآثار السريّة بعدما

(1) القرواء : طويلة الظهر، النخض : اللحم، يشغفها : ينزع فؤادها ويستخفها .

(2) قيس بن الحدادية، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

(3) الأغاني جزء 21 : 186 . ديوان الصعاليك : 131 - 132 .

(4) أشعث : متلبد الشعر .

(5) السريّة : جماعة من المقاتلين - براق المفارق : مشرق الجبين ، - أيسر : سهل المخالقة .

فقلت لها يومان: يومٌ إقامة
أهزُّ به غصناً من البان أخضرا (1)
ويوم أهزُّ السيِّفَ في جيدٍ أُعيدُ
له نسوة لم تلقِ مثلي أنكرا

كما أن المرأة تحب اللحم في الرجل، فهي برقتها، وضعفها، تميل إلى الرجل الحليم، الخلق، اللين، الذي يحسن معاملتها، ويرفق بها، ولا يخشن ولا يقسو عليها، لذلك نجد زوجة سعد بن ناشب تستنكر على زوجها شرسته وشدته، فيجيبها قائلاً إن الكريم مع لينه وحسن تعطفه لا بد أن يتخلق بأخلاق أمر من الصبر صوناً لعرضه وشرف نفسه، فالصلوك الذي يجابه مجتمع بأكمله لا بد أن يكون صارماً، شرساً، مهيباً، حيث يرى أن اللين ضعف، وهذا ما لا يريده.

فاللين له وقته، وناسه والشدّة لها وقتها وأهلها، فهو لين على من لان له، وشرس شديد على من جابهه وقسا عليه، يقول سعد بن ناشب (2):

تَفَنَّدَنِي فِيمَا تَرَى مِنْ شِرَاسَتِي
وَشِدَّةَ نَفْسِي أُمَّ سَعْدٍ وَمَا تُدْرِي (3)
فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكَرِيمَ وَإِنْ حَلَا
لِيُفْلَى عَلَى حَالٍ أَمْرًا مِنَ الصَّبْرِ
وَفِي اللَّيْنِ ضَعْفٌ وَالشِّرَاسَةُ هَيْبَةٌ
وَمَا بِي عَلَى مَنْ لَانَ لِي مِنْ فُظَاظَةٍ
وَمَنْ لَمْ يَهَبْ يَحْمَلْ عَلَى مَرْكَبٍ وَعَرَّ
أَقِيمُ صَغَاذِي الْمَيْلِ حَتَّى أُرْدَهُ
وَلَكِنِّي فَظٌّ أَبِي عُلَى الْقَسْرِ (4)
وَأَخْطُمُهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيَّ الْقَدْرُ (5)
إِنْ تَعَذَّلْتَنِي تَعَذَّلِي بِي مُرْزَأً
كَرِيمَ نَنَّا الْإِعْسَارَ مُشْتَرِكِ الْيَسْرِ

ب - صفاتها المادية:

لم ينشغل الصلوك بالجمال الخُلقي عن الجمال الخُلقي، بل إن الصعاليك أعاروا الشكل الخارجي للزوجة بعض الاهتمام، لأن الصلوك بطبيعته البشرية مفطور على حب الجمال، غير أن التفاته إلى مفاتن الزوجة فيها شيء من العمومية، فهو يبتعد عن إبراز المفاتن الحسية الجسدية فيها، والتي تثير الرغبة، يقول عروة في وصف زوجته التي أحبها (6):

(1) يوم إقامة : يوم راحة ، أهزُّ ... كناية عن اللهو .

(2) الحماسة لأبي تمام : 270 - 271 .

(3) تفندني : تجهلني . ، الشراسة : سوء الخلق .

(4) القسر : القهر .

(5) أقيم صغاذي الميل : أي أقيم عوج المعوج .

(6) الأغاني ، جزء 3 : 74 . ، الديوان : 63 .

وقالوا ما تشاء؟ فقلت: ألهو إلى الإصباح أثر ذي أثير⁽¹⁾

بأنسة الحديث رضاب فيها بعيد النوم كالغيب العصير⁽²⁾

إنها امرأة تؤنس زوجها، يلذ له حديثها غير نافرة، ريقها كعصير العنب ولعل عروة يوغل في وصف ريق محبوبته - التي هي زوجته - حين يشبهه بعد النوم الذي غالباً ما يغير طعم الريق، يشبهه بعصير العنب، بما فيه من لذة و متعة للشاربين . كذلك أعجب عروة بعيني زوجته فقال⁽³⁾:

تقول: ألا أقصر من الغزو واشتكى لها القول طرف أحور العين داعم

سأعنيك عن رجع الملام بمزمع من الأمر لايعشوا عليه المطاوع

إن العرب تحب العين الحوراء، والحور هو سواد شديد ، وبياض صافي في العين ، وهو ما يمنح المرأة جمالاً مميزاً، وهذا ما أعجب عروة ولفت انتباهه .

وهذا تأبط شراً يعجبه من زوجته كبر أردافها، ورخامة صوتها، وطول جيدها، وبريق أسنانها، فهي امرأة لينة ناعمة، لذلك نجده يمتدح هذه الصفات في قوله⁽⁴⁾:

وتلك لئن عنيت بها رداح من النسوان منطقتها رخيماً⁽⁵⁾

نياق القرط غراء الثنايا وريداء الشبَابِ ونعم خيم⁽⁶⁾

ويرى الشنفرى أن حسن امرأته مكتملاً، ولو أن الحسن يؤدي إلي الجنون، لكان حسنها سبباً للجنون، يقول⁽⁷⁾:

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت فلو جن إنسان من الحسن جنت⁽⁸⁾

ويشير عروة إلي جمال زوجته بشكل مجمل حين قال⁽⁹⁾:

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلهنى عنه غزال مقنع

(1) أثر ذي أثير : مثل قولك كل شيء .

(2) الأنسة : غير النفور ، الرضاب : الريق .

(3) الديوان : 82 .

(4) ديوان الصعاليك : 167 - 168 .

(5) رداح : كبيرة الردفين .

(6) نياق القرط : طويلة القرط ، كناية علي طول جيدها - غراء الثنايا : براءة الفم والأسنان ، ريداء :

لينة ناعمة ، نعم خيم : نعم السجية والطبيعة ، فاعل نعم هنا ليس معرفاً .

(7) ديوان الصعاليك : 17 ، المفضليات : 109 .

(8) دقت : نحتت ، جلت : سمتت ، اسبكرت : امتدت واعتدلت ، أي أنها جميلة فيما هو دقيق وسمين .

(9) الديوان : 83 .

فوصف الزوجة بالغزال، يختصر كثيراً من الكلام والوصف، حيث أن الغزال يعني الرشاقة والخفة، والطفاه، والوداعة وجمال العينين، وطول الجيد إضافة إلي البراءة والدعة والأمان.

ويصف السليك زوجته بحسن القوام، وطول العنق فيقول(1):

وربَّ قَرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مَجْدُولُ وربَّ زَوْجٍ قَدْ نَكَحْتُ عَطْبُولُ(2)

لقد شغلت الزوجة حيزاً هاماً من حياة الصعلوك العاطفية، فقد أحبها واستدعي انتباهه جمالها الموشح بالوقار اللطيف، الذي قل أن وجدناه في أحاديث الشعراء. والمفارقة العجيبة أن الصعلوك إذا غضب من زوجته، لسوء سلوك أو تصرف، فربما يذكر من صفاتها ما لا ترغب فيه، فعروة يصف زوجته أم وهب وهي نائمة متوسدة ذراعها، ولها شخير فيقول(3):

تبيتُ على المرافقِ أم وهبٍ وقد نامَ العيونُ لها كَتَيْتُ

إن عروة يشبه شخير زوجته، بصوت غليان القدر، وهذا صفة للزوجة لا يعرفها غالباً إلا الزوج، ونادراً ما نجد شاعراً يذكر مثل ذلك في شعره.

ومهما يكن فإن الصعاليك حاولوا دائماً أن يشكلوا نموذجاً فريداً للزوجة تتمازج فيه الصفات المعنوية، والحسية، الراقية، حيث تجتمع فيها مفاتن الشكل الخارجي، ومحاسن الأخلاق، فتصبح حقيقة بتقديرهم واحترامهم ، وشغل فكرهم وقلوبهم، إليها يحنون، ويقربها ينعمون، ومن أجلها يغامرون، وعنهما يدافعون.

وإذا كانت طبيعة حياة الصعاليك قد حددت صلتهم بزوجاتهم، فإنها قد حددت من اتصاليهم بهن أيضاً، فكان غيابهم عنهن أطول من وجودهم بقربهن، لذلك كانوا بأمس الحاجة إلى تلك اللحظات الوجدانية التي تعيشها معهم زوجاتهم يقول الشنفرى(4):

فبتنا كأنَّ البيتَ حُجْرٌ فوقنا بريحانةٍ ريحَتْ عِشَاءً وطلتْ(5)
بريحانةٍ من بطنِ حليةٍ نورت لها أَرْجٌ ما حولها غيرُ مُسْنِتٍ(6)

(1) ديوان الصعاليك : 193 .

(2) العطبُول : الطويلة العنق الحسنة القوام .

(3) الديوان : 49 .

(4) المفضليات : 110 . ديوان الصعاليك : 17 .

(5) حُجْرٌ : أحبط . - ريحت : أصابتها ريح، فجاءت بنسيمها، طلّت : أصابها ظلل .

(6) حلية : واد بتهامة ، بطن حلية : أرض غليظة نباتها أطيب من غيره . الأرج : الرائحة الزكية -

مسنت : مجدب

لقد عاش معها لحظات من الحياة المنعمة يحيط بهما الجمال اليخضورى من كل جانب، هذا الجمال الذي افتقده الصعاليك في حياتهم وفنهم معاً، إنه الفردوس المفقود الذي يحلم به ، بعد أن أفرغ جهده في غارة من غاراته اليومية.

إن تعلق الصعاليك بزوجاتهم يلفت الانتباه، وهذا واضح في شعرهم، وربما يرجع ذلك إلى كثرة أسفارهم، وبعدهم عن أوطانهم، وزوجاتهم، مما يجعلهم يتشوقون لهن، لذلك نجدهم يتذكرون أهلهم في ساعة الشدة والخطر . فهول المعركة واحتدام القتال لا يحول بينه وبين تذكر زوجته وأبنائه، يقول الأعمى الهذلي⁽¹⁾:

ونكرت أهلى بالعراء وحاجة الشعث التوالب⁽²⁾

المصرمين من التلاد اللامحين إلى الأقارب⁽³⁾

إن الصعلوك لا يستطيع أن يتجاهل حبه لزوجته، وحنينه إليها ، ولا يفتأ يذكرها في غزواته وغاراته، وفي فخره بنفسه وبجماعته من الصعاليك . يقول الشنفرى⁽⁴⁾:

ألا هل أتى سعاد ودونها مهامة بيد تعلى بالصعالك⁽⁵⁾

بأنا صبحنا الغوص في حرّ دارهم حمام المنايا بالسيوف البواتك⁽⁶⁾

ظللنا نفرّى بالسيوف رؤوسهم ونرشقهم بالنبل بين الدكادك⁽⁷⁾

ويبلغ الأمر أقصاه حينما يحضره ذكرها، وهو على حافة الموت، فالسليك ابن السلكة تلح عليه صورة الزوج الفتية، البضة، حينما حوصر حصار الموت، وآل الأمر إلى الهلاك يقول⁽⁸⁾:

من مبلغ جذمي بأني مقتول

يارب نهب قد حويت عثكول⁽⁹⁾

ورب قرن قد تركت مجدول⁽¹⁰⁾

(1) ديوان الهذليين : 315 .

(2) العراء : الصحراء لا نبت فيها . الشعث : أولاده ، التوالب : الجحاش .

(3) الصرم : المقل الذي لا ماله . - التلاد : المال القديم الموروث عن الأجداد .

(4) ديوان الصعاليك : 36 .

(5) المهامة : جمع مهمة وهي الصحراء الواسعة . بيد : جمع بيداء وهي الصحراء . ترتفع ، أي يجتازها الصعاليك

(6) الغوص : اسم موضع وهو حي من بجيلة - البواتك : القاطعة .

(7) نفرّى : نقطع - الدكادك : الأرض الغليظة ، مفردها دكدك .

(8) ديوان الصعاليك : 193 . الأغاني : جز 20 : 385 .

(9) العثكول : عنقود التمر في النخل ، وفي القول كناية عن كثرة النهب .

(10) القرن : الشجاع الثابت في القتال . - مجدول : مقتول .

الأبدي، تشيعه موسيقى جنائزية حزينة متجسدة في هذا السكون المنبعث من الإيقاع الموسيقي الصامت للأبيات⁽¹⁾.

(1) انظر مجلة تشرين للدراسات والبحوث العلمية ، مجلد 13 (العدد 1) 1991 م . س

رابعاً : أثر الزوجة على الصعلوك

(أ) لومها له، وخوفها عليه من مخاطر الصعلكة :

يصور لنا شعر الصعاليك في كثير من مقطوعاته، لوم الزوجات لأزواجهن على مخاطرتهن، وحرصهن على سلامتهن، يقول عروة (1):

أرى أم حسّان، الغداة تلومني تخوفني الأعداء، والنفس أخوفُ
تقول سَلِيمِي لو أقمتَ لسرّاً ! ولم تدر أنني للمقام أطوف
لعل الذي خوفتنا من أماننا، يصادفه في أهله المتخلف
إذا قلت جاء الغنى، حال دونه أبو صبية، يشكو المفاقر، أعجفُ (2)

إن الحياة التي يحيها الصعلوك، يحيط بها الخطر من كل جانب، فالصعلوك معرض للموت في كل لحظة، هذا الأمر جعل المرأة مهددة بالتكل في كل لحظة، مما دفعها إلى الخوف عليه من هذه النهاية شبه المحتومة، إن المرأة تظل رهينة هاجس الموت الذي يطاردها، ويفلق نومها، ويقض مضجعها، وكيف لا، وموت الزوج بالنسبة لها فجيعة لا يعادلها شيء، فهو سكنها وملادها، وأمنها، وهو مبعث الطمأنينة في نفسها وهو القيم على شؤونها، إذا هي تجد أن من حقها الخوف عليه، والوقوف في وجهه من أجل ثنيه عن سلوك الحياة التي اختارها لنفسه يقول عروة (3):

تقول لك الويلات، هل أنت تارك ضبوءاً برجل، تارة ويمنسر (4)
ومستثبت في مالك العام، إنني أراك على أقتاد صرماء مذكر (5)
فجوع لأهل الصالحين، مزلة مخوف رداها أن تصيبك فاحذر (6)

(1) الديوان : 87 ، الأغاني جزء 3 : 87 ، الحماسة : 338 .

(2) المفاقر : الحاجات، جمع فقر على غير قياس . - أعجف : أي هزل .

(3) الديوان : 67-68 .

(4) ضبوءاً : الضبوء اللصوق بالأرض . الرجل : الرجالة . أي يغزو مرة بقوم راجلين ، - و مرة بميسر أي الخيل .

(5) المستثبت هنا : القاعد عن النهارات، - أقتاد ، واحدها قتد : خشب الرجل ، - الصرماء : الناقة ، - المذكر : التي تلذ الذكور

(6) فجوع : أي الناقة الصرماء تفجع ذوي المعروف، - مزلة : أي تزل بأهلها ، - مخوف رداها : أي يخاف الهالك من قبلها .

وقد تلجأ للبكاء من أجل التأثير عليه، إذا لم ينفع اللوم، والتخويف، ورفع الصوت
عالياً في وجهه، إنها تحاول ببكائها الذي نبع من ضعفها وقله حيلتها في صده عن غايتها،
تحاول استثارة العاطفة الكافية في داخله من أجل تحقيق غايتها، يقول عروة⁽¹⁾:

تقول: ألا أقصر من الغزو، واشتكى لها القول، طرف أحوار العين داعم
سأغنيك عن رجع الملام بمزْمَع من الأمر، لا يعيشو عليه المطاوع

وقد تلجأ إلى التهديد مرّة والتخويف مرّة، ولكن هيهات أن يتحقق لها ما تريد، من
ثنيه عن بغيته، وصرفه عن هدفه الذي ابتغاه، وعن طريقه الذي رسمه لنفسه،
يقول السليك⁽²⁾:

تهددني كي أحذر العام ختعمًا وقد علمت أنني امرؤ غير مسلم⁽³⁾
وما ختعم إلا لنائم أرقّة إلى الذلّ فالإسحاق تنمي وتنمي⁽⁴⁾

إنها تحاول أن تخوف من لا يخاف، وهي تعلم ذلك إلا أنها، تحاول قدر استطاعتها،
ألا تترك وسيلة من وسائل الإقناع إلا واستعملتها، وذلك نابع من حب صادق، وعاطفة
جياشة، أو خوف من المجهول الذي لا يعرفه، إنه تشبث بالحياة الكريمة، في كنف رجل
يدير شؤونها، ويكفيها مشقة عيشها، يدافع عنها، ويحنو عليها، ويقبها عاديات الزمن.
إنها تدرك أن حياة زوجها مهددة في كل حين، لذلك نجد هذا الصراع بينها وبين
زوجها لمنعه عن الغزو حتى لا يقع ما تحذر، فإذا وقع بعض هذا وجاء زوجها وقد أصيب
في إحدى غزواته فإن صوتها يعلو بالبكاء والعيويل يقول تأبط شراً⁽⁵⁾:

تولول سعدى أن أتيت مجرّحاً إليها وقد منت عليّ المقاتل
وكائن أتاها هارباً قبل هذه ومن غانم أو أين منك الولاول

وفي المقابل فإن الصعلوك برجاجة عقله، وسعة أفقه، وعمق وعيه، يحاول إقناعها
بصحة موقفه، إنه لا يقدم على الغزو، والترحال وخوض مجاهل الصحراء حياً في ذلك،
وإنما يفعل ويعرض نفسه للأخطار من أجل أن يؤمن بالحياة الكريمة له ولأسرته، ولكي
يشهد له بحسن البلاء، والمقدرة على تحمل المشاق، والإقدام، والمغامرة، في مجتمع لا يحترم
إلا القوي، وبذلك يحقق ذاته، ويكسب المجد الخالد، والأحاديث الباقية . يقول عروة⁽⁶⁾:

(1) الديوان : 82 .

(2) ديوان الصعاليك : 194 .

(3) غير مسلم : غير مستسلم ، غير مطيع .

(4) أرقّة : عبيد أدلاء - الإسحاق والسّحّ : الذلّ ، تنمي : تتجه .

(5) الأغاني جزء 21 ص 180-181 ، ديوان الصعاليك : 166

(6) الديوان : 67 .

أقلى عليّ اللوم يا بنت منذر
 ذريني ونفسي أم حسان، إنني
 أحاديث تبقى والفتى غير خالد
 ذريني أطوف في البلاد لعنني
 فإن فاز سهم للمنية لم أكن
 وإن فاز سهمي كفكم عن مقاعد

ونامي، وإن لم تشتهي النوم فاسهري
 بها، قبل أن لا أملك البيع مشتري
 إذا هو أمسى هامة فوق صيّر (1)
 أخليك أو أغنيك عن سوء محضري
 جزوعاً وهل عن ذاك من متأخر؟
 لكم خلف أدبار البيوت، ومنظر

إنه يوضح لها، أنه يفعل ذلك من أجلها وأجل أبنائها، كي يوفر لهم الحياة الكريمة، كما أنه يشعر بالمسؤولية عن كثير من أقرانه الذين لجأوا إليه، واستغاثوا به، فهو يرى أن الإنسان لا بد ميت، ويبقى الذكر الطيب بعد ذلك، إن عروة يحاورها حواراً ودياً، يحاول من خلاله إقناعها بوجه نظره، حيث أنه لا بديل عن الغزو، فإما الفوز بالغنيمة والحياة الكريمة، وإما الموت الذي لا يخشاه ولا يجزع منه،

وفي أبيات أخرى يحاول عروة إقناع زوجته، بالكف عن لومه، وتركه وحال سبيله، يسعى في طلب المال والثروة، حيث أن الناس تنتظر إلى الفقير على أنه شر الناس، وأضعفهم وأهونهم، فلا خير فيه عندهم، يقابل بكل احتقار وازدراء حتى من زوجته أما الغني مهما كان وزنه فإنه يقابل بكل احترام وتقدير يقول (2):

دعيني للغنى أسعى فإني
 وأبعدهم وأهونهم عليهم
 ويقصيه الندى وتزدرية
 ويلقى ذو الغنى وله جلال
 قليل ذنبه والذنب جـم
 رأيت الناس شرهم الفقير
 وإن أمسى له حسب وخير
 حليلته، وينهره الصغير
 يكاد فؤاد صاحبـه يطير
 ولكن للغنى رب غفور

ويحاول عمرو بن بركة إقناع زوجته التي حاولت ثنية عن التعرض لتلفات (حريم) - وهو رجل من مراد - وذلك لأنها تخشى عليه منه، فيقول لها يجب عليك أن تعلمي أن حياة الصعاليك لا تعرف الخوف، ولا الهدوء، بل هي سعي دائم، فهو كغيره من الصعاليك لا يملك شيئاً يأسف عليه إنه لا يملك إلا سيفه الذي يأنس به، فهو يبدي الحزم على الغزو مثله مثل باقي الصعاليك الذين لا يهدأون ولا ينامون إلا غرراً، ولا يقيمون إلا قليلاً، يقول (3):

(1) صيّر : حجارة تجعل زريبة للأغنام .

(2) الديوان : 79 .

(3) الأغاني جزء 21 : 198 - 199 .

تقول سليمي لا تعرض لتلفة
وكيف ينام الليل من جلّ ماله
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم
إذا الليل أدجى واكفهرت نجومه
ومال بأصحاب الكرى غلباته
وليك عن ليل الصعاليك نائم
حسام كلون الملح أبيض صارم
قليل إذا نام الدثور المسالم
وصاح من الإفراط هام جواثم
فإني على أمر الغواية حازم

أما عبيد الله بن الحر الجعفي، فإنه يخوض المعارك من أجل زوجته التي أحبها وكان في مائة وثمانين فارساً، ويخرجها من السجن، ويعيدها إلى ديارها معززة مكرّمة، ورغم أنها كانت في الأسر، إلا أنها تخاف عليه وتحاول أن تنثية عن قتال القوم، طالبة منه أن يفر وينجو بنفسه، حيث أنه قد أخرجها وأنهى الأمر فيقول لها: إنما يقتل من أجل أن يحميها، ويعيدها إلى الحياة الكريمة، بعزة، دون ذلٍ أو مهانة، الحياة التي يسودها الأمن والطمأنينة، يقول⁽¹⁾:

ألم تعلمي يا أم توبة أنني
وأني صبحت السجن في رونق الضحى
فما إن برحنا السجن حتى بدا لنا
وخذ أسيل من فتاة حبيبة
ومثلي حامي دون مثلك إنني
أضاربهم بالسيف عنك لترجعي
ولا غرو إلا قول سلمى طعنتني
دع القوم لا تقتلهم وانج سالمياً
وإني لأرجو يابنة الخير أن أرى
أنا الفارس الحامي حقائق مذبح
بكل فتى حامي الذمار مدجج
جبين كقرن الشمس غير مشنج
ألا فسقاها كل مزن مبعج
أشدُّ إذا ما غمرة لم تفرج
إلى الأمن والعيش الرفيع المخرفج
أما أنت يا ابن الحر بالمتحرج
وشمر هداك الله بالخيل واخرج
على خير أحوال المؤمل فارتجي

إن هذه الأبيات تظهر بطولة الشاعر، وقوته، واستماتته في سبيل القتال من أجل زوجته، ولا عجب في ذلك، فهي بعد أن خلصها من السجن تبدو مشفقة خائفة عليه، تود لو أنه يغادر المكان بسرعة حتى لا يمسه مكروه. وهو يحاول أن يقنعها بأنه ما قاتل إلا مرغماً من أجل أن يستنقذها مما هي فيه، ليرفع عنها ظلم الظالمين، وجور الجائرين.

وفي أبيات أخرى، يحاول عروة أن يسمو بهدف الغزو والسعي وراء المال، حيث يحاول إقناع زوجته، أن تتركه يسعى من أجل جمع المال الذي يساعد به الآخرين ويدفع

(1) منتهى الطلب من أشعار العرب، ابن المبارك ص 658 - 659 .

عنهم ويواسيهم، فالموت عند عروة أفضل من أن يأتي الوقت الذي لا يستطيع فيه الدفاع عن أحد نزلت به نازلة، فهو هنا يخاطر بنفسه من أجل الآخرين يقول(1):

دَعِينِي أُطَوِّفُ فِي الْبِلَادِ لَعَنِّي أُفِيدُ غِنَى فِيهِ لِيذِي الْحَقِّ مَحْمَلُ
أَلَيْسَ عَظِيمًا أَنْ تُلِّمَ مُلَمَّةً وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْحَقُوقِ مَعُولُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَمْلِكْ دِفَاعًا بِحَادِثٍ تُلِّمُ بِهِ الْأَيَّامُ فَالْمَوْتُ أَجْمَلُ

وهذا الشنفرى، يطلب من زوجته أن تكف عن لومه، وتدعه وحال سبيله، فانه لا بد أن يلاقي الموت يوماً من الأيام، فلم الخوف إذن، يقول(2):

دَعِينِي وَقَوْلِي بَعْدَمَا شِئْتَ إِنِّي سَيَغْدَى بِنَعْشِي مَرَّةً فَأَغِيبُ

إن الزوجة لها حدود يجب أن تلتزمها ولا تتعداها، فإذا تمادت في لومها، وحاولت منعه من أداء واجبه نحو نفسه وجماعته، فإنه لا يتردد في رفض طلبها وعصيانها، لأنه يرى أن إطاعة الزوجة في هذا الأمر إخلال بمبادئه وفلسفته يقول عروة(3):

إِذَا أَمَرْتَنِي بِالْعُقُوقِ حَالَيْتَنِي فَلَمْ أَعْصِهَا، إِنِّي إِذَا لَمْضِيعُ

ولكنها إذا ما تمادت، وحاولت ثنيه عن عزمه وطريقه الذي خطه لنفسه، مذكرة إياه

بعيالها الذين تخشى عليهم اليتيم، عمد إلى ضربها، يقول الأعمى الهذلي(4):

يُلْطَمُ وَجْهَ حَنَّتِهِ إِذَا مَا تَقُولُ تَلْفَتَنَّ إِلَيَّ الْعِيَالُ

إن هذا الفعل من سوء خلق الرجل، حيث أن ضرب الزوجة من الأفعال الغريبة على الصعاليك . ولكن الصعلوك يرفض أن يعترض أي إنسان طريقه الذي خطه لنفسه، لأنه لا يفعل ما يفعل إلا من أجل من أن يوفر لهم الحياة الكريمة، ويبعدهم عن حياة النذل والهوان، فالأبناء هم أول من يخطر بباله وهو في ساعة الشدة والخطر يقول الأعمى(5):

وَذَكَرْتَ أَهْلِي بِالْعَرَا ءِ وَحَاجَةَ الشَّعْثِ التَّوَالِبِ (6)

المصرمين من التلا د اللامحين إلي الأقارب (7)

إن المرأة العربية قد تجد لها مستراحاً في البعد عن هذه الحياة، حياة الخوف من المجهول، فقد ترفض الزواج ممن يعرض نفسه للمخاطر، وذلك خوفاً من فقدته ومقاساة حياة

(1) الحماسة لأبي تمام : 30 .

(2) الأغاني جزء 21 : 161 ، ديوان الصعاليك : 11 .

(3) الديوان : 84 .

(4) شعر هزيل : 319، وفي رواية : " يدمي وجه جنته " والحنة : هي الزوجة .

(5) شعر هزيل : 315 .

(6) العراء : الصحراء لا نبت فيها، - الشعث : ولده، - التوالب : الجحاش .

(7) المصرم : المقل الذي لا مال له .

الذل والهوان بعده . وما الذي يجبرها علي هذه الحياة، إن كان في مقدورها تجنبها، وهذا ما فعلته امرأة من عبس خطبها تأبط شراً، فرفضت الزواج منه، وفي ذلك يقول⁽¹⁾:

وقالوا لها لا تنكحيه فإنه
فلم تر من رأي فتيلاً وحاذرت
قليل غرار النوم أكبر هممه
قليل ادخار الزاد إلا تعلية
يناضله كل يشجع قـوه
يببت بمعنى الوحش حتى ألفنه
وإنني وإن عمرت أعلم أنني
على غرّة أو جهرة من مكاشر

لأول نصل أن يلاقي مجمعا
تأيمها من لابس الليل أروعا⁽²⁾
دم الثأر أو يلقي كميأ مقتععا⁽³⁾
وقد نشز الشرسوف والتصق المعى⁽⁴⁾
وما طبه في طرقه أن يشجععا⁽⁵⁾
ويصبح لا يحمي لها الدهر مرتعا
سألقي سنان الموت يبرق أصلعا
أطال نزال الموت حتى تسعسععا⁽⁶⁾

وأخيراً فإن الصعلوك ظل يجد مبررات لخوف المرأة المستمر عليه، وهو بحكمته وسعة أفقه، يحاول أن يحاورها حواراً هادئاً، فيه ود ومحبة، وعطف محاولاً إقناعها بمنهجها الذي رسمه لنفسه، وإن أبدى بعض الحزم أحياناً فإنه يظل رحيماً بها، عطوفاً عليها، يحبها ويتودد إليها، ويتفانى في الدفاع عنها، والذود عن حماها . من أجلها يقاتل، ولرضاها يسعى، ويقربها يسعد.

(ب) حثها له علي التحلي بالشجاعة:

زوجة الصعلوك كأبي امرأة عربية، تحب في زوجها الشجاعة، والإقدام، والفروسية وترفض أن يكون جباناً، فراراً من المعارك وساحات الوغى، فهذه زوجة تأبط شراً تعنف زوجها علي فراره وتركه صاحبه لبجيلة تقتله، فيجيبها معتذراً ومبرراً فراره بكثرة من كان يطلبه منهم، وأنه لو مكث قليلاً للحقوا به وقتلوه مع صاحبه يقول⁽⁷⁾:

ألا تكلمنا عرسي منيعه ضمنت
من الله إثمأ مستسراً وعالنا⁽⁸⁾

(1) ديوان الحماسة، لأبي تمام : 189 _ 190 ، ديوان الصعاليك : 138 _ 140 .

(2) فتيلاً: الفتيل والقطمير، والنقير، يضرب للشئي الحقيقير، التأيم: فقد الزوج .

(3) الكمي: البطل المسلح .

(4) التعلة: القلة، _ الشر سوف: طرف الضلع المشرف علي البطن .

(5) طبه: دواؤه .

(6) تسعسع: شاخ وهرم .

(7) ديوان الصعاليك : 173 _ 175 .

(8) عرسي: زوجتي، - عالنا: ظاهراً .

تقولُ تركتَ صاحباً لك ضائعاً
إذا ما تركتَ صاحبي لثلاثة
وما كنت أبأء على الخل إذ دعا
ولما سمعت العوص تدعو تنعرت
ولم أنتظر أن يدهموني كأنهم
ولا أن تصيب النافذات مقاتلي
فأرسلتُ مننياً عن الشرِّ عاطفاً
وجئت إلينا فارقاً متباطئاً⁽¹⁾
أو اثنين مثلينا فلا أبت أمناً⁽²⁾
ولا المرء يدعوني ممرّاً مُداهناً⁽³⁾
عصافير رأسي من غواة فراتنا⁽⁴⁾
ورائي نحلٌ في الخليةِ داكناً
ولم أك بالشدِّ الذليق مدانيماً⁽⁵⁾
وقلت تزحزح لا تكوننَّ خائناً

إنها تحضه على الشجاعة والثبات في المعركة، والذود عن أصحابه في ساعة الشدة والضعف ولا يعجبها أن يفرّ ناجياً بنفسه، تاركاً أصدقاءه يواجهون مصيرهم . وهذا يظهر بجلاء دور المرأة العربية في ترسيخ القيم الإنسانية الراقية التي يجب أن يتحلى بها العربي . إن الصعلوك لا يجد في الفرار غضاضة أو أمراً يدعو إلى الخجل والمداراة، وفيم الخجل ما دام الأمر يضمن النجاة، ليعيدوا الكرة من جديد ، ليحققوا أهدافهم الاجتماعية والاقتصادية ؟

إن الفرار فرصة تتيح لهم إظهار تلك الميزة التي يفتخرون بها دائماً، وهي سرعة العدو وهذا هو سرُّ حرصهم على أحاديث الفرار في شعرهم، لأنها أحاديث تتيح لهم مجال الفخر بهذه الميزة.

لذلك لا يجد حاجز الأزدي حرجاً في إخبار محبوبته بفراره من أعدائه الذين كادوا أن يقتلوه، لكنه نجا منهم، يقول⁽⁶⁾:

ألا هل أتى ذات الخواتمِ فرّتي
عشية كادت عامرٌ يقتلونني
فما الظبي أخطت حلقةً الظفر رجّله
عشيّة بينا لجرف والبحر من بعري⁽⁷⁾
لدى طرفِ السّماءِ راغيةَ البكر⁽⁸⁾
وقد كاد يلقي الموت في حلقة الظفر

(1) فارقاً : وحيداً؛ من دون رفيق، متباطئ : متستر .

(2) لا أبت أمناً : لا رجعت بأمان .

(3) حُمراً : غير مستقيم .

(4) العوص : اسم قبيلة - تنعرت : فار دمها ، -عصفور الرأس : جزء من الدماغ ، - فراتنا : فجارنا .

(5) النافذات : السهام .

(6) الأغاني، جزء 13 ص 217-218 .

(7) فرّتي : فراري، الجرف : موقع باليمن، البحر : مكان بين مكة واليمامة ، ماعلبنبي ربيعة .

(8) داغية البكر : صوته البكر : الفتى من الإبل، يراد به بكر ناقاة صالح ، وهو مثل في الشؤم .

كمثلي أو أن القوم بين معيِّعٍ وآخر كالتشوان مُرتكز يُغري⁽¹⁾

إن حاجزاً يحدث إلى صاحبتة الجميلة المتأنقة عن فرّته دون أن يجد في هذا الحديث غضاضة، وما من سبب لذلك سوى إعجابه بنفسه، إذ استطاع النجاة من أعدائه عدواً على قدميه فهو في هذا الحديث كأنما يقدم إلى صاحبتة لوناً من ألوان البطولة التي يراها جديرة بإعجابها، حتى ليتساءل في أول حديثه في لهفة ظاهرة " ألا هل أتى ذات الخواتم فرّتي"⁽²⁾.

وفرّ من خثعم وتبعه المرقع الخثعمي ثم الأكلبي، ففاتته حاجز، وقال في ذلك⁽³⁾:

وكأنما تبع الفوارسُ أرنباً أو ظبي رابية خفافاً أشعباً⁽⁴⁾

وكأنما طردوا بذِي نمراتِهِ صرعاً من الأروى أحسّ مكلّبا⁽⁵⁾

أعجزتُ منهم والأكفُ تنالني ومضتُ حياضهمُ وآبوا خيباً

أدعو شنوءةَ غثها وسمينها ودعا المرقع يومَ ذلك أكلبا⁽⁶⁾

والواقع أن أحاديث الفرار ظاهرة واضحة كل الوضوح في أخبار الهذليين وأشعارهم حتى لتعد سمة من سمات الشعر الهذلي⁽⁷⁾ ففي شعر الأعم قصيدة طويلة يتحدث فيها عن فراره مع صاحب له، من بلاد كنانة، مصوراً الفرع الذي انتابه عندما اقترب منهم الأعداء فلم يستطع القتال، فأطلق رجليه طالباً النجاة من الموت، يقول⁽⁸⁾:

لما رأيتُ القومَ بالعلياءِ دونِ قدي المناصبِ⁽⁹⁾

وفريتُ من فرعٍ فلا أرمى ولا ودعتُ صاحب⁽¹⁰⁾

يُغرون صاحبهم بنا جهداً وأغري غير كاذب

أغري أبا وهب ليُعجزهم ومدوا بالحلاب⁽¹¹⁾

(1) يغري : يبالغ في النكايه والقتل .

(2) أنظر الشعراء الصعاليك ، يوسف خليف ، ص 214 .

(3) الأغاني جزء 13 ص 218 .

(4) الرابية : ما ارتفع من الأرض، - الظبي الأشعب : البعيد ما بين القرنين .

(5) الصدع : الفتى الشاب القوي من الأوعال وقيل هو الوسط منها ، والأروى : أنثى الوعل ، أو هو تيس

الجبل .

(6) شنوءة : قبيلة ، وكذلك أكلب .

(7) الشعراء الصعاليك ، د . يوسف خليف ، ص 210 .

(8) ديوان الهذليين ص 312 - 314 .

(9) ايقدي : تقدّر ، - المناصب : الرّامي ترمية ديرميك ، والمناصب : الأغراض والمرامي .

(10) فريت : بطرت : فلم أقدر على المي ، وفريت : عجيب ، - ولا ودعت صاحب : أي لم سلم عليه .

(11) الحلب : المعيق ، قدّوا : صاحوا بالإمداد ، الحلاب : جماعات جاء بعضهم في أثر بعض .

ثم يعتذر عن فراره، مبرراً ذلك بخشيته من أن يقتل بسيوفهم، فيصبح بذلك طعاماً للوحوش الضارية، والطيور الجارحة:

- وَحْشِيَّتُ وَقَعَضُ ضَرِيْبَةٍ قَدْ جُرِّبَتْ كُلَّ التَّجَارِبِ⁽¹⁾
فَأَكُوْنَ صَيْدَهُمْ بِهَا لِلذَّنْبِ وَالضَّبْعِ وَالسَّوَاغِبِ⁽²⁾
جَزْرًا وَلِلطَّيْرِ الْمَرْبَّةِ وَالذَّنَابِ وَلِلثَّعَالِبِ⁽³⁾
وَتَجْرُ مُجْرِيَةً لَهَا لَحْمِي إِلَى أَجْرِ حَوَاشِبِ⁽⁴⁾
سُودِ سَحَالِيلٍ كَأَنَّ جُلُودَهُنَّ ثِيَابَ رَاهِبِ⁽⁵⁾
يَنْزِعْنَ جِلْدَ الْمَرْءِ نَزْعَ الْقَيْنِ أَخْلَاقَ الْمَذَاهِبِ⁽⁶⁾

إن الأعمى يُجبر على الفرار من أعدائه بعد أن تكاثروا عليه، واقتربوا منه، الأمر الذي جعله لا يقدر على قتال ولا رمي من شدة الفرع، وحينها ترتسم في مخيلته صورة مفزعة، صورة القتلى الذين يتركون لوحوش الصحراء من ضباع وذئاب وثعالب ونسور، وحينها يدرك أنه لا سلاح لديه يستطيع به النجاة من هذه النهاية المفزعة، إلا سلاحاً واحداً، يتميز به عن باقي أعدائه ألا وهو سرعة العدو، الذي يتباها به الأعمى حين يقول⁽⁷⁾:

- | | |
|---------------------------------------|---|
| فَلَا وَأَبِيكَ لَا يَنْجُو نَجَائِي | غَدَاةً لَقَيْتُهُمْ بَعْضُ الرَّجَالِ |
| كَأَنَّ مَلَأَعَتِي عَلَى هِزْفٍ | يَعْنُ مَعَ الْعَشِيَّةِ لِلرَّئَالِ ⁽⁸⁾ |
| هِيْزَفٍ أَصْنَافِ السَّاقِينِ هَقْلٍ | يِبَادِرُ بِيْضُهُ بَرْدُ الشَّمَالِ ⁽⁹⁾ |
| أَحْسَ صَبَابَةً وَعَمَاءَ لَيْلٍ | يِبَادِرُ غَوْلَ وَادٍ أَوْ رِمَالِ ⁽¹⁰⁾ |
| كَأَنَّ جَنَاحَهُ خَفَقَانَ رِيْحٍ | يِمَانِيَةً بَرِيْطٍ غَيْرِ بِالْيِ ⁽¹¹⁾ |

(1) الضريبة: هنا معناها السيف .

(2) الضبْعُ: جمع الضبْع، - السواغب: الجياح . ويروي: " فأصير صيدهم "

(3) المرْبَّة: المقيمة على لحم أبداً، يريد: أدباً بالمكان: أقام به، وكلُّ مخوبة: جَزْرَةٌ .

(4) مُجْرِيَةٌ: صبغ ذات جراء، إلى أَجْرِ: جمع جرؤ، وحواشب: منتفحات البطون قصار .

(5) سحالييل: واحدها سحلال وهي العظام البطون .

(6) المذاهب: أخلّة السيوف وهي بطائن الجفون المذهبة، واحدها مُذَهَبٌ، - القَيْن: الحداد .

(7) ديوان الهذليين: 318 - 321 .

(8) الهزف: الظلم السريع، يَعْنُ: لغة هذيل، أي يعرض، الرئال: فراخ النعام .

(9) أصناف: متقشر، هقل: من أسماء النعام، وهيقل: تعني الطويل .

(10) العماء: أشد الغيم ارتفاعاً، - غَوْل: بعد .

(11) اليمانية: الجنوب، - الشامية: الشمال، - الرَيْط: ملاحف غير ملفقة .

وربما يصرح الأعم الهذلي، بأنه يفر من أعدائه دون أن يبذل جهداً في قتالهم وذلك حين يقول⁽¹⁾:

بَذَلْتُ لَهُمْ بِذِي وَسْطَانَ شَدِّي غَدَا تَنْذُ وَلَمْ أَبْذُلْ قِتَالِي (2)

إن الصعلوك يرى الفرار سلاحاً من أسلحته في القتال، فهو يرجع إليه الفضل في كثير من الأحيان، حيث أنه لولا العدو السريع الذي يتميز به، ويلجأ إليه في الشدة والضيق ما نجا، لذلك نجده يبدي إعجابه برجليه اللتين تتيحان له فرصة الفرار والنجاة من عدوه، فحاجز الأزدي يفدي رجليه بأمه وخالته فلولاهما لما نجا من عدوه⁽³⁾:

فَغَيْرَ قِتَالِي فِي الْمَضِيقِ أَغَاثِي وَلَكِنْ بَذَلِي الشَّدَّ غَيْرَ الْأَكَاذِبِ
فَدَاً لَكُمْ رَجُلِيَّ أُمِّي وَخَالَتِي بَشَرٌ كَمَا بَيْنَ الصَّفَا وَالْأَثَائِبِ (4)

ويرى أبو خراش بأنه لولا سرعة عدوه فراراً من أعدائه لآمت امرأته وليتم ابنه⁽⁵⁾:

وَلَوْلَا دِرَاكُ الشَّدِّ قَاظَتِ حَلِيَّتِي * تَخَيْرُ مِنْ خَطَّابِهَا وَهِيَ أَيْمٌ (6)**
فَتَقَعْدُ أَوْ تَرْضَى مَكَانِي خَلِيفَةً وَكَادَ خِرَاشٌ يَوْمَ ذَلِكَ يَبِيْتُمُ

إن الخوف والشعور بالمطاردة، هو طابع عام طبع حياة الصعاليك، نظراً لطبيعة علاقتهم بالمجتمع الذي ناصبوه العدا، وناصبهم، وتتكروا له، وتتكبر لهم وليس من الغريب أن يسيطر على الصعاليك شعور عام بأنهم مطاردون، بل الغريب ألا يكون لديهم هذا الشعور، فطائفة أعلنت الحرب على الناس جميعاً، وأصبح المجتمع بالنسبة لهم طالب ومطلوب، وبدء هذا الشعور كان عدم تكيفهم مع المجتمع ونفورهم منه، وهجرتهم عنه للعوامل التي أدت بهم إلى الصعلكة، فنرى الصعاليك بصفة عامة يحملون طابعاً بارزاً من النفور من المجتمع وقد عبروا عن هذا الشعور بصراحة⁽⁷⁾.

يقول الشنفرى مصرحاً بتصميمه على ترك الناس، والهجرة عنهم إلى الصحراء الموحشة، فهو يستبدل بني البشر، ويفضل العيش مع مجتمع الوحوش، الوحوش التي

(1) ديوان الهذليين : 312 .

(2) وسطان : اسم موضع، أي خرجت أعدو ولم أقاتل .

(3) الأغاني ، جزء 13 : 216 .

(4) الأثائب : جمع أثاب ، وهو شجر ينبت في بطون الأودية .

(5) الأغاني ، جزء 21 : 233 .

(6) قاظت : أتت عليها قيظة أي صيفة . ، القيظ: الصيف .

(7) أنظر شعر الصعاليك . د. عبد الحليم حفني ، ص 283 الهيئة المصرية للكتاب .

أصبحت أهله، فلا تخذله، ولا تفشي له سرّاً، فهناك يجد متنسحاً من الحياة، وأمناً ممن يخاف
يقول⁽¹⁾:

أقيموا بني أممي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ فأني إلى قوم سواكم لأميلُ
فقد حُمّت الحاجات والليل مَقْمَرٌ وشدّت لطيّات مطايا وأرْحَلُ⁽²⁾
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلي متعزّلُ⁽³⁾
ولي دُونكم أهْلون سيّد عمْلَسُ وأرْقَطُ زُهْلوك وعرفاء جِيَالُ⁽⁴⁾
همُ الأهل لا مستودع السرّ ذائِعٌ لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخْذَلُ⁽⁵⁾

ويصور لنا الشنفرى حياة المطاردة، بسبب جنائياته العديدة، فهو لا يستطيع النوم مطمئناً، هادئ البال، لأنه يعلم أن هناك من يترصده، ويسعى في طلبه ليل نهار، وهذا ما جعل الشنفرى يشعر شعوراً عميقاً بمدى العزلة التي يعانيتها، حيث لا مفر من حياة المطاردة التي فرضت عليه، يقول⁽⁶⁾:

طريدُ جنّيات تياسرن لحمه عقيرته لأيهما حمّ أولُ⁽⁷⁾
تنام إذا ما نام يقظى عيونها حثّاثاً إلى مكروهه تتعجلُ⁽⁸⁾

ويصور مالك بن الريب حياة الخوف، والشعور بالرهبة، والفرع من الوحدة الموحشة، حيث العيش في الصحراء المقفرة بعيداً عن الناس⁽⁹⁾:

أدّجّت في قمة ما إن أرى أحداً حتى إذا حان تعريس لمن نزلأ
وضعت جنبي وقلتُ الله يكلّوني مهما تمّ عنك من عين فما غفلا
والسيف بيني وبين الثوب مشعره أخشي الحوادث إنني لم أكن وكلا
ما نمّت إلا قليلاً نمته شئزاً حتى وجدتُ على جثمانى الثقلا⁽¹⁰⁾
أما تري الدار قفراً لا أنيس بها إلا الوحوش وأمسى أهلها احتملا؟

(1) ديوان الصعاليك : 38-39 .

(2) حُمّت : تهيّأت ، - الطيات : الحاجات ، - مطايا وأرْحَل : نياق مجهزة للرحيل .

(3) القلي : البغض - العداوة .

(4) السيد : الذئب ، العملس : القوي - الأرقط : صفة النمر - زهلول : أملس ، جيال : ضبع .

(5) بما جر : بما ارتكب .

(6) ديوان الصعاليك : 45 .

(7) تياسرن : إقتسمته بالميسر - عقيرته : جثته أو روحه ، - حمّ : مُدرٌ .

(8) الضمير عائد إلي الجنائيات ، - حثّاثاً : سراعاً .

(9) الأغصاني الجزء : 22 : 311 - 312 .

(10) الشئز : الفلق .

ويتمني عبيد بن أيوب العنبري أن يذوق طعم الأمن ولو للحظة واحدة ، وذلك بعد أن أصبح طريداً للسلطان ، مما أجبره علي العيش في الفلوات وحيداً خائفاً قلقاً مترقباً كل أمر، يقول(1):

أذقني طعم الأمن أو سل حقيقة علي وإن قامت ففصل بنا نيا
خلعت فؤادي فأستطير فأصبحت ترامي به البيد القفار تراميا

وبصرح عبيد بن أيوب مشيراً إلي سبب خوفه ، بأنه يشعر بأن كل شيء من حوله عدو مطارده متعقب له، حتى طيران الحمامة يظنه عدواً، وحتى أصبح لا يصدق إلا حديث الخوف ولا يثق في أحد.

لقد خفت حتى لو تطير حمامة لقلت عدو أو ظليعة معشر
فإن قيل خير قلت هذى خديعة وإن قيل شر قلت حقاً فشمسر
وخفت خليلي ذا الصفاء ورابي وقلت فلاناً أو فلانة فـا حذر (2)

بل العجيب أنه وصل به هذا الشعور لدرجة أنه يطلب من ظباء الوحش أن تخفيه فيقول(3):

ألا يا ظباء الوحش لا تشمتن بي وأخفني إن كنت فيكن خافيا

هذه الحياة التي فرضت على الصعاليك، إلا أن هذا الشعور العميق بالخوف، والمطاردة، لم يكن ينقص من شجاعة هؤلاء وبأسهم ، بل كان محط فخر واعتزاز، حيث أن العيش في مجاهل الصحراء وقفارها، لا يقوى عليه إلا رجال أشداء أقوياء ، لديهم من الصبر والتحمل ما ليس عند غيرهم .

يصور لنا عبيد بن أيوب جانباً من حياته في الصحراء برفقة الوحوش، مصرحاً بشجاعته وبأسه حيث يقول(4):

وقد لقيت مني السباع بليّة وقد لقيت الغيلان مني الدواهي
ومنهن قد لقيت ذلك فلم أكن جباناً إذا هول الجبان اعترانيا
أذقت المنايا بعضهن بأسهمي وقددن لحمي وامتشقن رداييا

إن الصعلوك لا يرى بأساً في الفرار من أعدائه إذا كان لا قبل له بهم، حيث يكون الفرار حاجة ملحة ، تضمن له البقاء على قيد الحياة، كي يعاود الكرة مرة ثانية ، وهو يفتخر بفراره وسرعة عدوه الذي يتميز به ، وينفوق على أعدائه به، ثم إنه لا يجد البعد عن

(1) الشعر والشعراء : جزء 2 : 668 - 669 .

(2) شعر الصعاليك : د/ عبد الحليم حفني ص 286 .

(3) الشعر والشعراء : جزء 2 : 669 .

(4) الشعر والشعراء ، الجزء 2 : 669 .

الناس أمراً مخجلاً ، أو معيباً ، حيث أن الحياة بعيداً في مجاهل الصحراء ، إنما فرضت على الصعاليك فرضاً، لطبيعة علاقتهم بالمجتمع ، لذلك طالما افتخروا، بقدرتهم على العيش في أماكن لا يقدر غيرهم على العيش فيها، وكل هذه الأمور طبيعية في مجتمع الصعاليك، الذين يقاتلون ويغزون في أعداد قليلة وليس في جيوش جرّارة.

إنه يرى أن الفرار من المعركة، قد يكون أمراً طبيعياً في بعض الحالات التي يكون فيها الخطر محدقاً، ولا قبل للإنسان بمواجهته، إنه قرار المقاتل الشجاع لا الجبان الرعديد، فإذا ما اتهم بالجن فإنه يسارع إلى نفي ذلك، مذكراً بصفاته التي يتصف بها، في قتال أعدائه، يقول أبو خراش⁽¹⁾:

فإن تزعمي أنني جبت فإنني أفر وأرمي مرة كل ذلك
أقاتل حتى لا أرى لي مقاتلاً وأنجو إذا ما خفت بعض المهالك

فالشاعر هنا لا ينفى الفرار، ولكنه فرار الفارس الشجاع الذي لا يكف عن القتال، لا فرار الجبان الخائف.

إن الزوجة تحب أن ترى زوجها على أكمل صورة، تحب أن يكون شجاعاً فلا يجبن، صبوراً لا يجزع، وفيها لا يغدر، لا يتخلى عن أصحابه في ساحات الوغى، وكي تكتمل الصورة لديها، فإنه يجب عليه ألا يخلف وعده الذي وعده، وعهده الذي عاهد عليه، فإن فعل ذلك سارعت المرأة إلى تذكيره بهذا الوعد مثلما فعلت زوجة الشنفرى، حين ذكرته بعهده الذي قطعه على نفسه، بأن يقتل من بني سلامان مائة رجل مقابل مقتل أبيها، وقالت له خست بميثاق أبي عليك فقال⁽²⁾:

كأن قد فلا يغرك مني تمكثي سلكت طريقاً بين يربع فالسرد⁽³⁾
وإني زعيم أن تثور عجاجتي على ذي كساء من سلامان أو برد⁽⁴⁾
وأمشي لدى العصداء أبغي سراتهم وأسلك خلا بين أرفاغ والسرد⁽⁵⁾
هم أعدموني ناشئاً ذا مخيلة أمشي خلال الدار كالفرس الورد⁽⁶⁾

(1) ديوان الهذليين : جزء 2 : 169 .

(2) الأغاني، جزء 21 : 216 ، ديوان الصعاليك : 24

(3) يربع : اسم موضع لبني تميم ، - السرد : موضع للأزد .

(4) زعيم : كفيل ، - ألف عجاجتي : أن أعير ، - ذو كساء : كناية عن الفقير ، - ذو برد : كناية عن

الغنى .

(5) العصداء : ماء لبني سلامان ، - السرة : رؤساء القوم وأشرفهم - الخل : الطريق المرمل - أرفاغ

والسرد : جبلان لبني سلامان .

(6) أعدموني ناشئاً : كناية عن سببه صغيراً ، - ذو مخيله : ذو خيلاء ، وهو كناية عن جهله بالأمور .

كأني إذا لم يُمس في الحي مالك
 إن الشنفرى يخبر زوجته، أنه لم ينس عهده، ولم يتغافل عنه، بل إنه عازم على البر
 به وإنفاذه، لذلك نجده يخبرها بما سيفعل، معتداً بنفسه، واثقاً من قدراته، مؤمناً بقضيته،
 والزوجة ترى أنه من الشجاعة ألا ينام الرجل على ضيم، ولا يتفاحس عن ثأر، ولا
 يتخلى عن حق ، وربما تجد أنه من الوفاء لزوجها ألا يتناسى ثأره فهذه أميمة امرأة عروة
 بن مرة تدخل على أبي خراش وهو يلعب ابنه، فتقول له : يا أبا خراش تناسيت عروة
 وتركت الطلب بثأره، ولهوت مع ابنك، أما والله لو كنت المقتول، ما غفل عنك، ولطلب
 قاتلك حتى يقتله، فلما سمع ذلك أبو خراش بكى، وأنشأ يقول لها أنه لم يتناسى عهد أخيه
 وثأره، ولكنه رجلٌ صبور، ينتظر الوقت المناسب للأخذ بثأره يقول(1):

لعمري لقد راعت أميمة طلعتي
 وقالت أراه بعد عروة لا هياً
 فلا تحسبي أني تناسيت عهده
 ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنا
 أبى الصبر إنى لا يزال يهيجني
 وإنى إذا ما الصبح آنتت ضوءه
 وإن ثوائى عندها لقليل(2)
 وذلك رزء لو علمت جليل
 ولكن صبري يا أميم جميل
 نديما صفاء مالك وعقيل
 مبيت لنا فيما خلا ومقيل
 يعاودني قطع علي ثقيل

(ت) حرصها على ماله وعياله:

إن في شعر الصعاليك نماذج تتحدث عن حرص الزوجة على مال زوجها ولومها له
 على إنفاقه، حيث كانت تحرص على القصد في إنفاقه، فالصعاليك كانوا يحبون الجود
 والكرم، ويحاولون إقناع زوجاتهم بذلك، وربما لا يطيق الصعلوك لوم زوجته، ويضيق به
 ذرعاً إذا ما تمادت في لومها، وقد يصل به الأمر إلى التهديد بالرحيل عنها في مجاهل
 الصحراء كما يقول تأبط شراً(3):

بل من لعدالته خذالة أشب
 تقول أهلكت مالا لو قنعت به
 أعاذلتي إن بعض اللوم معفة
 إنى زعيم لئن لم تتركي عدلي
 حرق باللوم جدي أي تحراق
 من ثوب صدق ومن بز وأعلاق
 وهل متاع وإن أبقيته بساق
 أن يسأل الحي عنى أهل آفاق

(1) الأغاني جزء 21 : 247 .

(2) ثوائى : مكثي .

(3) المفضليات : 30 ، ديوان الصعاليك : 148 .

أَنْ يَسْأَلَ الْقَوْمَ عَنِّي أَهْلَ مَعْرِفَةٍ فَلَا يُخَبِّرُهُمْ عَنْ ثَابِتٍ لَأَقْسَى
لَتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السِّنُّ مِنْ نَدَمٍ إِذَا تَذَكَّرْتُ يَوْمًا بَعْضَ أَخْلَاقِي

إن حرص الزوجة على المال، وحبها له، قد يجعلها تتخلى عن بعض حذرها من بعض الأخطار التي قد تلم بزوجها، فتأمره بالمخاطرة من أجل المال، المال الذي يجعل لصاحبه هيبة، في مجتمع لا يعترف بالفقراء، وهنا تكون المخاطرة بالنفس أمراً محتوماً أمام قسوة الواقع المعاش، وربما تكون ضرورات الحياة واقتناص العيش سداً للحاجة، ودرءاً لخطر الموت جوعاً وراء حث كثير من الزوجات أزواجهن للخروج من أجل طلب الزرق، رغم علمهن بما يحدث بهن من أخطار، ولكنه الأمر الذي لا بد منه، يقول عروة⁽¹⁾:

قَالَتْ تُمَاضِرُ إِذْ رَأَتْ مَالِي خَوِي وَجِفاَ الْأَقْرَابُ، فَالْفَوَادُ قَرِيحُ
مَالِي رَأَيْتُكَ فِي النَّدِيِّ مَنْكَسَاً وَصَبَاً، كَأَنَّكَ فِي النَّدِيِّ نَطِيحُ
خَاطِرُ بِنَفْسِكَ كِي تَصِيبَ غَنِيمَةً؛ إِنَّ الْقَعُودَ، مَعَ الْعِيَالِ قَبِيحُ
الْمَالُ فِيهِ مَهَابَةٌ وَتَجَلَّاةٌ وَالْفَقْرُ فِيهِ مَذَلَّةٌ وَفُضُوحُ

إن العلاقة بين الفرد والمجتمع مرهونة بما يملكه الفرد، فتماضر أدركت أن المجتمع يجل الأغنياء، ولا يعبأ بالفقراء، لذلك هبت تحت زوجها على المخاطرة من أجل المال، الذي يعلو به شأنه، وتسمو مكانته.

إن عروة يرفض أن يكون الثراء هو أساس السيادة والتقدم حين يقول⁽²⁾:

مَا بِالثَّرَاءِ يَسْوَدُ كُلَّ مَسْوُودٍ مَثْرٍ وَلَكِنْ بِالْفِعَالِ يَسْوَدُ

فالمرء يسود بفعاله لا بماله كما يرى عروة.

ويتمثل حرص الزوجة على مال زوجها، في هذه الصورة التي رسمها لنا عروة بن الورد، الذي يأبى إلا أن يكرم ضيفه، حتى وإن أغضب ذلك زوجته، التي تبيت ولها كتيت، فيتساءل، أمن أجل ناقة مسنة أطعمتها للفقراء، تنام أم وهب غاضبة له شخير كصوت غليان القدر⁽³⁾:

أَفِي نَابٍ مَنَحْنَاهَا فَقِيرًا لَهُ بَطْنَانِيَا طَنْبٌ مُصَيْتُ⁽⁴⁾
وَفُضْلَةٌ سَمَنَةٌ ذَهَبَتْ إِلَيْهِ وَأَكْثَرُ حَقِّهِ مَا لَا يُفُوتُ⁽⁵⁾

(1) الديوان : 54 .

(2) الديوان : 57 .

(3) الديوان : 49 ديوان الصعاليك : 61- 62 .

(4) الناب : الناقة المسنة، - طناب، جمع طناب: حبل تشدُّ به الخيمة والوتر، - مُصَيْتُ : مسموع صوته .

(5) السمنة : السمن .

تَبَيَّتْ عَلَى الْمِرَافِقِ أُمٌ وَهَبٌ وَقَدْ نَامَ الْعَيُونُ لَهَا كَتَيْتٌ (1)

إن غضبها ليس مبرراً عند عروة، لأنها تعلم أخلاقه، وأن الكرم خصلة مستحكمة منه، فهو كريم في غناه وفقره، لأن الكرم من شيم الكرام، السادة الشرفاء، الذين يحيون لقضاء حاجات الآخرين، ولا يحيون لأنفسهم، يقول (2):

وَقَدْ عَلِمَتْ سَلِيمَى أَنْ رَأَيْتُ وَرَأَيْتُ الْبَخْلَ مُخْتَلَفًا شَتَيْتُ
وَأَنْتِ لَا يَرِينِي الْبَخْلَ رَأْيٌ سَوَاءٌ إِنْ عَطَشْتُ، وَإِنْ رَوَيْتُ
وَأَنْتِ حِينَ تَشْتَجِرُ الْعَوَالِي حَوَالِي اللَّبِّ، ذُورَأْيِ زَمَيْتُ (3)
وَأَكْفِي، مَا عَلِمْتُ بِفَضْلِ عِلْمٍ وَأَسْأَلُ ذَا الْبَيَانِ إِذَا عَمِيَتْ

إن الصعلوك إلا يحب أن يلومه أحد في خصلة يعتز بها، ويراهما مبدأ راسخاً من مبادئه في الحياة، لذلك يطلب من زوجته أن تسأل عنه ضيوفه الذين يطرقون الباب ليلاً، فتعلم كيف يقابلهم بوجه مشرق، ويعجل لهم بالطعام يقول عروة (4):

سَلِي الطَّارِقِ الْمُعْتَرِيَا أَمْ مَالِكٌ إِذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ قَدْرِي وَمَجْزَرِي (5)
أَيْسَفِرُ وَجْهِي، إِنَّهُ أَوَّلُ الْقَرْيِ وَأَبْذُلُ مَعْرُوفِي لَهُ دُونَ مَنكَرِي (6)

لقد كان الصعلوك مرناً في علاقته بزوجته، يخاطبها في لين ورفق، ويحاول أن يسوغ لنفسه سلوكاً، فهي إن أظهرت البخل، وأمسكت يدها عن المعروف حيال الآخرين أمرها بالبذل والعطاء، وإن أبدت جفاء في معاملتها له، وتأسفت على زواجها منه، وأنكرته، لفقره وبذله المال للمحتاجين، قابل تصرفها هذا بحكمة، وخاطبها برفق، علها تثوب إلى رشدها، وعدد لها خصاله وصفاته، ووصف لها طرق عيشه، علها تتعرف إلى طبيعة حياته القاسية فتكف عن تنكيدها وسوء تصرفاتها، وخير من يمثل هذه الحال أبو خراش في ميميته التي يقول في مطلعها (7):

لَقَدْ عَلِمْتُ أَمْ الْأَدْيِيـــرِ أَنْتِي أَقُولُ لَهَا: هَدِي وَلَا تَذْخَرِي لِحْمِي
فَإِنْ غَدَا إِنْ لَا نَجِدُ بَعْضَ زَادِنَا نَفِيءُ لَكَ زَاداً أَوْ نَعْدُكَ بِالْأَزْمِ

(1) المرافق: جمع مرفق، الموصل بين الساعد والعضد، - الكتيت: صوت غليان القدر، - أم وهب: زوجته .

(2) الديوان: 50، ديوان الصعاليك: 62 .

(3) حين تشتجر العوالي: يختلط بعضها ببعض في الحرب، اللب: العقل، الزميت: أي الجليل الوقور .

(4) الديوان: 87، ديوان الصعاليك: 92 .

(5) الطارق: القادم ليلاً، المُعْتَرِ: الذي يأتي للمعرف من غير سؤال .

(6) يسفر: أي يشرق، المنكر: القبيح والعمل الرديء، ومضادة المعروف .

(7) ديوان الهذليين، جزء 2: 125 - 132 .

وقد رسم في قصيدته هذه صورة دقيقة لجوانب الحياة الزوجية، عبر من خلالها عن النفور وسوء العلاقة وعدم الانسجام بين الزوجين، وبين فيها الملامح السلبية لصورة الزوج، ورصد فيها بعض مواقفها الخاطئة المتمثلة في إثارة المعضلات الأسرية وغيرها.

(ث) عصبية الزوجة وعلاقتها بأهلها :

إن زواج المرأة لا يقطع صلتها بأهلها، وعلاقتها بهم، فروح العصبية عند العرب كانت قوية، ولهذا نجد الزوجة في الشعر الجاهلي يكون لها ضلع مع أهلها فتشعر بشعورهم، وتميل ميلهم، فإذا ما نشبت حرب بين حي أهلها وحي زوجها فهي برغم إخلاصها الشديد لزوجها كانت، مدفوعة بدافع العصبية القبلية، تميل مع قبيلتها، وهذا هو موقف جلييلة أخت جساس في حرب البسوس وموقف امرأة من بني النجار في حرب الأوس والخزرج. فكانت الزوجة لا تدخر جهداً في إبلاغ قومها بنية أعدائهم إذا ما أرادوا بهم شراً، فكانت تخبرهم بالأسلوب الصريح، وإن تعذر عليها أخبرتهم بالرموز حتى تفهمهم الأمر، وقد حصل في حرب زهير بن جناب مع بني القين بن جسر أن أرسلت إحدى أخوات زهير وكانت متزوجة في بني القين " فجاء رسولها إلى زهير ومعه برد فيه صرار رمل وشوكة قتاد، فقال زهير لأصحابه أتكم شوكة شديدة وعدد كثير فاحتملوا ". وكان أهل الزوجة بدورهم لا يقطعون صلتهم بفتاتهم التي تزوجت في قبيلة أخرى، وهم يتفقدون أحوالها، ويمدون إليها يد المعونة عند الحاجة ووقت الشدة⁽¹⁾.

ومن أشعار النساء في عشائرهن قول الخرنق بنت بدر⁽²⁾:

لا يبعدن قومي الذين هم	سُم العداة وآمة الجُزر ⁽³⁾
النازلون بكل معترك	والطيبين معاقدا الأزر ⁽⁴⁾
الضاربون بحومة نزلت	والطاعنون بأذرع شعير
إن يشربوا يهبوا، وإن يذروا	يتواظفوا عن منطق الهجر ⁽⁵⁾

(1) أنظر المرأة في الشعر الجاهلي . علي الهاشمي ، ص 178 - 179 .

(2) ديوانها، رواية أبي عمرو بن العلاء، تحقيق يسري عبد الغني عبد الله، ص 43 - 46 . دار الكتب العلمية - بيروت .

(3) لا يبعدن قومي : لا يهلكن قومي .- العداة : جمع عاد ، - آفة الجزر : الآفة العلة ، الجُزر : جمع جزور والمراد بآفة الجزر : أنهم كانوا يكثرن نحر الجزر للضيوف .

(4) المعترك : موضع القتال، - الأزر : (بضم الهمزة وسكون الزاي) جمع إزار ، - المعاهد : موضع عقد الإزار .

(5) الهُجر : المنطق الفاحش .

قوم إذا ركبوا سمعت لهم
من غير ما فحش يكون بهم
هذا ثنائي مـا بقيت لهم
وقالت عاتكة بنت عبد المطلب تفخر بيوم عكاظ (4):

سائل بنا في قومنا
قيساً وما جمعوا لنا
فيه السنور والقتا
بعكاظ يعشى الناظر
فيه قتلنا مالكمـاً
ومجدلاً غادرناه
وكفاك من شر سماعه
في مجمع باق شناعه
والكبش ملتمع قناعه (5)
ن إذا هم لمحو شناعه (6)
قسراً وأسلمه رعا
بالقاع تنهشه ضباعه

وتتضح عصبية الزوجة، ومدى انتمائها لأهلها وذويها، في قصة زوجة عروة بن الورد، التي فضلت الرجوع إلى أهلها على البقاء عند زوجها وأطفالها، حيث يروى أن عروة (7) أصاب امرأة من كنانة بكراً يقال لها سلمى، وتكنى بأُم وهب فأعتقها واتخذها لنفسه، فمكثت عنده بضع عشرة سنة، وولدت له أولاداً، وهو لا يشك في أنها أرغب الناس فيه، وهي تقول له لو حجبت بي، فأمر على أهلي وأراهم، فحج بها فأتى مكة ثم أتى يثرب، وكان يخالط من أهل يثرب بني النضير فيقرضونه إن احتاج ويباعهم إن غنم.

وكان قومها يخالطون بني النضير، فأتوهم، وهو عندهم، فقالت لهم سلمى : إنه خارج بي قبل أن يخرج الشهر الحرام، فتعالوا إليه واخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب، صحيحة سبية، وافقدوني منه، فإنه لا يرى أن أفاديه، ولا أختار عليه أحداً، فأتوه، فسقوه الشراب، فلما ثمل قالوا له : فادنا بصاحبتنا، فإنها وسيطة النسب فينا،

(1) اللغظ : الذي لا يكاد يفهم،- التأبيه : التصويت ، يقال : أيهتُ به : إذا صحت به ، - الزجر : يعنى

زجر الخيل .

(2) المهرات : جمع مَهْرَة ، والمهر : تريد به جنس الأمهار .

(3) تقول إني إذا أجنني قبري بقي عليهم ثنائي وشعري .

(4) المرأة العربية عبد الله عفيفي جـ 1 : 193 .

(5) السنور الدروع أو جملة السلاح ، وقناع الفارس بيضته .

(6) الباء في بعكاظ متعلقة بقولها مجمع ، ويجوز أن تكون متعلقة بملتمع ، ويعشى الناظرين أي يخطف

أبصارهم .

(7) الأغاني جـ 3 : 72 وما بعدها .

معروفة، وإن علينا سبة أن تكون سبية، فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها، فاخطبها إلينا، فإننا تتحكك.

فقال لهم : ذاك لكم، ولكن لي الشرط فيها أن تخيروها، فإن اختارتنى انطلقت معي، إلى ولدها، وإن اختارتكم انطلقتم بها . قالوا : ذلك لك.

قال: دعوني الليلة وأفاديها غداً . فلما كان الغد جاؤوه فامتنع من فدائها ، فقالوا له: قد فاديتنا بها منذ البارحة، وشهد بذلك جماعة ممن حضر، فلم يقدر على الامتناع وفادها . فلما فادوه بها خيروها فاختارت أهلها . ثم أقبلت عليه فقالت : يا عروة أما إنني أقول فيك، وإن فارقتك، الحق، والله ما أعلم امرأة من العرب ألفت سترها على بعل خير منك، وأغض طرفاً وأقل فحشاً، وأجود يداً وأحمى للحقيقة.

وما مرّ علي يوم، مذ كنت عندك، إلا و الموت فيه أحب إلي من الحياة بين قومك لأنني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا، إلا سمعته ، والله لا أنظر في وجه غطفانية أبداً، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم ، فقال عروة في ذلك⁽¹⁾:

أرقتُ وصُحبتِي، بمضيقِ عمقٍ	لبرق، في تهامة، مستطير ⁽²⁾
إذا قلتِ استهل على قديد	يحوّرُ ربابُهُ حور الكسير ⁽³⁾
تكشف عائد بلقاء، تنفسي	ذكور الخيل عن ولدِ شفور ⁽⁴⁾
سقى سلمى، وأين ديار سلمى	إذا حلت مجاورة السرير ⁽⁵⁾
إذا حلت بأرض بني عليّ	وأهلي بين زامرة وكير ⁽⁶⁾
ذكرت منازلًا من أم وهب	محل الحي أسفل ذي النقيير
وأحدث معهداً من أم وهب	معرسنا بدار بني النضير ⁽⁷⁾
وقالوا: ما شاء؟ فقلت ألهو	إلى الأصباح، أثر ذي أثير

(1) الديوان : 62-64 . ،ديوان الصعاليك : 75 - 77 .

(2) عمق : اسم بلدة بالمدينة ، مستطير : منتشر .

(3) قدير : مكان قريب من مكة، - استهل : صات ،- ربابة : سحابة - يجور : يرجع ، - الكسير : البطيء في المشي .

(4) العائد : الحديثة النتاج ،- سفور : الشفر هو رفع الرجلين .

(5) السرير : اسم مكان في بلد بني كنانة .

(6) بنو علي : قوم من بني كنانة - زامرة وكير : موضعان .

(7) أم وهب : كنية زوجته . - ذو النقيير : اسم موضع لبني القين ولبني كلاب .

بأنسة الحدث، رضاب فيها	بعيد النوم، كالغنب العصير ⁽¹⁾
أطعت الأمرين بصرم سلمى	فطاروا في عضاه اليستعور ⁽²⁾
سقوني النسئ، ثم تكنفوني	عادة الله مــــن كذبٍ وزور ⁽³⁾
وقالوا: لست بعد فداء سلمى	بمغن، ما لديك ، ولا فقيــــر
ألا وأبيك، لو كاليوم أمرى	ومن لك بالتدبرُ في الأمــــور
إذاً لملكتم عصمة أم وهب	على ما كان من حسك الصدور ⁽⁴⁾
فيا للناس كيف غلبت نفسي	على شيء، ويكرهه ضميري
ألا يا ليتني عاصيت طلقاً	وجباراً، ومن لي من أمير ⁽⁵⁾

إن هذه المرأة الكنانية فضلت العودة إلى قومها، والعيش في كنفهم، تاركة خلفها أطفالاً خمسة، وزوجاً أحبها وأحبته، وعاشت معه خمسة عشر عاماً، وكان معها نعم الزوج، وهذا يظهره ما قالت فيه عند فراقه، في القصة السالفة الذكر، كما يظهر حب عروة لها جلياً في بكائه عليها، ولوعته على فراقها، وندمه على مفاداتها ورب قائل يقول، إنما تركته لأنها كانت سبية، وهذا تنفيه القصة السالفة، كما أن في أخبار العرب الكثير من القصص التي تدل على أن بعض النساء فضلن البقاء مع أزواجهن على العودة لأهلهن، ومنهن ابنة قيس بن عاصم، التي رفضت العودة مع أبيها حين خيرها النعمان⁽⁶⁾. كذلك بقيت ريحانة بنت معد يكرب الزبيدي، أخت عمرو بن معد يكرب عند الصمة وأنجبت له دريد بن الصمة، وكان سيد بني جشم وقائدهم، وإخوته عبد الله وعبد يغوث وقيس وخالد . وولدت زوجة ثور بن حارثة في الجاهلية أربعة نفر كانوا من أشد العرب لساناً ويدا، وأمنعهم جانباً في الجاهلية والإسلام، حتى كانوا يأخذون هُذباً من قطيفة أمهم ويلقونه على الماء فلا يرده أحد⁽⁷⁾.

وفي قصة مماثلة روى ابن الأعرابي⁽⁸⁾ أن عروة كان قد سبى امرأة من بني هلال بن عامر بن صعصعة يقال لها ليلي بنت شعواء، فمكثت عنده زمناً، وهي معجبه له، تريه أنها تحبه، ثم استزارته أهلها، فحملها حتى أتاهم بها، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه،

(1) الأنسة : التي لا نتقر - رضاب فيها : ريق فمها .

(2) اليستعور : اسم موضع .

(3) النسئ : المُسكر .

(4) الحسك : الخشونة والغل والعداوة .

(5) طلق وجبار : أخوة وابن عمه .

(6) أنظر المرأة العربية ، عبد الله عفيفي ج 1 : 44 .

(7) أنظر المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي ، ص 485 .

(8) الأغاني : جزء 3 : 77 .

وتوعده قومها بالقتل، فانصرف عنهم، وأقبل عليها وقال لها : يا ليلي خبري صواحبك
عني كيف أنا ، فقالت: ما أرى لك عقلاً، أتراني قد اخترت عليك، وتقول خبري عني ؟
فقال في ذلك (1):

وتأنت عليها بالملا كنت أقدار (2)	تحنُّ إلى ليلي بحرّ بلادها
تُحاولُ ليلي أنْ أهَابَ وأحصراً (3)	يحلُّ بوادٍ من كراءٍ مُضَلِّيةٍ
وقد جاورت حياً بتيمن منكر (4)	وكيف تُرجِّيها وقد حيل دونها
وإمّا عراض السعادين مصدراً (5)	تبعاني الأعداءُ إما إلى دمٍ
له العدوّة الأولى، إذا القرنُ أصحراً (6)	يظلُّ الأباءُ ساقطاً فوق متنه
من اللأء تسكن العرين بعسراً (7)	كانّ خوات الرعدِ رزءُ زئيره
وعن لنا من أمرنا ما تيسراً (8)	إذا نحنُ أبردنا وردت ركابنا
وصبري، إذا ما الشيءُ ولى فأدبراً (9)	بدالك مني، عند ذاك صر يمتي
لجارتها ما إن يعيش بأحوراً (10)	وما أنسم الأشياء لا أنس قولها
علي بما جشمتني يوم غصوراً (11)	لعلك يوماً أن تسري ندامة
لي اليوم أدنى منك علماً وأخبراً (12)	فغربت إن لم تخبريهم فلا أرى
كريماً إذا اسود الأنامل أزهراً (13)	قعيدك، عمر الله، هل تعلميني

(1) الديوان : 65 - 66 ، ديوان الصعاليك : 78 - 80 .

(2) بحرّ بلادها : بين قومها ، - الملا : الأرض الواسعة (في الصدرين السابقين سلمى بدل ليلي) وفي الأغاني ليلي وهو الأصوب .

وأشار ديوان الصعاليك إلى الروايتين بليلى وسلمى في الحاشية .

(3) كراء : أرض تكثر فيها الأسود . - أحصراً : أصيف عن ذلك ، أعجزه ز

(4) تيمن : أرض قريبة من جرش ، وقيل في بلاد اليمن ، - منكر : غير معروف .

(5) عراض الساعدين : يراد به الأسد .

(6) الأباء : القصب ، أي أن هذا الأسد يسكن الغياض ، ويتساقط القصب على فتنة .

(7) خوات الرعد : شبه صوت زئير الأسد بصوت الرعد ، - الخوات : صوت الرعد . - عُصْر : مكان مأسدة .

(8) ردت ركابنا : ردت ما شيتنا من الرعي ، - عن لنا : عرض لنا .

(9) صريمتي : أي مضائي وعزيمتي في الأمور .

(10) بأحورا : هو في هذا الموضع العقل ن يقال للرجل : ما إن يعيش بأحور ، أي ذهب عقله .

(11) تسري : تظهر ، عضور : ماء لطئ ، - جشمتني : حملتني .

(12) فغربت : يدعو عليها بالبعد حتى تصير غريبة .

(13) معيدك : قسم يعني به : اذكرك - عمر الله : بقاء الله .

صبوراً على رزء الموالي وحافظاً
لعرضي، حتى يؤكل النبت أخضراً⁽¹⁾
أقب ومخماص الشتاء مـرزأ
إذا اغبر أولاد الأذلة أسفراً⁽²⁾

وفي حادثة أخرى تتجلى عصبية المرأة لأهلها وقومها من العرب، ولا ترضى أن يبتغى شيء من قدرها ومكانتها، وتغضب إذا ما حاول أبناء الإماء التطلع إليها وهي ابنه الأشراف، فهذه ابنة السهمي تلطم الشنفرى على وجهه لأنه قال لها : اغسلي رأسي يا أخيه، وهو الذي تربى معها صغيراً، إلا أن هذه التربية لم تنسها نفسها، وقدرها، ولم تنسها أنه مولى ابن أمة، وفي ذلك يقول الشنفرى مفتخراً بنسبه وأمه⁽³⁾:

ألا هل أتى فتیان قومي جماعةً
ولو علمت قعوس أنساب والدي
بما لطمت كف الفتاة هجينها⁽⁴⁾
وولدها ظلت تقاصر دونها⁽⁵⁾
أليس أبي خير الأواس وغيرها
إذا ما أروم الودد بيني وبينها
يوم بياض الوجه مني يمينها

وتعيب زوجة الشنفرى عليه تراخيه في الأخذ بالثأر لأبيها ممن قتلوه، حيث أن بني سلامان قتلوا والدها لأنه زوجها منه، وكان الشنفرى قد وعده إن قتلوه، ليقتلن منهم مائه، فلما بلغ الشنفرى مقتله، سكت ولم يظهر جزعاً عليه، وطفق يصنع النبل، ويجعل أفواقها من القرون والعظام، ثم إن امرأته بنت السلاماني قالت له ذات يوم : لقد خسئت بميثاق أبي عليك، فجعل يغزوهم ويقتلهم، ويعرفون نبله في قتلهم، حتى قتل منهم تسعة وتسعين رجلاً . وفي هذه الحادثة يقول⁽⁶⁾:

كأن قد فلا يُعْررُك مني تمكثي
وإني زعيمٌ أن ألف عجاجتي
سلكت طريقاً بين يربع فالسرد⁽⁷⁾
على ذي كساء من سلامان أوبرد⁽⁸⁾
وأسلك خلا بين أرفاغ والسرد⁽⁹⁾
وأمشي لدى العصداء أبغي سراتهم

(1) رزء الموالي : أي منالهم مني .

(2) ديوان الصعاليك : 53 - 54 .

(3) ديوان الصعاليك : 53 - 54 .

(4) الهجين : الذي أبوه عربي وأمه غير محصنة .

(5) قعوس : لقب للجارية، - تقاصر : تتقاصر .

(6) ديوان الصعاليك : 24

(7) يربع : اسم موضع لبني تميم ، - السرد : موضع للأزر .

(8) زعيم : كقيل - ألف عجاجتي : أن أغبر - ذو كساء : كناية عن الفقر ، - ذو برد : كناية عن الغنى ،

أي أنا كقيل بأن أغبر على الفقير من بني سلامان وعلى الغني .

(9) العصداء : ماء لبني سلامان - السرة : رؤوس القوم وأشرفهم - الخل : الطريق المرمل - أرفاغ

والسرد : جبلان لبني سلامان .

هم أَعْدَمُونِي نَاشِئاً ذَا مَخِيلَةٍ بِتَيْمَاءَ لَا أُهْدَى سَبِيلًا وَلَا أَهْدَى (1)

وهذا يصور لنا شيئاً من روح العصبية القبلية العنيفة التي كانت ضارية أطناها في الجزيرة حتى جاء الإسلام، فاستعاض عنها الناس بالنزعة الإسلامية التي تجعل المؤمنين في المعاملات أخوة أمام الله ودار الإسلام . وهو خير من العصبية التي كانت تستند إلى الدم وليس فيه فضل لإنسان على إنسان بخلاف العقيدة والرأي. على أن ميل الزوجة مع قومها وأهله لم يكن مطرداً عندهن كافة . فقد وجد بعض النساء ملن مع أهل أزواجهن وساعدنهم في الحرب على قبائلهن، فقد روي أن امرأة كانت متزوجة في بني عيس فأتاها أهلها ليضموها إليهم وأخبروها بعزمهم على الحرب ضد عيس فأعلمت بدورها زوجها، الذي أخبر قومه، واستعدوا فحصنوا مواقعهم ولم ينل منهم العدو شيئاً⁽²⁾.

(1) أَعْدَمُونِي نَاشِئاً : كناية عن سببه صغيراً - ذو مخيلة : ذو خيلاء

(2) انظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي ، ص 180 .

أولاً: الأم

لعل من أكثر النساء تأثيراً في حياة العربي عامة، والصعلوك خاصة، الأم، ولذلك لأنها هي التي تلد وتربي، وتزرع في ابنها الصفات الحسنة، والخلال الحميدة، لها ينتسب أحياناً وبها يفتخر، وعنها يذود، يخصها بأصفي المودة، وأنقى الحب، الحب الفطري الخالص ومع هذا كله فقد تكون الأم سبب معاناة وشفاء أبنائها، دون قصد منها، أو إرادة حيث أن الأبناء يحملون - قهراً وظلماً من المجتمع - أعباء وضاعة أنساب أمهاتهم، فيحيون حياة المعاناة الدائمة، نفسياً وجسدياً، الخ .

من أجل هذا كله رأيت أن أبدأ هذا الفصل بالأم من حيث مكانتها عند أبنائها، أثرها عليهم، وحبها لهم، وحبهم لها فخرها بهم، وفخرهم بها، كذلك مبيناً معاناة بعضهم بسببها .

1- مكانة الأم في الشعر الجاهلي :

الأم "هي منبتُ فتیان العرب، ومعقد فخرهم، ومثار حميتهم، ومستقى أدبهم، وملاذهم إن جدبهم الدهر، ومفرعهم إن أشكل عليهم الأمر، ومقولهم إن فدح الخطب، وعز المعين تلك هي الأم العربية موطن ثقة الأب، وفخر الابن وعز العشيرة، لقد نزع رسول الله ﷺ - بفخره وهو أكرم العالمين خليفة وأكملهم كمالاً - إلى أمهاته في الجاهلية فقال : " أنا ابن العواتك من سلیم " . وشبيهه بذلك قول علي ؓ للأشعث بن قيس وقد خطب إليه ابنته : غرک ابن أبي قحافة إذ أعطاك ابنته وليست من الفواطم من قريش، ولا العواتك من سلیم (1).

ليس عجباً بعد ذلك أن نرى كثيراً من القبائل العربية تنتسب إلى أمهاتها مثل خندف وجديلة، وبعيلة ومزينة، وعاملة، وعفراء، وباهلة، وسلول، وبنو رقاش، وبنو طفاوة، وبنو العبدية، وبنو طهية، وبنو حطي

وانتسب الملوك أيضاً إلى أمهم، فالمناذرة نسبوا إلى أمهم ماء السماء، وهي ماوية بنت عوف بن جشم ، ملكة العراق، وأم ملوكها، وإليها ينتهي جلال الجمال، وجمال الخلال، وعنها ورث ملوك العراق سناء الشرف، ومضاء الذكاء، وبها كان العرب يعتزّون، وباسمها يقسمون ويعتزمون .

ومن النساء العربيات التي اشتهرن بإنجاب الرجال الفرسان السادة في أقوامهم . فاطمة بنت الخرشب (أم الكملة) وأم البنين ابنة عامر بن عمرو، وهي التي قال فيها لبيد مفتخراً عند النعمان " نحن بنو أم البنين الأربعة " . وخبيفة بنت رياح الغنوية، وعاتكة بنت

(1) انظر المرأة العربية، عبد الله عفيفي ، جزء 1 ص 67 وما بعدها .

هلال السلمية، وهي أم هاشم، وعبد شمس، والمُطَلَّب . وريحانة بنت معد يكرب، وهي أم دريد بين الصمّة . وغيرهن كثير . وقد عرف العرب للأُم المنجبة قدرها فرفعوا من شأنها، وحفظوا لها حقها، فهي التي ولدت، وربت وهي التي تعهدت بزرع الخصال الحميدة، والمعاني النبيلة، في نفوس أبنائها، فأنشأتهم على الأخلاق الحسنة، والهمم العالية، والإقدام والشجاعة، والكرم وعزة النفس فحق لها بعد ذلك أن يُضرب بها المثل، فقالت العرب : " أنجب من مارية " (1) و " أنجب من فاطمة بنت الخُرْشَب " (2) وأنجب من أم البنين " (3) و " أنجب من خبيئة " (4) و " أنجب من عاتكة " (5).

وبعد فلقد أغرم العرب بأن يفخروا بنسبهم، وبأن يشيدوا بأبائهم، وأولعوا أيضاً بأن يباهوا بأمهاتهم، ويزهوا بحريتهن، وعراقة نسبهن، (6) يقول ربعة بن عبد ياليل في أمه قلابة الملقبة بالذبية (7):

إني لمن أنكرني ابن الذبيبة كريمة عفيفة منسوبة

وافخر المقدام بن زيد سيد بني حي بن خولان بأمه وأبيه فقال (8):

نمتنا إلى عمر وعروق كريمة وخولان معقود المكارم الحمد

وأمي ذات الخير بنت ربعة ضرية من عيص السماحة المجد

وضرية هذه هي بنت ربعة بن نزار، وهي أم خولان وإخوته بني عمر بن الحاف بن قضاة . ومدح حريث بن محفظ قومه بأمهاتهم الحرائر فقال (9):

بنو المجد لم تقعد بهم أمهاتهم وآباؤهم آباء صدق فأنجبوا

كذلك قال حاتم الطائي يمدح الحارث بن عمرو الجفني، وكان ملكاً، حيث لم يمنع الملكُ الملك من أن يُمدح بأمه، يقول (10):

أرجي فواضل ذي بهجة من الناس يجمع حزمًا وجوداً

نمته إمامة والحارثان حتى تمهل سبقتاً جديداً

(1) مجمع الأمثال ، للميداني : 4292، جزء 2 : 411 ، والمستقصى : 1643 : جزء 1 : 384 .

(2) مجمع الأمثال ، للميداني : 4293 ، جزء 2 : 411 ، المستقصى : 1643 : جزء 1 : 383 .

(3) مجمع الأمثال ، للميداني : 4294 ، جزء 2 : 412 ، المستقصى : 1639 : جزء 1 : 382 .

(4) مجمع الأمثال ، للميداني : 4295 ، جزء 2 : 412 ، المستقصى : 1641 : جزء 1 : 383 .

(5) مجمع الأمثال ، للميداني : 4296 ، جزء 2 : 412 ، المستقصى : 1642 : جزء 1 : 384 .

(6) انظر المرأة في الشعر الجاهلي، أحمد الحوفي : 79 وما بعدها .

(7) السابـق : 80 .

(8) السابـق : 80 .

(9) طبقات الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف 1952م ص 162 .

(10) ديوان حاتم الطائي : 72 .

ويفتخر ذو الإصبع العدوانى بأمه، حيث أنها سيدة حرّة وليست من الإماء وذلك في معرض ردّه على ابن عم له فيقول (1):

عني إليك فما أمّي براعيّة
ولا يخرجُ الكره مني غيرَ مأبِيّةٍ
ترعى المخاض ولا رأبي بمغبونٍ
ولا ألينُ لمن لا يبتغي ليني

وجاور حاتم الطائي بني زياد، في زمن الفساد، وكانت حرب الفساد في الجاهلية بين جديلة والغوث بن زياد بن عبد الله من بني عيس، فأحسنوا جوارهم، فقال يمدحهم بأهمهم فاطمة بنت الخرشب ملقباً إياها بالجنّية لأنها ولدت أسوداً أشداء لا تلد للإنسيه مثلهم (2):

لعمرك ما أضاع بنو زياد
بنو جنّية ولدت سيوفاً
نمار أببهم فيمن يضيع
صوارم، كلّها ذكرٌ صنيع
وجارتهم حصانٌ ماترتي
وطاعمة الشتاء، فما تجوع

لقد أدرك العرب أهمية الأم وأثرها البالغ في بنيتها فحرصوا على انتقاء الشريقات العفيفات، ذوات الحسب والنسب من النساء، لأن العرب كانت تعتقد أن الخال يورث ابن أخته بعض صفاته، يقول الشاعر حائثاً على استحسان اختيار الخال لذريته، لأن ابن الأخت نازع لا محالة إلى خاله فمشابهه :

عليك الخال إن الخال يسري
إلى ابن الأخت بالشبّه المبين (3)

ويحث شاعرٌ آخر على تخيير الخال للأبناء، فيقول مستعجباً، ممن لا يفعل ذلك :

عجبتُ من المبتاع غثاً لرخصه
عجبتُ من المستلم الخال لا بنه
وللغثُ مبتاعاً أقلُّ وأخسرُ
ولللشاةِ يرجو نسلها يتخيّرُ
لبنتك فاستكّرِمَ لبنتك خالها
فإنّ بدل الخال بالخال أعسرُ (4)

ويدعو شاعر آخر إلى السؤال عن أخلاق أب المرأة وخالها قبل الزواج منها فإنها لا بد مشابهة لهم (1):

(1) الشعر والشعراء ، الجزء 2 : 597 .

(2) ديوان حاتم الطائي : 98 .

(3) سمط اللآلي على أمالي القالي ، للبكري ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1935م - جزء 2 : 794 .

(4) النوار في اللغة، لأبي زيد الأنصاري ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، بيروت دار الشروق 1981م :

إذا كنت مرتاداً لنجك أمه بنفسك فانظر من أبوها وخالها
فاتهما منها كما هي منهما كما قيس من نعل بنعل مثالها

لقد ظلت العرب تعزو كثيراً من صفات الفتى إلى أخواله وهم يؤكدون على أهمية جانب الأم في توريث أبنائها الصفات الخُلقية والخُلقية، وهو رأي معروف، يقول أبو منصور الثعالبي : " قالوا : والدليل على أن نصيب الأمهات في الأولاد أكثر، وأنها على الشبه أغلب، إن أكثر ما تلد الأمهات الإناث ... والأم والخال عند العرب أنزغُ وأشدُّ جذباً للولد، لأن الأم والأب قد يستويان في وجوه، ثم تفضل الأم الأب في وجوه بعد ذلك " (2).

والدين الإسلامي لم يغفل هذه الحقيقة، بل أكد عليها حين أوصى ﷺ على تخير الزوجة ، فقال ﷺ " **تخيروا لنطفكم فإن النساء يلدن أشباه إخوانهن وأخواتهن** " (3).

وحذر ﷺ من المرأة التي نشأت نشأة سيئة، لأنها لا محالة مؤثرة في أبنائها فقال " **إياكم وخضراء الدمن** " وخضراء الدمن هي المرأة الحسناء في المنبت السوء وهذا توجيه إسلامي للناس كي يوازنوا بين جمال الشكل، والتربية الحسنة، والأخلاق الحميدة .

والشاعر القتال الكلابي أشار بوضوح إلى أثر الأم السيئة على أبنائها حين قال (4):

وأولُ خُبثِ الماءِ خُبثُ تُرابِهِ وأولُ خُبثِ النَّجْلِ خُبثُ الحلائلِ

إن مكانة الأم في الشعر الجاهلي لم تكن كمكانة المحبوبة أو الزوجة، من حيث الحيز الذي شغلته، وذلك أن الشعر العربي كان يستقي مادته- في الحديث عن المرأة - من لغة العاطفة حيث الحب والعشق والهيام، لذلك كان للمحبوبة مساحةً كبيرةً فيه، ومن ثم جاءت الزوجة وهما مبعث على استثارة العواطف والمشاعر والأحاسيس الفياضة، التي يفيض بها الشعر العربي متدفقاً على ألسنة هؤلاء الشعراء، يخطبون ودّ من يحبون ، ويتوددون إليهن، ويحاولون استمالة قلوبهن.

أما الأم فكانت نبعاً من الحب الفطري الصادق الخالص من كل شائبة تشوبه فهي تحب ابنها لذاته، حباً يخرج من حنايا القلب دافئاً، عذباً فراتاً، فينسب انسياب النسيم في

(1) البرصان والعرجان والعميان والحولان ، للجاحظ ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، بيروت مؤسسة الرسالة ، 1981م ص 235 .

(2) أنظر ثمار القلوب للثعالبي ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، القاهرة دار المعارف 1965م ص 343 وما بعدها .

(3) الجامع الصغير للسيوطي ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت 1981م ، جزء 1 : 503 .

(4) الحيوان للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة الحلبي 1966م ، جزء 5 : 138 .

ساعات المساء، ويقابل هذا الحب حب الابن لأمه، ذلك الحب الذي يحمل كثيراً من معاني التقدير، والفخر والاعتزاز، حب لا يخلو من الشعور بالرحمة والمودة، والطاعة والاحترام . إن مكانة الأم في الجاهلية تبوأَت مكانتها السامية من حيث كون الأم زوجة ومربية ومعلمة ومعدّة للأجيال، ومن حيث كونها عنصراً رابطاً بين نسيج المجتمع، وأواصره، ومن حيث كونها معلماً بارزاً من معالم المجتمع الجاهلي، معلماً لم يغفله الشعر الجاهلي، ولم يتغافل عنه .

2- مكانة الأم عند الصعاليك :

اختلفت مكانة الأم عند الصعاليك، فمنهم مفتخرٌ بها، محب لها، مشفق عليها، لا يجد حرجاً في الانتساب إليها، وجل هؤلاء الصعاليك من أبناء الإمام، والذين يسمون بأغربة العرب، كالشنفري، والسليك، وتأبط شراً، وعمرو بن براقه وغيرهم . وآخر نقم عليها، وعلى أهلها، وعلى أبيه الذي تزوجها، لأنه يرى أنها حطت من قدره، وشانته في قومه، بضعة نسبها، مما جعله عرضة لسخرية قومه، الذين عيروه بها، ومثال هؤلاء الشعراء عروة بن الورد .

وآخر جاهر بفخره بها، معتزلاً بأنها ليست من الإمام، وليست وضيعة النسب، وإنما هي سلية حسب ونسب، وشريفة عفيفة، ومثال ذلك من الشعراء القتال الكلابي ، أما القسم الأول من هؤلاء الصعاليك، الذين أحبوا أمهاتهم، وافتخروا بهن، فإنهم لم يجدوا حرجاً في الانتساب لهن، كقيس بن الحدادية، وعمرو بن براقه، والسليك بن السلوك، وغيرهم وهذا الأمر كان شائعاً عند العرب عامة، ولكن الذي تميز به هؤلاء الصعاليك هو أن أمهاتهم من الإمام، وليس من بنات العرب الحرائر، إلا أنهم انتسبوا لهن، واشتهروا بهذا النسب .

ويذهب الشنفري إلى أبعد من ذلك حين ينادي إخوته بأبناء أمه وليس أبيه حين يقول في مطلع لاميته الشهيرة، حيث أنه " كثيراً ما كان الشاعر يعبر عن الإخوة الأشقاء بأنهم أبناء أمه في مجال الاستعطاف وإحياء المودة، أو في مجال الفخر، أو اللوم على قطع أرحام كان يجب أن توصل " (1) .

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل⁽²⁾

(1) المرأة في الشعر الجاهلي ، د. أحمد الحوفي ، ص 78 .

(2) ديوان الصعاليك ، ص 38 .

ثم إننا نجد الشنفرى يسارع إلى الاعتزاز بأمه، والفخر بها حين عبرته الفتاة
السلامانية بأصله، ولطمته على وجهه، متعالية عليه، رافضة أن يكون أماً لها، ولو حتى
بالتسمية، يقول (3):

ألا هل أتى فتیان قومي جماعةً بما لطمت كفُ الفتاة هجينها (4)
ولو علمت قعسوسُ أنسابَ والدي ووالدها ظلت تقاصرُ دونها (5)
أليس أبي خيرُ الأواسِ وغيرها وأمِّي ابنهُ الخرين لو تعلمينها
والملاحظ أن هذه الحادثة، لم تجعله ينقم على أمه، أو أبيه، كون الأم أمة حبشية
أورثته اللون الأسود، والمكانة الوضيعة، بل نجده، يفتخر بأصله، ويعتز بأمه، متهماً الفتاة
بجهلها بنسبه وأصله .

بل لقد بلغ من كرامتها عليهم ووفور منزلتها بينهم، أن السليك بن السلوك السعدي -
وأمه جارية حبشية - أطار نومه . وأثار همه، أن تشتمل بلاد العرب على خالاته، ونظائر
أمه، جواري قد ملكهن الرق، وأزرى بهن التبذل وود لو وجد من ذات يده ما يمكنه من
افتدائهن جميعاً (6) وذلك حيث يقول (7):

ألا عتبت على فصارمتني وأعجبها ذوو اللّم الطوال
فإني يابنة الأقبام أربي على فعل الوضيئ من الرجال
أشاب الرأس أني كل يوم أرى لي خالة بين الرحال
يشق علي أن يلقين ضيماً ويعجز عن تخلصهن مالم ي
فالشاعر يدافع عن رق أمه، وخالاته، ولم يُغض أبناء الإماء عن مهانة تلحق
بأمهاتهم، وإنما دافعوا عنهن، وأحسنوا .

وكيف لا يكون موقف تأبط شراً من أمه كذلك، وهي التي تقول (1) فيه : " والله ما
حملته تُضَعاً، ولا وُضَعاً، ولا وَضَعْتُهُ يَتْنًا ، ولا أَرْضَعْتُهُ غَيْلاً، ولا أُنْمَتُهُ مَتَقًا " (2).

(3) ديوان الصعاليك ص 53 .

(4) الهجين : الذي أبوه عربي وأمّه غير محصنة .

(5) قعسوس : لقب الجارية - تقاصرُ : تتقاصر .

(6) المرأة العربية، عبد الله عفيفي ، جزء 1 : 80 .

(7) الكامل للمبرد ، جزء 1 ،

(1) العقد الفريد، ابن عبد ربه، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، جزء 7 : ص 111 .

(2) حَمَلْتُهُ وَضَعاً ، وهي أن تحمله في مقبل الحيض، ووضعته يتناً : أي منكساً ، تخرج رجلاه قبل رأسه،
وأرضعته غيلاً : أرضعته لبناً فاسداً ، وذلك أن ترضعه وهي حامل ، وأنمته متقاً ، أي مغضباً مغتاظاً .

ويحق للأُم أن ترثي ابنها البارَّ بها، المحب لها، وذلك كما فعلت أم تأبط شراً حيث رثت ابنها بكلمات مفعمة بالحزن، الذي يعتصر القلب، ويبلغ بها الأمر ذروته حين تتمنى لو أنها استطاعت أن تفديه بنفسها .

إن هذا القسم من الشعراء الصعاليك الذين ولدوا لأمهات من الإماء وجدوا واقعاً، قد فرض عليهم، وكان قاسياً، واقع الأم الأمة التي لم يجدوا بداً من الانتساب لها والاعتزاز بها، وهو واقع آلمهم كثيراً أن يروا أرحامهم يعانين من الرق، ومهانة العيش .
وواقع المجتمع الذي ينظر إلى أبناء الإماء نظرة احتقار وازدراء، وأنهم في مكانة دون أبناء الحرّاء من العرب الأمر الذي جعل الكثير من هؤلاء الشعراء يفتخر بفعاله، وبطولاته وهذا الواقع هو الذي دفع كثيراً من هؤلاء الشعراء إلى التصعلك، فعاشوا حياتهم ناقمين على مجتمعاتهم، غير راضين عن أنظمتها وقوانينها الجائرة .

وعنتر بن شداد، وهو من فرسان العرب المعدودين نجده يعاني معاناة شديدة بسبب لونه الذي ورثه عن أمه، أضف إلى ذلك كون أمه حبشية وليست من بنات العرب الحرّاء، لذلك نجده يفتخر بفعاله، وهمته وفروسيته لكي يغطي على ما يعيبه - في نظر المجتمع - وذلك كثير في شعرة (3) يقول :

وقد طلبت من العلياء منزلة
بصارمي لا بأمي ولا بأبي
ويقول (4):

دعوني أفي السيف في الحرب حقه
وأشرب من كأس المنية صافيا
من قال إنني سيد وابن سيد
فسيوفي وهذا الرمح عمي وخاليا

فالأهل عند عنتر ليس الأب والأم والخال والعم والعشيرة، وإنما سيفه ورمحه وهذا يظهر مدى تمرد عنتر على قومه، الذين استعبدوه ولم يعترفوا به، بل ساموه سوء العذاب، يقول (5):

إن كنت في عدد العبيد فهمتي
فوق الثريا والسماك الأعزل (1)
أو أنكرت فرسان عبس نسبتي
فسنان رمحي والحسام يُقر لي
وبذالبي ومهندي نلت العلا
لا بالقرابة والعديد الأجزل (2)

(3) الديوان : 21 .

(4) الديوان : 160 .

(5) الديوان : 111 .

(1) السماك الأعزل : نجم في السماء .

(2) الأجزل : الكثير

إن المعاناة التي عاناها عنتره لم تجعله ينقم على أمه كما فعل عروة وهو من سادات عبس أيضاً، رغم أن أم عروة لم تكن أمة أو سبية، وإنما نجد عنتره يذكر أمه في معرض فخره بنفسه بأبيات فيها من الوصف الدقيق ما فيها، يقول منتسباً لها (3):

أنا ابن سوداء الجبين كأنها ضبع ترعرع في رسوم المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة والشعرُ منها مثل حبِّ الفُفلِ
والثغر من تحت اللثام كأنه برقُ تلالاً في الظلام المُسدلِ

وليه بيت آخر في قصيدة أخرى يحاول فيها أن يغطي على الجانب المظلم من حياته حيث يقول :

إني امرؤٌ من خير عبسٍ منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصلِ (4)

إن عنتره، عانى معاناة كثيرة كغيره من أبناء الإماء في عصره، وما شفعت له بطولاته، وصولاته، وجولاته في كثير من المواقع، لذلك استشهدت بجانب من شعره حيث أنه عاش حياة الصعلكة حيناً وإن لم يحسب من الصعاليك (5).

حيث أنه ثار على المجتمع الذي يفرق بين الأسود والأبيض، والمولى والصريح، المجتمع الذي اكتشف فيه أن سيده هو أبوه، الذي يسترقه ويستعبده، مما جعله يصرخ من شدة الهوان قائلاً (6):

العبدُ عبْدُكُمْ والمالُ مالُكُمْ فهل عذابك عني اليومَ مصروفُ

ولكن عنتره، رغم كل جراحاته وآلامه النفسية، إلا أنه يفخر بأنه جمع بين الحامي والسامي، في مزيج من الفخر بأبيه وأمّه حيث يقول (7):

يقدمه فتى من خير عبس أبوه وأمّه من آل حمام

عجوز من بني حام بن نوح كأن جبينها حجراً المقام

ويقول (1):

وأنا المجرب في المواقف كلها من آل عبسٍ منصبي وفعالي

منهم أباي شداً أكرم والدٍ والأم من حام فهم أخواي (2)

(3) الديوان : 111 .

(4) الديوان : 98 .

(5) انظر شعر بني عبس في الجاهلية ، رسالة ماجستير مخطوطة ، عزازي على عزازي - جامعة الزقازيق ، ص (33-73) .

(6) الديوان : 89 .

(7) الديوان : 131 .

(1) الديوان : 106 .

ومن الشعراء الصعاليك الذين رأوا أن النقص من جانب الأم، لا يُقعد عن همة، ولا يفت من عزيمته، فإذا كانت الهمة عالية، والنفوس كباراً، وصلت بالإنسان إلى ما لم يصل إليه أبناء الحرائر، يقول عبيد الله بن الحرّ الجعفي (3):

فإن تك أمي من نساء أفاءها جياذ القنا والمرهفات الصفائح
فتباً لفضل الحرّ إن لم أنل به كرائم أولاد النساء الصرائح

وإذا كان هذا حال أبناء الإمام من الصعاليك، فإن بعض الصعاليك من أبناء الحرائر من النساء، كانوا يفتخرون بأمهاتهم، كونهن لسن من الإمام، حيث يجد أن ذلك نقيصة، قد تحط من قدرة، وتجعله عرضه للنيل منه عند أعدائه، ومن الشعراء الذين افتخروا بذلك، القتال الكلابي، الذي يفتخر أنه ليس من الإمام. حيث يقول (4):

أما الإمام فلا يدعوني ولداً إذا تنادى بنو الإمامان بالعار (5)

فالشاعر لا يخشى أن يعيره أحد بأن أمه أمة، وذلك إذا سب الناس بعضهم بعضاً وفي أبيات أخرى يبرأ من أن تكون أمه أمة، لذلك لن يعيره أحد بها، كما يعير الناس بعضهم بعضاً، فهو لم يرضع إلا ثدي امرأة حرّة، شريفة النسب حيث يقول (6):

أنا ابن أسماء أعمامي لها وأبي إذا ترامى بنو الإمامان بالعار
أما الإمام فلا يدعوني ولداً إذا تُحدث عن نقضي وإمراري
لا أرضع الدهر إلا ثدي واضحة لوأضح الخدّ يحمي حوزة الجار (7)
من آل سفيان أوورقساء يمنعها تحت العجاجة ضرب غير عوار

وفي بيت آخر يفتخر بأمه عمرة بنت حرقة من ربيعة، وأنها حرّة لم تُكَلّف، جمع الحطب كالإمام، فيقول (1):

لقد ولدتني حرّة ربيّة من اللاء لم يُحضرن في القيظ دندنا (2)

(2) الأم من حام : يقصد سوداء حبشية .

(3) الكامل ، للمبرد ، تحقيق محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية 1993 . ص 646 .

(4) كتاب الحلل في إصلاح الجمل، البطليوسي، تحقيق سعيد عبد الكريم سعودي، بغداد 1980، ص 464 .

(5) الإمامان : جمع أمه .

(6) الكامل للمبرد .

(7) واضحة : شريفة النسب حرّة .

(1) المرأة في الشعر الجاهلي، د. أحمد الحوفي ص 80 .

(2) دندن : ما اسود من نبات أو شجر والمراد أنها لم تكلف الاحتطاب كالإمام . وفي الأصل دندنا .

إن القتال الكلابي كان يرى أن عرق الخال نزاع، لذلك سعد لأنه ليس بابن أمة، لئلا تسري إليه أخلاق العبيد، فالعروق لا بد نازعة بالإنسان إلى أخواله يقول (3):

أما الإماء فما يدعوني ولداً
بنفسك فانظر من أبوها وخالها
إن العروق إذا استنزعتها نزعت
كما قيس من نعل بنعل مثالها
وفي أروزة يمدح فيها رجلاً نجده يوازن بينه وبين آخر بأصالة كل من خاله
وعمه، يقول (4):

تَخَيْرِي خَيْرْتِ فِي الرَّجِّـالِ
بَيْنَ قَصِيرِ بَاعِهِ تَنْبَـالِ
وَأُمَّه رَاعِيَةِ الْجَمـِـالِ
تَبَيَّتْ بَيْنَ الْقَتِّ وَالْحَمـِـالِ

* * * * *

أَدَاكَ أَمْ مُخَرَّقُ السَّرْبِـالِ
كَرِيمِ عَمِّ وَكَرِيمِ خَنـِـالِ

إن القتال الكلابي يمزج في فخره بأمه بين كونها حرة شريفة، وليست من الإماء وبين كونها ذات حسب، مدركاً أهمية الأحوال بالنسبة للابن، حيث أن الفتى لا بد نازع إلى أخواله، ونظراً لأهمية الخال والرحم عنده، نجده يناشد ابن عم له بأرحامه حيث يقول (5):

نشدتُ زياداً والمقامةُ بيننا
وذكرته أرحام سعدٍ وهيثم

فالشاعر يقسم على ابن عمه، وأهل المجلس حاضرون ويذكره بالرحم التي تجمعهما معاً وفي بيت آخر تظهر مكانة الأم عند الشاعر، وما لها من تأثير في الآخرين حيث يذكر الشاعر أرحامه، ويعتز بشرفهما . مذكراً بمالها من خصاصة وحرمة حيث يقول مستعظفاً أحد أقربائه (1):

فَاتَا بَنُو أُمَيِّنِ أَخْتَيْنِ حَلَّتَا
بُيُوتَهُمَا فِي نُجُوءِ فَوْقِ أَبْهَرِ (2)

وبعد فإن القتال الكلابي يعتبر مثلاً واضحاً للصلعوك الذي يعتز بأمه، ويفخر بحسبها ونسبها، ولا يجد حرجاً في الانتساب لها صراحة، معتداً بها، يرى أنها أحلتها بمنأى

(3) كتاب الرياض ، العدد : 81،82 في أفياء الشعر ص 204 .

(4) الأغاني جزء 20 : 164 .

(5) الأغاني، جزء 20 : 159 . (دار الفكر) .

(1) كتاب الأمكنة والمياه والجبال ، للزمخشري ، تحقيق إبراهيم السامرائي طـ 1 1968م ص 17 .

(2) أبهر : جبل .

عن العار أو النقص الذي لحق بكثير من الصعاليك، وهذا الموقف من الأم نجده عند أبي خراش الذي نسب إخوته لأمه وصرح باسمها حيث رثا أخاً له فقال (3):

فقدت بني لبني فلما فقدتهم صبرت فلم أقطع عليهم أبا جلي (4)

ولبني هذه هي أمهم .

وفي بيت آخر يقول (5) :

أصببت هذيل بابن لبني وجدعت أنوفهم باللوذعي الحلال (6)

والفرق بين القتال الذي يمثل القسم الثاني من الصعاليك من حيث نظرتهن لأمهاتهن، وبين القسم الأول من أبناء الإماء أنه كان من أبناء الحرائر من النساء، واتفق معهم أن كلاً منهما افتخر بأمه واعتز بها، وانتسب لها، وحظيت الأم عندهم بمكانة خاصة تليق بحقها عليهم .

أما القسم الثالث من الصعاليك الذين نقموا على أمهاتهم، وعانوا في قومهم أشد معاناة، فخير مثال عليهم عروة بن الورد، ذلك السيد الذي عرف بكرمه ونبله وزعامته في قومه، إلا أن هذا كله لم يشفع له عند قومه، حيث ظل يُعير بأمه النهديّة التي كانت من الحرائر من النساء، إلا أنها لم تكن من ذوات الأنساب الرفيعة، لذلك نجد أن هذا الموضوع أثر في حياته تأثيراً عظيماً، مما جعله ينشأ ناقماً على أبيه أولاً؛ لأنه اختار أمه من قوم ليسوا من أشرف العرب، وناقماً على أمه، وعلى أحواله، وعلى المجتمع الظالم، الذي لا ينظر إلي شخص الإنسان وفعاله، وإقدامه وفروسيته وبطولاته.

إن عروة تمرد على مجتمعه وقبيلته التي كانت تنظر إليه نظرة تشاؤميّة، لأن والده كان سبباً في رهان عيس وفزارة، ولأن أمه تنتمي لقبيلة أقل شرفاً من عيس، فأمه امرأة نهديّة ليست من ذوي الأنساب، حيث أنها عدت بمثابة الأمة (1)، لذلك عيره، قومه، وهو يذكر ذلك بقوله (2) :

أعيرتموني أن أمي تريعة، وهل ينجبن في القوم إلا الترائع؟ (3)

وما طالب الأوتار غير ابن حرّة طويلُ نجاد السيف عاري الأشاجع (4)

(3) الأغاني ، جزء 21 : 244 .

(4) الأجل : عرق في الرجل ، ويروى (الانامل) .

(5) الأغاني : جزء 21 : 245 .

(6) اللوذعي : الحديد اللسان ذو القلب الذكي ، الحلال : الرزين .

(1) انظر الأغاني جزء 3 ص 88 .

(2) الديوان : 85 .

(3) التريعة : المسرعة إلي الشر، وجمعها ترائع علي وزن فعائل .

لقد ضاق عروة ذرعاً بقومه حيث أنهم عيروه بأمه، وعيروه بفقره حين كان فقيراً، وعيروه بغناه حين كان غنياً، وعيروه في شبابه وشيبهه، وهو يصرح بذلك في شعره، معبراً عن حياة كلها هموم ومعاناة ، كلها جفاء و ازدراء، بقوله (5) :

هم عيروني أن أمي غريبة
وقد عيروني المال، حين جمعته
وعيرني قومي شبابي ولمتي
ولا أنتمي إلا لجار مجاور
وهل في كريم ماجد ما يعير؟
وقد عيروني الفقر، إذ أنا مقتّر⁽⁶⁾
متى ما يشاء رهط امرئ يتغير
فما آخر العيش الذي أنتظر؟!⁽⁷⁾

إن قسوة المجتمع الذي عاش فيه عروة، جعلته ينقم على أمه وأهلها، لذلك نجده يدفع دعماً إلى هجاء أخواله النهديين، الذين ينتمون إلى قبيلة يمنية، أقل شأناً وشرفاً من عبس يقول (8):

لا تلم شيخي، فما أدري به،
كان في قيس حسيباً ما جداً
غير أن شارك نهداً في النسب
فأنت نهدي على ذلك الحسب⁽⁹⁾

ويصرح بهجاء أخواله مرّة ثانية، فيقول (10):

مابي من عار إخال علمته
إذا ما أردت المجد قصر مجدهم
فيا ليتهم لم يضربوا في ضربة
تعالب في الحرب، فإن تبخ
سوى أن أخوالي، إذا نسبوا نهدي
فأعيا على أن يقاريني المجد
وأني عبد فيهم، وأبي عبد
وتفرج الجلي، فإنهم الأسد⁽¹⁾

لعل موقف عروة من أمه وأخواله، كونه من سادات عبس، وعبس قبيلة عرف عنها أنها جمرة العرب التي لم تنطفئ، وكون أمه من قبيلة أقل شرفاً ومكانة بين القبائل، لذلك رأى أن النقص إنما أتاه من أخواله، فنقم على هؤلاء الأخوال، أما باقي الصعاليك من أغربة العرب فلم يكونوا من الأشراف، أو السادات، بل من عامة الناس ، أو دون ذلك مما جعلهم، لا يجدون في أمهاتهم وأخوالهم ما يدعو إلى التقليل من المكانة الاجتماعية . المكانة التي لم

(4) طويل نجاد السيف : كناية عن الشجاعة والإقدام . الأشجاع : هم الأقوياء الأبطال .

(5) ديوان الصعا : 87 .

(6) المقتّر : الفقير حسب المعنى في البيت .

(7) يقول فهل آخر العيش الذي أنتظر إلا الموت .

(8) الديوان : 46 .

(9) أي كان في بني قيس له المجد واليد الطولى ، وهو أعلى هذا الحسب .

(10) الديوان : 56 .

(1) تبخ : تنطفئ الحرب .

تكن موجودة أصلاً في المجتمع حيث أنهم كانوا مندوبين في مجتمعهم للونهم، أو لنسبهم، وحيث ظل المجتمع ينظر إليهم على أنهم دون أبناء الحرائر من العرب، وهذا الأمر هو الذي يفسر رضى هؤلاء بأمهاتهم، وفخرهم بهن، وتبرّم عروة، وعدم رضاه بأمه وأهلها، الأمر الذي أوصله إلى هجائهم .

3- حب الأم لأبنائها وتربيتها لهم :

إذا كان جُلّ الصعاليك قد أحبوا أمهاتهم، واعتزوا بهن، وعرفوا لهن قدرهن، ومكانتهن، وها ما كان ظاهراً في شعرهم فإن هناك آثار أدبية تدل على حب الأم لأبنائها، حباً فطرياً خالصاً، لا تشوبه شائبة، حباً جعلها تحرص دائماً على أن ينشأ ابنها نشأة سوية في المجتمع، كي تقرّ عينها برويته شاباً قوياً، فارساً، مؤثراً في مجتمعه . " فهي تتعهد وليدها قبل أن تحمله، ذلك بأنها كانت لا تحمل إلا في طهر، ولعل الأب كان يشاركها في ذلك، لأنهم اعتقدوا أن الحمل في أعقاب الحيض أو قبل الحيض ينتج ولداً سقيماً " (2).

تقول أم تأبط شراً : " والله ما حملته تُضعاً، ولا وُضعاً، ولا وَضَعْتُهُ يَتْتاً ، ولا أَرْضَعْتُهُ غَيْلاً، ولا أَمْتُهُ مَتَقاً " (3) إن أم تأبط شراً تعتدّ وتفتخر بأنها، ما حملت بابنها قبيل الحيض، ولا وضعته منكساً، تخرج رجاله قبل رأسه، ولا أرضعته لبناً فاسداً، وذلك أن ترضعه وهي حامل، ولا أنامته مغضباً مغتاضاً، إن هذا القول يوضح بجلاء حب الأم لابنها، وحرصها على أن يولد ، سوياً، سليماً، لا يعيبه شيء . يقول أبو كبير الهذلي في وصف تأبط شراً ابن زوجته، إن أمه حملت به وهي طاهر ليس بها بقية من حيض (4).

ولقد سرّيت على الظلام بمغشم
وَمُبْرَأً من كل غِبْرٍ حِيضَةً
جلد من الفتيان غير مُهْبَلٍ (5)
ورِضَاعٍ مُغِيلَةٍ، وداءٍ معضَلٍ (1)

وكانت العرب تظن أن المرأة، إذا حملت وهي فزعة خائفة، وجلة، فإن الابن يولد، قوياً، صلباً، شديداً، يقول الأصمعي: " إن المرأة إذا حملت وهي مذعورة فأذكرت جاءت به

(2) المرأة العربية في الشعر الجاهلي ، د. أحمد الحوفي ، ص 114 .

(3) العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، جزء 7 : ص 111 .

(4) الشعر والشعراء، جزء 2 : 562 .

(5) المغشم : الذي يظلم الناس، المهبل : الكثير اللحم ، أو الذي يقال له : هبلتك أمك .

(1) غبر : بقية .

لا يطاق⁽²⁾. روي أن أم تأبط شرّاً قالت: حملت به في ليلة ظلماء، وإن نطاقي لمشدود،
وقولها: لقد حملت به في ليلة مظلمة، وتحت رأسي سرج، وعلى أبيه درع⁽³⁾.
ويذكر ذلك أو كبير الهذلي في وصفه لابن زوجته تأبط شرّاً فيقول⁽⁴⁾:

ممن حمّلت به وهنّ عواقبٌ	حبك النطاق، فعاش غير مُثقل ⁽⁵⁾
حملت به في ليلة مزوودة	كرهاً، وعقد نطاقتها لم يحل ⁽⁶⁾
فأنت به حوش الجنان مبطناً	سهداً إذا ما نام ليل الهوجل ⁽⁷⁾
فإذا نظرت إلى أسرة وجهه	برقت كبرق العارض المتهلل
وإذا رميت به الفجاج رأيتَهُ	يهوي مخارقها هوي الأجدل ⁽⁸⁾
وإذا يهب من المنام رأيتَهُ	كرتوب كعب الساق ليس بزمل ⁽⁹⁾
ما إن يمس الأرض إلا منكبٌ	منه، وحرف الساق طي المحمل ⁽¹⁰⁾

والأم لا تحب لأبنتها أن يحيا خاملاً، متعاساً، بلا عمل، فيحيا عالة على الآخرين،
فهي تحته على السعي طالباً للرزق كما يفعل الآخرون فهذه أميمة أم تأبط شرّاً تقول لابنتها:
يا بني كل أخوتك يأتيني بشيء إذا راح غيرك، فقال لها سأتيك الليلة بشيء⁽¹¹⁾ وفي رواية
أنها قالت له في زمن الكمأة: ألا ترى أن غلمان الحي يجتنون لأهلهم الكمأة فيروحون بها
؟ فقال لها أعطني جرابك كي أجتني لك فيه⁽¹²⁾.

إنها تترك أنه من العيب أن يحيا الإنسان في مجتمعه عاطلاً لا عمل له، وهذا ما
ذكره عروة بن الورد حين وازن بين نوعين من الصعاليك حيث نم الصعلوك الخامل
المتكاسل، اللئيم، الذي لا يغادر ساحة الحي، يقول⁽¹⁾:

(2) المرأة العربية في الشعر الجاهلي، أحمد الحوفي: ص 113.

(3) السابق: 114.

(4) الشعر والشعراء جزء 2: 562.

(5) يعني حملت به أمة وهي فزعة، وكانوا يعتقدون أنها بذلك تنجب.

(6) مزوودة: فزعة.

(7) حوش الجنان: فؤاده وحشي، - مبطن: خميص البطن، - الهوجل: الثقيل.

(8) الفجاج: الطرق، المخارم: أنوف الجبال، - الأجدل: الصقر.

(9) الرتوب: الانتصاب، - الزمل: الضعيف.

(10) يقول ما إن يمس الأرض إذا اضطجع إلا منكبه، وحرف ساقه، لأنه خميص البطن فلا يصيب بطنه

الأرض. - المحمل: محمل السيف.

(11) الأغاني، جزء 21: 144.

(12) الأغاني، جزء 21: 145.

(1) ديوان عروة: 68.

لحي الله صلوكاً إذا جن ليلته
يعد الغنى من نفسه كل ليلته
ينام عشاءً لثم يصبح ناعساً
قليل التماس الزاد إلا لنفسه
يعين نساء الحي ما يستعنه
مصافي المشاش، ألفاً كل مجزر
أصاب قراها من صديق ميسر
يحث الحسا عن جنبه المتعفر
إذا هو أمسى كالعریش المجور
ويمسي طليحاً، الكعير المحسر

إن محبة الأم لأبنائها، لا يختلف عليه اثنان، حيث أن حب الأم لأبنائها هو حب فطري فطرها الله عليه، وقد تتجلى مظاهر هذا الحب واضحة بأسمى معانيها، وبأوضح صورها، حين يصل الأمر بأم أن تتمنى لو أنها افتدت ابنها بنفسها، وهو أثنى وأعز ما تملك في الدنيا، وهذا ما يظهر في رثاء أم تأبط شراً له حين سمعت بمقتله .

طاف يبغى نجوة
ليت شعري ضلّة
أمريض لم تعدد
أم تولى بك مـ
والمنايا رصدد
أي شيء حسنتن
كل شيء قاتل
طال ما قد نلت في
إن أمراً فادحاً
سأعزّي النفس إذ
ليت قلببي ساعة
ليت نفسي قدّمت
وقالت ترثيه أيضاً (4):

من هلاك فهلك
أي شيء قتلك
أم عدو ختلك
غال في الدهر السلك (2)
للفتى حى حيث سلك
لفتى لىم يك لك
حين تلقى أجلك
غىر كد أمك
عن جـوابى شغلك
لم تجب مـن سألك
صبره عنك ملك
للمنايا بدلك (3)

قتيل ما قتيل بني قـريم
فتى فهم جميعاً غادروه
وقالت ترثيه أيضاً (2):

إذا ضنت جمادى بالقطار (1)
مقيماً بالحريضة من نمار

(2) السلك : فرخ الحجل وهو شديد الحرص حذق في إخفاء نفسه عند الخطر ولكن الموت يغلبه .

(3) شرح الحماسة، للخطيب التبريزي، جزء 2 : 191-192 .

(4) الأغاني : جزء 21 : 195 .

(1) جمادى يطلق أيضاً على الشتاء لجمود الماء فيه ، والقطار جمع القطر وهو المطر .

ويل أم طرف غادروه برخمان
يجدل القرن ويروي الندمان
بثاتب بن جابر بن سفيان⁽³⁾
ذو ماقط يحمي وراء الأضوان⁽⁴⁾
وقالت ترثيه أيضاً⁽⁵⁾:

وابناه وابن الليل، ليس بزُميل، شروب للقيّل، رقود بالليل، ووادي ذي هول، وأحرت بالليل، تضرب بالذيل، برجل كالثول⁽⁶⁾.

4- عقوق الأم :

الأم هي التي تحمل وتلد، وترضع، وتتعهد وليدها، بكل حرص وعناية، ترضعه من صدرها لبناً صافياً، وتمنحه من قلبها دفناً وحباً صادقاً، يخرج من حناياه، منساباً بكل رفق، ترقبه، وهو ينمو ويكبر، وكلها أمل أن تقرّ عينها به، حين يصبح، شاباً قوياً، يحقق لها أملها، ويدفع عنها عاديات الزمن .

ولكن الذي يفجع الأم ويذهب لبها، هو أن ترى امرأة تأتي على حين غرة، فتستأثر بابنها، وتحوزه دونها، وتنزعه منها انتزاعاً، وهذا ما يورثها حزناً لا ينقضي، وهملاً لا ينقطع .

فزوجة الابن بمكرها وخداعها، وسوء خلقها هي أكثر أسباب العقوق عند الأبناء، حيث أنها تحرص دائماً على أن تستأثر بالابن دون أمه، يقول الحوفي : " ليس أجلب للعقوق من زوجة الابن المشاكسة، الماكرة، فإنها تريد أن تستأثر بزوجها، كما استأثرت أمها بأبيها، أو كما حاولت أن تستأثر، وعزيز على الأم التي حملت وأرضعت وربّت وأملت، وكانت نجي ولدها ومفرعة في مساعته ، وشريكه في حبرته، وكان سر سعادتها، عزيز عليها أن تنتزعه منها هذا الفتاه الطارئة انتزاعاً فجائياً قاسياً لا يجامل ولا يتدرج وهنا يقع الابن في الحيرة، وتضطرع في نفسه عاطفتان قويتان، فيحسم الخلاف بحسن سياسته، ويحاول أن يخمد النار كلما بدا خلال ومادها وميض، أو يجنح إلى ناحية من الناحيتين " ⁽¹⁾ فالابن العاقل الحكيم، البار بأمه، لا يطيع زوجته في عقوق أمه مهما كان، يقول صخر بن الشريد مؤكداً على مكانة الأم الخاصة حيث لا يمكن مساواتها بالزوجة مهما كان :

(2) السابق : 195 .

(3) الطُرف : الكريم الأبوين .

(4) الماقط : المكان الذي يقتلون فيه ، ويراد هنا ذو حرب .

(5) الأغاني : جزء 21 : 195 .

(6) الرَجُل : اسم جمع للرجل أو جمع له ، والثول : جماعة النحل .

(1) المرأة في الشعر الجاهلي ، أحمد الحوفي ، ص 143 .

أرى أم صخر لا تمل عيادتي ومَلّت سليمى مضجعي ومكاتي
فأي امرئ ساوى بأم حليّة فلا عاش إلا في شقاً وهوان⁽²⁾

وقد نجد من الناس من يقربّ الزوجة، ويعصي الأم، وهذا ما يصوره عروة بن الورد تصويراً دقيقاً، حين يشبه حالة مع أصحابه الكنيف الذين أكرمهم وأحسن إليهم وأسأوا له، منكرين فضله عليهم، بحال الأم التي حملت ووضعت وأرضعت، وربّت، وعاشت على الأمل في الغد المشرق، وإذا بابنها يتكرر لها ويجفوها، ويقربّ زوجته الجميلة التي تنزّين له كي تجذبه إليها، مما جعل الأم تصرخ وتتألم مما آل إليه حالها مع ابنها الذي رجته ، حيث أصبحت في حيرة من أمرها، فهي بين أمرين أحلاهما مرّ، فالأول أن تفقد الولد، وهذا أمر لا تطيقه ولا تصبر عليه وإما أن تصبر وتحسب وهذا أيضاً أمر يصعب عليها ولا تطيقه ، يقول عروة⁽³⁾:

فإني وإياهم كذي الأم أرهنت له ماء عينيها تفديّ وتحمّل⁽⁴⁾
فلما ترجرت نفعه وشبابه أتت دونها أخرى جديداً تكحلّ⁽⁵⁾
فباتت لحد المرفقين كليهما توحّح مما نالها وتولول⁽⁶⁾
تخيّر من أمرين ليسا بغبطة هو الثكل إلا أنها قد تجملّ⁽⁷⁾

وعروة نفسه لم يكن على علاقة طيبة مع أمه، وأهلها، حيث وصل به الأمر إلى هجائهم، وشتمهم، الأمر الذي استنكره عليه بعض قومه حيث أن شتم الأحوال وهجائهم من الأمور، الغربية والمستهجنة في العصر الجاهلي، وكل العصور، روى عن الأصمعي أنه قال : قال قيس بن زهير لعروة بن الورد⁽¹⁾:

أذنب علينا شتم عروة خاله بغرّه أحساء ويوماً ببذبذب

(2) المستقصى في أمثال العرب ، للزمخشري ، جزء 2 : 69 ، الطبعة الثالثة دار الكتب العلمية بيروت

لبنان .

(3) الديوان : 92 .

(4) يخاطب أصحاب الكنيف فيقول : إني وإياكم كامرأة لها ولد صغير أرهنت له ماء عينا ، فنقديه مرّة ، وتحمله مرّة .

(5) الحديد : الزوجة . أي لما تم شبابه وانتظرت منه المنفعة تزوج فغلبت الزوجة الأم، فترك أمه من أجلها .

(6) حد المرفقين : ضربها ، والمرفق : الموصل بين الساعد والعضد ، - توحّح : تطلق أصواتاً فيها بحّة ، - تولول : تعول وتدعو بالويل .

(7) تخيّر من أمرين : أي من أمرين ليسا ساريين : إما أن يموت ابنها فتشقى من امرأته وتلكه ، أو تصبر على أن تكون امرأته أثر عنده منها ، ومت عليها إلا أن تتجملّ وتتصبر .

(1) انظر عروة بن الورد . حياته وشعره . د. إبراهيم الخواجه ص 194 .

رَأَيْتُكَ إِلَّا فَا بُيُوتَ مَعَاشِرٍ تَزَايِلُ يُدُ فِي فَضْلِ قَعْبٍ وَمِرْفَدٍ

وهكذا عاب قيس بن زهير على عروة تجراه على أخواله النهديين بالهجاء . وما كان عروة ليهجو أخواله، إلا لتبرُّمه من أمه ومن كونها له أمًا، وهذا الضيق حتمًا سينعكس على علاقته بها، ومعاملته لها .

وكان عروة قد قال في أخواله (2):

وما بي من عارٍ إخال علمته سوى أن أخوالي إذا نسبوا نهـدُ
إذا ما أردت مجداً قصر مجدهم فأعيا علي أن يقاريني المجدُ
فياليتهم لم يضربوا في ضربة وأني عبدٌ فيهم وأبي عبـد
تعالب في الحرب العوان فإن تبخ وتنفرج الجلى فإنهم الأُسـدُ

إن عروة هجا أخواله، ووالده أيضاً حين تمنى أن يكون عبد من العبيد لأنه تزوج من نهـد، وما كان عروة ليفعل ذلك إلا لضيقه وتبرُّمه من كون أمه منهم، وهذا كله سينعكس على علاقته بأمه، ومعاملته لها .

ومهما يكن فإن عقوق الأم كان موجوداً في العصر الجاهلي، وإن كان غير شائع، لما للأُم من مكانة عند أبنائها . لذلك نجد الدين الجديد يحرص على برِّ الوالدين، وخصوصاً الأم ، لضعفها وحاجتها لأبنائها . وحذر تحذيراً شديداً من عقوق الأم، وتوعد من يعق والديه، ويقطع أرحامه بالعذاب الشديد .

(2) الديوان : 56 .

ثانياً : السبيّ

1- السبي في العصر الجاهلي :

كان السبي في العصر الجاهلي، هدفاً وغاية عند القبائل العربية، تحرص عليه لما له من أثر بالغ على العدو، حيث أن سبي النساء، أشد على العربي من وقع السهام، وضرب السيوف، يلحق به ذلاً وعاراً لا يفارقانه، كما كان السبي مبعث فخر للسابي، وعنوان قوة وسطوة، به يزهو، ويتعالى ويفتخر، وكان منع النساء وحمايتهن من السبي مبعث فخر وزهو أيضاً، وحيث أن حياة العرب في الجاهلية، قائمة على الاحتراب والصراع القتالي ذباً عن القبيلة، ومصالحتها، وانتقاماً جماعياً أو فردياً من اعتداء سالف، أو استلاباً لمال الآخر، فقد كثر في هذه الحروب والغارات سبي النساء بما يجرّه لضحاياهن من آلام نفسية وتباريح وجدانية عميقة ما تصوّر لها لعصبيّ .

"وكان الشعر كالعادة، شديد الاعتناء بأمر السبي، بل إن كثافة المادة الشعرية المعالجة له لتؤلف ظاهرة مُبرزةً نفسها للدارس، لاسيما في شعر الأيام والوقائع"⁽¹⁾.

أ - فخر الشعراء بحماية النساء من السبي :

يصور لنا الشعر العربي الجاهلي في كثير منه فخر الشاعر العربي بحماية المرأة - زوجة كانت أو أختاً أو أمّاً أو من سائر نساء القبيلة - من السبي، والذود عنها، ومنعها من أعدائها، حيث " كانت حماية النساء جزء لا يتجزأ من شرفهم وعرضهم، ولعلمهم لذلك كانوا يصحبونهن معهم في الحروب، حتى يلهين حميتهن في القتال، وحتى يشعلنهم بأناشيدهن وإثارتهن، وتهيجاتهن حماسة وبسالة، وحتى يصمدوا من دونهن ذيادةً عنهن، مهما استعر أوار القتال، ومهما أتى على الرجال والأبطال " ⁽²⁾ يقول عمرو بن كلثوم في معلقته⁽³⁾ :

على آثارنا بيضُ حسانٍ نحاذرُ أن تُقسَمَ أو تهوانا
ظعائن من بني جشم بن بكرٍ خلطن بميسم حسباً وديننا⁽⁴⁾

(1) انظر (كتاب الرياض 181 : 82) في أفياء الشعر منذ الجاهلية حتى آخر العصر الأموي : 142 .

(2) البطولة في الشعر العربي ، لشوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة 1970 م : 33 .

(3) انظر شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات ، ابن النحاس ، جزء 2 : 122 وما بعدها .

(4) الميسم : الجمال أي تهن مع جمالهن حسب ودين .

أخذن على بُعُولَتِهِنَّ عَهْدًا
 لَيْسَتَلِينَ أَبْدَانًا وَبَيَضًا
 إِذَا مَارْحُنَ يَمْشِينَ الْهُوَيْنَا
 يَقْتَنُ جِيَادَنَا وَيَقْتَنُ لِسْتَم
 إِذَا لَمْ نَحْمَهُنَّ فَلَا بَقِينَا
 وَمَا مَنَعَ الظَّعَانِ مِثْلَ ضَرْبِ
 إِذَا لَأَقْوَا فَوَارِسَ مُعَيْنَا (1)
 وَأَسْرَى فِي الْحَدِيدِ مُقْرَتِينَا (2)
 كَمَا اضْطَرَبَتْ مُتُونُ الشَّارِبِينَا (3)
 بُعُولَتُنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا
 لَشْيءٍ بَعْدَهُنَّ وَلَا حِينِنَا
 تَرَى مِنْهُ السَّوَاعِدَ كَالْقَلْبِينَا (4)

كذلك يفخر طرفة بن العبد بحمايتهم لنسائهم في ساحة المعركة، وذلك حين يشتد القتال، وتفزع النساء، ولا يبقى أمامهن إلا الاستبسال، والتفاني في القتال والمدافعة عن الحرمات يقول (5):

وَنَحْنُ إِذَا مَا الْخَيْلُ زَايِلٌ بَيْنَهَا
 وَجَالَتْ عَذَارَى الْحَيِّ شَتَى، كَأَنَّهَا
 وَلَمْ يَحْمِ أَهْلَ الْحَيِّ، إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ
 فَفَتْنَا، غَدَاةَ الْغَبِّ، كُلَّ نَقِيذَةٍ
 وَكَارِهَةٍ، قَدْ طَلَّقَتْهَا رَمَاحُنَا
 تَرَدُّ النَّحِيبَ فِي حِيَازِيمِ غُصَّةٍ
 وَمِنَ الطَّعْنِ نَشَاجٍ مُخَلٌّ وَمُزْعَفٌ (6)
 تَوَالِي صَوَارٍ، وَالْأَسْنَةَ تَرَعَفٌ (7)
 وَعَمَّ الدَّعَاءَ الْمُرْهَقُ الْمَتْلَهْفُ (8)
 وَمَنَا الْكَمِيُّ الصَّابِرُ الْمُتَعَرَّفُ (9)
 وَأَنْقَذْنَا، وَالْعَيْنُ بِالْمَاءِ تَذْرَفٌ (10)
 عَلَى بَطَلٍ، غَادَرْتَهُ وَهُوَ مَزْعَفٌ (11)
 وَيَقُولُ الْحَارِثُ بْنُ غَزْوَانَ الزُّبَيْدِيِّ (12):

- (1) المُعَلِّمُ: الذي أعلم نفسه بعلامة في الحرب يُعَرِّفُ بها لشجاعته .
 (2) الأبدان: الدروع ، وأحدها بدن . البيض: الحديد ، والبيض بالكسر: السيوف .
 (3) الهوينى: المشي على ترسل بلا قلق .
 (4) القلون: جمع قلة وهي خشبة يرفعها الصبيان يضربونها شبه السواعد إذا قطعت فطارت بها .
 (5) ديوان طرفة بن العبد، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1987 ص 55-56 .
 (6) زایل: فرَّق، - النَّشَاجُ: الضرب الذي يشخب دم منه، - المخل المزعف: المقاتل .
 (7) الصوار: قطيع البقر الوحشي، - الأسنة: مفردها سنان، وهو رأس الرمح، - ترعف: تقطر دماً .
 (8) المرهق: المتعب من شدة الحرب، - المتلهف: المتحسر على خسارته .
 (9) فتنا: أعطينا الفيء أو الغنيمة، - النقيذة: كل ما أنقذ من الأموال والماشية، الغب: اليوم الذي يتلو المعركة . الكمي: الفارس الشجاع . المعرف: الذي يُعَفُّ عن نفسه في الحرب .
 (10) الكارهة: المرأة التي تكره العيش مع زوجها، تذرِف: تسيل منها الدموع .
 (11) النحيب: البكاء، - المحزوم: وسط الصدر، - المزعف: المردى المقتول .
 (12) الأشباه والنظائر، للخالدين، تحقيق السيد محمد يوسف، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة 1965م جزء 1: 94 .

وما تحت السماء لنا ابن أختٍ
بمردفة عليها القدح جالا
وافتخر المطوح بن عثمان التغلبي بعدم استطاعة أحد من الأعداء سبي نساء قومه
فقال (1):

وما كان منا عند قوم سبيّة
وما كان من أموالنا عندهم نهب
وافتخر الطرماح بأن نساء قومه طيء لم تنقاسمن أحد من الأعداء، كما ينقاسمون
نساء غيرهم فيقول (2):

لنا نسوة لم يجر فيهن مقسم
إذا ما العذارى بالرماح استحلّت
وافتخر حريث بن عتاب الطائي، بأن نساءهم لم يتعرضن للسبي، ولم يقسمن بين
أعدائهن، لأن قومه دافعوا عنهن، فمنعوهن، يقول (3):

لنا نسوة لم يجر فيهن مقسم
خمس ولا بعد التساهم مربّع
حماهن من بنهان جمع عرمم
وصم العوالي، والحجاز الممنع
وإذا كان عمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد، وغيرهم قد افتخروا بحماية القبيلة
لنساؤها وذبيها عنهن، فإن من العرب من افتخر بنفسه، وفعاله، ومن هؤلاء، ربيعة بن مكرم،
الذي ضرب به المثل في حماية النساء، حيث استبسل في الدفاع عنهن، ولم أحس بدنو أجله
اتكأ على رمحة، ووقف في وجه أعدائه، وأمر النساء بالحق بالحمى وظل هكذا مدة من
الوقت ولا أحد يقربه هيبه له .

يقول عمرو بن العلاء: " ما نعلم قتيلاً حمى طعائن غير ربيعة بن مكرم " (4) وقالت
العرب فيه: " أحمى من مجير الطعن " (5) يقول عنه دريد بن الصمة - الذي كان
من أعدائه - في إعجاب بفتوته وبطولته، وفروسيته (6):

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
أردي فوارس لم يكونوا نهزة
حامي الطعائن فارساً لم يقتل
ثم استمر كأنه لم يفعل
يزجي ظعنته ويسحب ذيله
متوجهاً يمناه نحو المنزل

وافتخر ربيعة بن مكرم بنفسه وبحمايته للطعائن، فقال (7):

(1) السابق، 1 : 93 .

(2) انظر ديوان الطرماح، تحقيق عزة حسن، دمشق وزارة الثقافة والسياحة 1968م، ص 49 .

(3) انظر كتاب الرياض ص 126 . أراد بالحجاز : الجبل .

(4) مجمع الأمثال جزء 1 : 286 .

(5) السابق جزء 1 : 286 . ، المستقصى : 335 : 188 .

(6) انظر كتاب الرياض عدد 82/81 ، ص 165 .

(7) السابق ص 165 - 166 .

إن كان ينفعك اليقين فسائلي
إذا هي لأوّل من أتاها نُهْزَةٌ
إذ قال لي أدنى الفوارس ميةً
فهمتُ بالرمح الأصم إهابه
ومَنَحْتُ آخر بعده جِيَّاشَةً
ولقد شفَعْتُهُمَا بآخر ثالثٍ
عَنِّي الطعائنَ يومَ وادي الأخرمِ
لولا طَعَانُ ربيعةَ بنِ مكرمِ
خَلَّ الطعائنَ طوائعاً لا تندم
فهوى صريعاً للبيدين وللقم (1)
نَجلاءَ مُثَغِرَةً كَشِدْقِ الأضجمِ (2)
وأبى الفرارَ لى الغداةَ تَكْرُمي

ب - عجز العربي عن حماية النساء يجعله عرضة للهجاء :

أما إذا عجز العربي عن حماية نسائه، فإنه يكون عرضة للهجاء من أعدائه وذلك بتعيرهم، بسبب نسائهم، اللائي لم يستطيعوا منعهم، والذب عنهم، يقول جرير في هجائه تغلب، مذكراً إياهم بما فعل بهم زفر بن الحارث، الذي سبى نساءهم، وأخذ أموالهم (3):

أُنسيتَ يومك بالجزيرة بعدما
كانت عواقبُهُ عليك وبِالآ
حَمَلَتْ عليك حماةُ قيسٍ خيلها
شُعْنًا عَوَابِسَ تَحْمَلُ الأبطالاً
زُفْرُ الرئيسِ أبو الهزِيلِ أبادكمُ
فسبى النساءِ وأحرزَ الأَمْوالاً
ويقول (4):

ما كنتَ تَتَّقِي في الحُرُوبِ فوارسي
مِثْلًا، إذا رَكِبُوا ولا أَكْفَالاً
صَبَحْنَ نِسْوةً تَغْلِبُ فَسَبِيْنَهُنَّ
ورأى الهزِيلُ لورْدِهِنَّ رِعَالاً (5)

وقد يمن بعض الشعراء على مهجُوِّهم وقومهم أن استطاعوا تحرير سباياهم الذين عجزوا هم عن تخلصهم، فقد من الحطيئة على بني نجاد، وهم حي من عبس قبيلته، بأنه وقومه الأذنين كانوا يدفعون عن نسائهم، لمنعهم من السبي دفع الأسود الضواري عن أشبالها، يقول (6):

- (1) للبيدين وللقم : أي سقط على التراب ، فالتصقت به يدها وفمه . أي هالك .
(2) جياشنة : طعنة تدع الدم يجيش ويتدفق، نجلاء : واسعة ، - مثغرة : لها ثغرة أي قم .
- أضجم : الأعوج الفم ، المائل الشدق .
(3) ديوان جرير، شرح وتقديم نهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية ، 1992م ص 339 .
(4) السابق ، ص 340 .
(5) الهزِيل : ابن هبيرة التغلبي . - الرعال : طلائع القوم أو الإبل .
(6) ديوان الحطيئة، رواية وشرح ابن السكيت ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1993 . ص 83-84 .

ونحن إذا ما الخيل جاءت كأنها
إذا الخفرات البيض أبدت خدامها
نحامي وراء السبي منكم كما حمت
على كل محبوبك المراكل سابح
نعام إذا ما صيح في صحراتكم
ويقول جريير (6):

وكنتم تأمنون إذا أقمتنا
ونحن الذائدون، إذا جبتكم
تقدينا نساؤكم، إذا ما
وإن نطعن، فما لك من مقام
عن السبي المصيح والسوام
رقصن وقد رفعن عن الخدام (7)

وقال يهجو التميميين، مذكراً إياهم بأن يربوعاً قد ردت سبيهم في يوم
جزع طلال (8):

تفضل تيم في البراد ولا يرى
أتهجون يربوعاً وقد رد سبيكم
فوارس تيم معلمين على الثغر (9)
فوارسهم والبيض يلوين بالخمير

ت - معاملة السبايا :

اختلفت معاملة السبايا باختلاف السابي لها، فإذا كان هناك بعض العرب الذين يأنفون
من سبي النساء، فن هناك آخرين من الذين سبوا النساء عاملوهن معاملة حسنة، يقول حاتم
الطائي مفتخراً بمعاملته الحسنة للنساء (10):

فما زادها فينا السبأ مذلة
ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا

- (1) زَقَبَتْ : استخففت وساققت ، - أعجازه : أواخره ، - منتشر : متفرق .
(2) الخفرات : الجواري الحيات، الواحدة خفرة ، - الخدام : الخلاخيل ، قوله : (فزالت عنهن) أي زالت
من العجلة .
(3) عُفْرُ : أي يعفرن من دنا منهن .
(4) المحبوك : الشديد الفتل، يعني فرساً، - المراكل : جمع مركل وهو موضع عقب الفارس، حيث يركل
الفارس برجله، إذا حركها للركض .
(5) الحجرات : النواحي . الدثور : البطيء النهوض ، الناقة الدثور : التي لا تكاد تقوم من مبركها .
(6) ديوان جريير : 376-377 .
(7) الخدام : الخلاخيل ويشير إلى أن النساء قد شممت ثيابها هرباً فبانن خلاخيلها .
(8) ديوان جريير : 160 .
(9) البراد : مفردا البردة : وهي من الأكسية .
(10) العقد الفريد ، الجزء السابع : 123-124 .

ولكن خلطانها بخير نساننا
فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا
وكانت ترى فينا ابن سبيّة
إذا لقي الأبطال يطعنهم شزرا

وأعتق عروة سببيتين من سباياه، وتزوجهن، وأحبهن حبا شديداً، ولبثن معه زمناً، ثم خيرهن، فاخترن أهلن، وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً .

إذا كان هذا حال بعض العرب الذين يحسنون معاملة السبايا " فإن الجماء الغفير من الشعراء لا يكتفون بالفخر بسبي النساء، ولا يسكتون سكوت المستحي عن سوء معاملتهم في الإعزاز إياهن، بل يتبارون في وصف ما يقاسين في محنتهن وصف الملتد بتألم غيره، ويتسابقون في الاعتزاز بأن يكونوا هم المُسببين فيما تعانيه نسوة أقوى ما يملكن من سلاح دموعهن فقد وصفوا عدوهن الشديد خلف المطايا، تُدمي أقدامهنّ الحجارة، وقيامهن على خدمة الأتباع والرعاء والخدم، وتعرضهنّ لاهانتهم، ووصفوا سوقهنّ سوق الحيوانات، وقودهنّ قودها، وإردافهنّ خلف الرجال، وكأن ليس في السبي، في حد ذاته، من الإذلال وكسر الروح المعنوية ما يكفي " (1).

إن هناك من الشعراء من يفتخر بأنه يسوق النساء المنعمات - الحرائر سوق البهائم، في أرض مليئة بالحجارة الحادة التي تدمي الأقدام، يقول معقل بن خويلد (2) :

أرى أم عمرو في السياق تغضبت
وهان علينا دمعها وصغارها
وكم من فتاة قبلها سقت عنوة
منعمة الرزق باد حرارها (3)

ومن الشعراء من افتخر بتمكن قومه من سوق السبايا واقتسامهن ذليلات صاغرات مستسلمات يقول الأعشى (4):

فما برحوا حتى استحميت نساؤهم
وأجروا عليها بالسهام فذلت
وقد نجد بعض الشعراء يفخر بتقييده للنساء، حتى أن القيد قد أضر بمعاصمهن ومزقت السيوف ثيابهن، يقول مالك بن خالد الهذلي (5):

فبيرح عان موثق في حبالنا
وعيرى متى يُذكر لها الشجوة تشهق
مكبلّة قد حرّق السيف حقوها
وأخرى عليها حقوها لم يحرق (6)

(1)

(2) شرح أشعار الهذليين ، للسكري ، تحقيق عبد الستار فرّاج ، القاهرة دار العروبة 1965 . ص 396 .

(3) الرزق : جبال ، حرار جمع حرّة .

(4) ديوان الأعشى : 297 .

(5) شرح أشعار الهذليين : 471-472 .

(6) الحقو : الإزار ، وأصلة معقد الإزار .

ويقول النابغة (1):

تدعو قُعيناً وقد عَضَّ الحديدُ بها
عضَّ الثَّقَافِ على صمِّ الأتابيبِ
ويقول أيضاً (2):

أو حرّة كمهاة الرمل قد كُبلت
فوق المعاصم منها العَراقيبِ

وقد نجد في شعر العرب، ما يدل على التكييل الشنيع بالسبايا، والذي يعتبر، فعلاً ممقوتاً، كمقت فاعليه، وشاذاً شذوذ من يقدم عليه، يقول تميم بن الحباب السلمي مفتخراً ببقر بطون الحبالى من النساء السبايا(3):

بقرنا الحبالى من زُهَيْرٍ ومالكٍ
لبيّاسٍ قومٍ من رجاء التَّجْبُرِ

وافخر عامر بن الطفيل ببقر الحبالى فقال(4):

بقرنا الحبالى من شنوءة بعدما
خطبن لفيف الرياح نهداً وختعما
ونحن صجنا حيّ بخران غارةً
تبييل حبلها فحافتنا دما

وقد تبلغ القوة من السبايا أشدها، حين يقدم السابي على حرق السبايا مبالغة في إيلام العدو، وتشفياً منه، وهذا الأمر شاذاً، وبما لم يقدم عليه إلا المنذر بن ماء السماء، الذي أحرق سبايا بني بكر، وقتل أسراهم يوم أواره الأول وأشار إلى ذلك الأعشى بقوله(5):

ومنا الذي أعطاه في الجمع ربّه
على فاقّة وللملوك هباتها
سبايا بني شيبان يوم أواره
على النار إذ تجلى له فتياتها

ث - صورة السبيّة في الشعر الجاهلي :

حاول بعض الشعراء رسم صور متعددة للسبايا، مظهرين بعض مفاتهن أو إظهارهن في صورة ذليلة، مهانة، وذلك إيلاماً لأهلها، وقهراً لهم، يقول الشاعر عبيد بن الأبرص مشبهاً السبايا بالدمى(6):

وأوانس مثل الـدمى
حور العيون قد استبيننا

(1) شعر الحرب ، على الجندي : 577 .

(2) السابق : 577 .

(3) المرأة في الشعر الجاهلي : 491 .

(4) السابق : 491 .

(5) ديوان الأعشى : 123 .

(6) شعر الحرب : 576 .

وصورهن طفيل العنوي بقطيع البقر الوحشي (1):
عذارى يَسْحَبْنَ الذُّيُولَ كَأَنهَـا
مع القوم يَنْصُفْنَ العَضَارِيظَ رَبْرَبُ
ويشبههن امرؤ القيس بالسعالي (2):
أنا تَرَكَنا مِنْكُمْ قَتلى وَجِـرُ
حَى وَسَبَايا كَالسَّعَـالِـي
وشبهه النابغة صدورهن بالرُّمان (3):
يُخَطِّطْنَ بِالعِيدانِ فِي كلِّ مَقْعَدٍ
ويخبأْنَ رُمانَ الثُّديِ النِّوَاهِـدِ
وشبههن عميرة بن طارق، بالظباء (4):
فإني لو أمهلتكم فَغَزَوْتُمْ
فجئتم بسبي كالظباء وجمالٍ
وشبهها المهلهل بالبدر (5):
أسلموا كلَّ ذاتِ بَعْلِ وَأُخْرَى
ذاتِ خدرٍ غَرَاءَ مِثْلَ الهالِ
وشبهها زهير بن جناب بشمس الضحى بيضاء، عذبة الريق (6):
وسبينا من تغلب كلَّ بيضا
ء كنور الضحى برود الرضابِ
وشبهها الجنوب من عجلان بأنها حسناء يفوح المسك من ثيابها (7):
المخرج الكاعب الحسناء مُذْعَنَةً
في السبي ينفح من أردانها الطيب
وهذا هو حال السبي في الجاهلية، حاولت جاهداً أن أوضح الفكرة في عجلة لأتخل
بالغرض، حيث أنني لم أرغب في الحديث عن السبيّة في شعر الصعاليك دون المرور على
السبي في العصر الذي عاشوا فيه، وكانوا جزءاً منه .

(1) السابق : 576 .

(2) السابق : 576 .

(3) السابق : 577 .

(4) السابق : 577 .

(5) السابق : 577 .

(6) السابق : 577 .

(7) شرح أشعار الهذليين : 580 .

2- السبيّة في شعر الصعاليك

لم يكن شعر الصعاليك شاذاً عن شعر غيرهم من شعراء القبائل الذين عاصروهم، لذلك يجد القارئ في هذا الشعر بعض الإشارات إلى السبي، حيث أن الصعاليك اعتزوا بحماية نسائهم والذود عنهن، كما افتخروا بمقدرتهم على سبي نساء غيرهم، وعيروا أعدائهم بذلك، ووصفوا السبايا بأوصاف متعددة، مشابهة لأوصاف غيرهم من الشعراء، وقد نجد في شعر بعضهم شيئاً من التشفي أحياناً .

أ - الفخر بالسبي وتعبير الأعداء :

الفخر بسبي النساء واضح جلي في شعر كثير من شعراء العصر الجاهلي، والصعاليك جزء من هؤلاء الشعراء . حيث أن سبي نساء العدو دليل واضح على قوة السابي، وسطوته، وظهوره على عدوه، وقهره له، لذلك نجد بعض الصعاليك يفخر بقدرته على سبي نساء عدوه، يروى أن بني عامر أخذوا امرأة من بني عبس، ثم من بني سكين، يقال لها أسماء . فما لبثت عندهم إلا يوماً حتى استنقذها قومها، فبلغ عروة أن عامر بن الطفيل قد افتخر بذلك الأمر، وذكر أخذه إياها، فرد عروة عليهم يعيرهم بأخذه ليلى بنت شعواء الهلالية ، يقول (1) :

إن تأخذوا أسماء، موقف ساعة
لبسنا زماناً حسنها وشبابها
كماخذنا حسناء كرهاً، ودمعها
فمأخذ ليلى، وهي عذراء، أعجب
وردت إلى شعواء، والرأس أشيب
غداة اللوى، مغصوبةً يتصبب

إن عروة يفخر أنه سبى ليلى بنت شعواء، وهي فتاه عذراء، وبقيت عنده زماناً، ولم ترجع إلى أهلها إلا بعد أن شاب شعرها، وتقدم بها العمر، وهذا يدل على منعة الشاعر، وقوته، وفيه تعبير بضعف أعدائه وعجزهم عن استنقاذ سباياهم .

وأفتخر حاجز الأزد في معرض رده على عزيل الخثمي الذي عير حاجزاً بطعنة طعنها إياه عمرو بن معد يكرب في إحدى غارات خثعم على بني سلامان، فقال حاجزٌ مذكراً أعداءة بأيام كثيرة لهم هزموا أعداءهم، وسبوا نساءهم، وجاءوا بهن يقودونهن صاغرات ذليلات، وهذا الوصف فيه من التشفي وإيلام العدو ما فيه (2) :

إن تذكروا يوم القريّ فإنّه
بواءً بأيامٍ كثرٍ عيدهم (3)

(1) ديوان عروة : 47 .

(2) الأغاني، جزء 13 : 215 .

(3) القري : واد ، - البواء : الكفاء والنظير .

فنحن أبنا بالشخيصة واهناً جهاراً فجئنا بالنساء نقودها(1)

وافتخر أيضاً بسبيته نساء بني هلال، وذلك أن ضمير بن معز سيد بني هلال، قتل حُجَّاجاً من الأزد مرّوا ببني هلال بن عامر بن صعصعة، فبلغ ذلك جازراً، فجمع جمعاً من بني قومه وأغار على بني هلال فقتل فيهم، وسبى منهم، وفي ذلك يقول مخاطباً ضمرة بن معز (2):

ياضمرُ هل نلناكم بدمائنا	أم هل حدّونا نعلكم بمثال
تبكي لقتلى من فقيم قتلوا	فاليوم تبكي صادقاً لهلال
ولقد شفّاني أن رأيت نساءكم	يبكين مردفةً على الأكفال(3)
ياضمر إن الحرب أضحت بيننا	لقتت على الدكاء بعد حيال(4)

إن جازراً لم يشف غليله، ويذهب ما في صدره، رؤية القتلى من أعدائه، ولكن الذي شفاه وأذهب همه، وأطفأ نار صدره المتأججة على أعدائه هو رؤية النساء الباقيات، وقد أُردفن على مؤخرات الرحل، وهذا يظهر بجلاء حرص العربي على سبي النساء، لأن سبيهن يقهر عدوّه، ويُحقه مذلةً وهوان يلازمه طيلة حياته .

ويفتخر قيس بن الحدادية بنصره على هوازن، وأخذه أموالهم، وسببه نساءهم، حيث يروي صاحب الأغاني أن قيس بن الحدادية جمع قومه، فأغار على جموع هوازن فأصاب سبياً ومالاً، وقتل يومئذ من بني قشير : أبازيد وعروة وعامراً ومروحاً، وأصاب أبياتاً من كلاب خلوفاً، واستاق أموالهم وسبياً، ثم انصرف وهو يقول (5):

نحنُ جَلَبْنَا الخيلَ قَباً بطونها	تراها إلى الداعي المثنوب جُنْحاً(6)
بكل خزاعي إذا الحرب شمّرت	تسريل فيها برده وتوشّحاً
قتلنا أبا زيدٍ وزيداً وعامراً	وعروة أقصدتنا بها ومروحاً(7)

(1) الشخيصة : اسم مكان .

(2) الأغاني ، جزء 13 : 216 - 217 .

(3) المردفة : التي أركبت خلف الراكب ، - الأكفال جمع كفل : العجز .

(4) الدكاء : رابية من طين ، - الحيال : العقم .

(5) انظر الأغاني ، جزء 14 : 140-141 .

(6) القَبُّبُ كسبب : دقة الخصر وضمور البطن ، - التثويب : تشبية الدعاء، جنح جمع جانحة : أي مائلة

إليه مقبلة عليه .

(7) أقصده : طعنه فلم يخطئه .

وأبنا يابِلُ القومِ تُحْدَى ونَسْوَةٌ
 يبكين شِلْواً أو أُسيراً مُجْرَحاً⁽⁸⁾
 غداة سقينا أرضهم من دمائهم
 وأبنا بأدمِ كَنِّ بالأَمْسِ وضَّحاً⁽¹⁾
 وافتخر أيضاً بأنهم يتزوجون النساء بغير مهور، بعد أن يسبوهنَّ بسيوفهم،
 فيقول⁽²⁾:

وأنا بلا مهرِ سوى البيضِ والقنا نصيب بأفناء القبائل منكمهاً
 وغزت عيس طيء، بعد قتل عنتره بن شداد، فسبوا نساءً خارجات من الجبل
 فتبعتهن طيء، فقاتلتهم عيس حتى ردّوهم إلى جبلهم، وجاءوا بالنساء إلى بني عيس فقال
 عروة مفتخراً ومتشفيماً⁽³⁾:

أبلغ لديك عامراً إن لقيتها
 فَبَدَّ بَلَّغَتْ دارُ الحافظِ قرارها⁽⁴⁾
 رحلنا من الأجدال أجدال طيء
 نسوق النساءَ عودها وعشارها⁽⁵⁾
 ترى كل بيضاء العوارض طفلة
 تفري، إذا شال السّمَاك صدرها⁽⁶⁾
 وقد علمت أن لا انقلاب لرحلها
 إذا تركت من آخر الليل دارها⁽⁷⁾
 إن عروة يفتخر بأنهم ساقوا نساء طيء سوقاً مهيناً، ويذكر أن فيهن الحوامل
 والمرضعات، وصغار السن، اللائي يئسن من العودة لديارهن .

ويفتخر مالك بن حريم الهمداني، بانتصاره على أعدائه، وتركه قتلاهم في أرض
 المعركة تحوم الطير فوقهم، وعيرهم بأنهم ولّوا هاربيين، تاركين خلفهم نساءهم كأنهن الظباء
 يقعن سبايا في يد عدوهم ، يقول⁽⁸⁾:

(8) تُحْدَى : تُسَاقُ ، - الشَّلْوُ : كل مسلوخ أكل منه شيء ، أو هو الجزء من الجسد .
 (1) بأدمِ : أي سبايا من النساء ، وأدمِ : جمع أدماء ، والأدْمَةُ : السُّمْرَةُ في الناس . - وَضَّحاً : أي بيضاء ،
 جمع واضحة .
 (2) الأغـانـي : جزء 14 : 141 .
 (3) الديـوان : 76 .
 (4) دار الحفاظ : من المحافظة على الحسب والحزم ، قرارها : مستقرها .
 (5) عودها وعشارها : هذا مثلان وهما في الإبل ، والواحد : عائد : وهي الحديثة النتاج ، والعشار : التي
 قد قربت على أن تضع . أراد أن من النساء منهنَّ حوامل ، ومنهن مرضع لأطفالهن .
 (6) العوارض : جمع تكسير على وزن فواعل ، وهي من الأسنان الضواحك . - الطفلة : الناعمة
 الرخصة الرطبة ، - تغري : تشق صدرها إذا ارتفع السّمَاك وهو النجم ، - الصدر : شيء تلبسه المرأة
 على صدرها يشدّه .
 (7) إذا تركت من آخر الليل دارها : كأنها سبيت قبيل الصبح، وهذا دليل على أن بعض الغارات تكون آخر
 الليل لمفاجأة العدو .
 (8) انظر شعر مالك بن حريم ، في موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

ورَهط المازني وأبي كَعَيْبٍ
تَحومُ الطيرُ فَوْقَهُمْ وَجَالَتْ
فولوا عند ذاك وأمكنونا
غَنيمَةً جيشنا من كلِّ حَيٍّ
ولعسٌ كالظباءِ مُرَدِّفَاتٍ
تركنَاهم كَبَاقِيَةِ الرَّمَادِ
على خَوْلَانٍ بِالْأَسَلِ الحَدَادِ
من البيضِ الأوانِسِ والخِرَادِ (1)
مُعَرَّةُ الطرائفِ والتَّـلَادِ (2)
كَأَنَّ عِيونَهَا واهي المـِـوَادِ
وافتخر تأبط شراً بقتل رجلٍ من بجيلة، وأخذ امرأته سبية فيقول (3):
بحليلة الجُلِّيِّ بت من ليلها
بأنيسة طُوِيَتْ على مطويِّها
بين الإزار وكشحتها ثم الصق (4)
طَيَّ الحَمَالَةَ أو كطيِّ المنطق (5)

ب : صورة السبيّة في شعرهم :

تعددت صور السبايا في شعر الصعاليك على الرغم من قلتها، فقد نجد الشاعر أحياناً يسعده أن يرى السبايا، باكيات صاغرات، ذليلات وقد حملن خلف الركبان على مؤخرة الرحل، وهذه الصورة رسمها حاجز الأزدي في قوله (6):

ولقد شفاني أن رأيت نساءكم
يبكين مردفة على الأكفال
وهناك صورة للسبية وهي تؤخذ مكرهة، ودمعها يتصبب من عيناها على ما آل إليه حالها، يقول عروة (7):

كماأخذ حسانا كرهاً ودمعها
غَدَاةَ اللّوى مَعْصُوبَةً يَتَصَبَّبُ
وقد نجد صورة أخرى لسبايا وهن يُسَقِن سوق البهائم، باكيات على القتلى والجرحى والأسرى من قومهن، يقول قيس بن الحدادية (8):

وأبنا يابلِ القومِ تُحَدَى ونسوةٍ
يبكين شلواً أو أسيراً مُجرحاً
وصورة أخرى نجدها في شعر حاجز الأزري، حيث المبالغة في إهانة السبايا، وامتهانهن ومعاملتهن معاملة البهائم، يقول (9):

(1) الخراد : مفردها خريدة، وهي البكر لم يمساها أحد .

(2) لعس : المفرد لعساء وهي من كان في شفتيها سواد مستحن .

(3) ديوان الصعاليك : 151 .

(4) الإزار والكشح : الخصر .

(5) الحمالاة : علاقة السيف ، - المنطق : ما يتمنطق به .

(6) الأغاني ، جزء 13 : 217 .

(7) ديوان عروة : 47 .

(8) الأغاني جزء 14 : 140 .

فنحن أبخنا بالشخيصةِ واهناً جهازاً فجئنا بالنساء نقودها

ونجد نفس الصورة للسبايا عند عروة حيث يقول (1):

رحلنا من الأجيال أجيال طيء نسوق النساء عودها وعشارها

إن هذه الصورة المؤلمة المفزعة، التي ترسم بوضوح امتهان المرأة، وإذلالها، ومعاملتها بقسوة وخشونة، على الرغم من رقتها وضعفها، يوضح بجلاء الجو السائد في العصر الجاهلي، والذي يحاول فيه الشعراء إيلاء أعدائهم بكل طريقة ممكنة، لذلك يلجؤون إلى مثل هذه الصور، وهذه الأوصاف .

إن المرأة العربية تكره السبي وتبغضه، لما فيه من مذلة ومهانة، ونجدها تحاول تجنبه بكل طريقة ممكنة، فإذا ما فاجأ العدو قومها، ورأت أن ما تخشاه قد يقع فإن هول المفاجأة قد يجعلها لا تقوى على الفرار والاختباء على قدميها، فتحبو حبواً حتى تختبئ تحت البيت بعد أن عقد الخوف قدميها، الصورة المفزعة للنساء رسمها مالك بن حريم لنساء قوم غزوهم ليلاً فقال (2):

لما رأيت نساءهم يدخلن تحت البيت حبوا

أقبلت أقلي بالحسنا م معاً رؤوس القوم قلوا

ويلجأ الشعراء أحياناً إلى ذكر مفاتن السبايا، وجمالهن، من أجل إيلاء أعدائهم، وإذلالهم وقهرهم، فقد نجد من يشبههن بالضياء، والغزلان، مثل حاجز الأزدي الذي يقول (3):

وأعرض جامل عكروسي كغزلان الصرايم من بحار

وشبههن مالك بن حريم بالطباء، وأنهن من النساء البيض الخرائد الجميلات يقول (4):

فولوا عن ذاك وأمكنونا من البيض الأوانس والخراد

غنيمة جيشنا من كل حي معكرة الطرائف والتلاد

ولعس كالطباء مردفات كأن عيونها واهي الميزاد

(9) الأغواني جزء 13 : 125 .

(1) ديوان عروة : 76 .

(2) شعر مالك بن حريم ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

(3) شعر حاجز الأزدي ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

(4) شعر مالك بن حريم ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

إن هؤلاء النسوة الخرائد الحسان، البيض الأوانس، المنعمات، قد يصبحن سمراً بعد
البياض من شدة ما يلاقين من قسوة الأعداء، ومن ذل السبي وغلبته، يقول قيس
بن الحدادية (5):

غداة سقينا أرضهم من دمائهم وأبنا بأدمٍ كنّ بالأمس وضّحاً

وأختم بهذه الصورة، التي رسمها أبو خراش، لامرأة عجوز من فهم حيث يصفها
بالدهاء والمكر والخديعة، يذكر صاحب الأغاني، أن أبا خراش غزا فهماً، فأصاب منهم
عجوزاً فأتى بها منزل قومه، فدفعها إلى شيخ منهم، وقال له، احتفظ بها حتى أتيتك، وانطلق
لحاجته، فأدخلته بيتاً صغيراً وأغلقت عليه وانطلقت، فجاء أبو خراش وقد ذهبت
فقال (1) :

سدّت عليه دولجاً ثم يممت بني فالج بالليث أهل الخزائم (2)
وقالت له دنخ مكانك إنني سألقاك إن وافيت أهل المَواسِم (3)

ت : معاملة السبايا :

لم يكن العرب سواء في معاملتهم للسبايا، وكذلك الصعاليك، فإن كان هناك من كان
يقسو على السبايا، ويعاملهن بغلظة وشدة، وقسوة بالغة، انتقاماً من أهلهن، وشفاء لما في
صدر السابي من غيظ، وحقد دفين، كقول ذي الكلب الهذلي (4) :

وأبرح في طوال الدهر حتى أقيم نساءً بجلةً بالنعـال

وكذلك فإن ما ذكرته من شواهد سابقة على سوء معاملة السبايا يغني عن التكرار .
ولكن هناك من عاملهن معاملة حسنة، وطيبة، فقد يكرم الصعلوك المرأة ويعتقها ويتزوجها،
بل يذهب به الأمر إلى أبعد من ذلك حين يتعلق بها، ويحبها حباً عميقاً، يملك عليه فؤاده،
ويشغل فكره، وهذا ما حدث مع عروة بن الورد، الذي أعتق امرأة من كنانة وتزوجها،
وأنجب منها أولاداً وكان يحبها حباً عميقاً، ويعاملها معاملة حسنة، وهذا يؤكد ما قالته فيه
حين تركته وعادت لأهلها، بعد أن فادها قومها، حيث أقبلت عليه قائلةً: "يا عروة أما إنني
أقول فيك وإن فارقتك الحق، والله ما أعلم امرأة من العرب ألقّت سترها على بعلٍ خير منك

(5) الأغاني، جزء 14 : 141 .

(1) انظر الأغاني جزء 21 : 246 : 247 .

(2) الدولج : بيت صغير للبهيم . - الليث : ماء لهم ، - الخزائم : البقر ، واحدها خزومة .

(3) يقال : دنخ الرجل ، - دمخ إذا أكب على وجهه ويديه .

(4) شرح أشعار الهذليين ، جزء الأول : 233 .

وأغض طرفاً وأقل فحشاً، وأجود يداً وأحمى للحقيقة " .⁽⁵⁾ إن عروة كان رجلاً حليماً يحيا بأخلاق الفرسان، ولم يكن له أن يوصف بهذا الوصف من امرأة سببية، فارقته بعد زمن إلا لأنه كان كما قالت، رجلاً فارساً، تعالى على الأحقاد، والضغائن، وأبى عليه خلقة الإسفاف في معاملة المرأة التي هي عنوان للجمال والوداعة والرقعة، واللين والضعف فعاملها بما هي أهل له، من رفق ولين، ومعاملة حسنه، بل أحبها حباً ملك عليه فؤاده، وأطار النوم من عينيه مما جعله يظل نادماً بقية حياته على فراقها، والموافقة على مفاداتها، يقول :

أرقتُ وصُحبتِي، بمضيق عمقٍ	لبرق، في تهامة، مستطير ⁽¹⁾
إذا قلت استهل على قديداً	يحورُ ربابُهُ حور الكسير ⁽²⁾
تكشف عائدٌ بقاء، تنفسي	ذكور الخيل عن ولد شفور ⁽³⁾
سقى سلمى، وأين ديار سلمى	إذا حلت مجاورة السرير ⁽⁴⁾
إذا حلت بأرض بني عسي	وأهلي بين زامرة وكير ⁽⁵⁾
ذكرت منازل من أم وهب	محل الحي أسفل ذي النقيير ⁽⁶⁾
وأحدث معهداً من أم وهب	معرسنا بدار بني النضير ⁽⁶⁾
وقالوا: ما شاء؟ فقلت ألهو	إلى الأصباح، آثر ذي أثير
بآنسة الحدث، رضاب فيها	بعيد النوم، كالغنب العصير ⁽⁷⁾
أطعت الأمرين بصرم سلمى	فطاروا في عضاه الاستعور ⁽⁸⁾
سقوني النسئ، ثم تكفونسي	عداة الله من كذب وزور ⁽⁹⁾
وقالوا : لست بعد فداء سلمى	بمغن، ما لديك ، ولا فقيير
ألا وأبيك، لو كاليوم أمري	ومن لك بالتدبر في الأمور
إذا لملكت عصمة أم وهب	على ما كان من حسك الصدور ⁽¹⁰⁾

(5) انظر القصة في الأغاني : جزء ، 3 : 72 وما بعدها .

(1) عمق : اسم بلدة بالمدينة ، مستطير : منتشر .

(2) قدير : مكان قريب من مكة، - استهل : صات، - ربابة : سحابة - يحور : يرجع ، - الكسير :

البطيء في المشي .

(3) العائد : الحديثة النتاج، - شفور : الشفر هو رفع الرجلين .

(4) السرير : اسم مكان في بلد بني كنانة .

(5) بنو علي : قوم من بني كنانة - زامرة وكير : موضعان .

(6) أم وهب : كنية زوجته . - ذو النقيير : اسم موضع لبني القين ولبني كلاب .

(7) الأنسة : التي لا تنفر - رضاب فيها : ريق فيها .

(8) الاستعور : اسم موضع .

(9) النسيء : المُسكر .

فيا للناس كيف غلبت نفسي على شيء، ويكرهه ضميري
ألا يا ليتني عاصيت طلقاً وجباراً، ومن لي من أمير (11)

وفي حادثة أخرى، يسبي عروة امرأة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، يُقال لها ليلي بنت شعواء، فيعتقها، ويتزوجها، وتبقى عنده زمناً، ثم تطلب منه أن تزور أهلها، فحملها حتى أتاهم بها، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه وتوعدّه قومها بالقتل، فانصرف عنهم، وأقبل عليها وقال لها: يا ليلي خبري صواحبك عني كيف أنا، فقالت: ما أرى لك عقلاً، أتراني قد اخترت عليك وتقول خبري عني. (1) وما أرى عروة يطلب منها أن تخبر عنه إلا لثقتّه بأنه كان يعاملها معاملة طيبة، معاملة الزوج لزوجته، معاملة المحب لمحبيته، يرأف بها، ويعطف عليها ويحسن صحبتها، ولو لم يكن كذلك، لما تجرأ على الطلب منها أن تخبر عنه.

ولعل عروة أحب سلمى الكنانية حباً فاق حبه ليلي بنت شعواء، وهذا يظهر من أمرين أولهما شعرة في القصيدة السابقة الذي ينم عن عاطفة صادقة، ومشاعر فياضة، وحب متدفق، وندم وحسرة يعتصران قلبه على التفريط فيها. والثاني أن عروة لم يُعَيَّر قومها بسبائنها، كما عير قوم ليلي بسبائنها، كما في أبيات سابقة. ولكنه على الرغم من ذلك كان يحن إلى ليلي وفي ذلك يقول (2):

تحنُّ إلى ليلي بحرّ بلادها وأنت عليها بالملا كنت أقدر (3)
يحلُّ بوادٍ من كراءٍ مُضِلَّة تُحاولُ ليلي أنْ أهَابَ وأحصرا (4)
وكيف تُرجِّبها وقد حيل دونها وقد جاورت حياً بتيمن منكر (5)
تبغائي الأعداء إما إلى دم وإما عراض السعادين مصدراً (6)
يظلُّ الأباء ساقطاً فوق متنه له العدوَّة الأولى، إذا القرنُ أصحرا (7)

(10) الحسك: الخشونة والغل والعداوة .

(11) طلق وجبار: أخوة وابن عمّة .

(1) انظر القصة في الأغاني: جزء 3: 77 .

(2) ديوان عروة: 65 - 66 ، ديوان الصعاليك: 78 - 80 .

(3) بحرّ بلادها: بين قومها، - الملا: الأرض الواسعة (في المصدرين السابقين سلمى بدل ليلي) وفي

الأغاني ليلي وهو الأصوب . وأشار ديوان الصعاليك إلى الروايتين بليلى وسلمى في الحاشية .

(4) كراء: أرض تكثر فيها الأسود . - أحصرا: أضيق عن ذلك، أعجزه .

(5) تيمن: أرض قريبة من جرش، وقيل في بلاد اليمن، - منكر: غير معروف .

(6) عراض الساعدين: يراد به الأسد .

(7) الأباء: القصب، أي أن هذا الأسد يسكن الغياض، ويتساقط القصب على متنه .

من اللآء تَسْكُنُ العَرِينَ بعسّرا(8)	كأنّ خوات الرعدِ رزءُ زئيره
وعنّ لنا من أمرنا ما تيسّرا(9)	إذا نحنُ أبردنا وردت ركابنا
وصبري، إذا ما الشئى ولى فأدبرا(1)	بدالك مني، عند ذلك صر يمتي
لجارتها ما إن يعيش بأحورا(2)	وما أنسم الأشياء لا أنس قولها
علي بما جشمتني يوم غضورا(3)	لعلك يوماً أن تسري ندامة
لي اليوم أدنى منك علماً وأخبرا(4)	فغربت إن لم تخبريهم فلا أرى
كريماً إذا اسود الأنامل أزهررا(5)	قعيدك ، عمر الله، هل تعلميني
لعرضي، حتى يؤكل النبت أخضرا(6)	صبوراً على رزء الموالى وحافظاً
إذا اغبر أولاد الأذلة أسفورا(7)	أقب ومخماص الشتاء مرزأ

ث : حماية النساء والذود عنهن :

حفل الشعر العربي بصور البطولة والشجاعة، والذود عن الحرمات وخصوصاً النساء، اللاتي كان العربي يحرص كل الحرص على ألا يمسهن مكروه، وما أظن مكروهاً أشد من الوقوع سبية في يد الأعداء، لذلك ظل العربي حريصاً على التفاني في الذود عنهن، ومنعهن ما استطاع . وهذا الأمر كان مجال فخر عند الشعراء .

والصعاليك جزء من هذا المجتمع، بل إن كثيراً منهم كانوا فرساناً أشداء، يركبون الخطر، ولا يهابون الموت، لذلك نجدهم يدافعون عن حرماتهم بكل ما أوتوا من قوة، . يقول قيس بن الحدادية مفتخراً بقومه، ومعدداً بعض صفاته ومعتداً بها، حيث أنهم أهل شرف

(8) خوات الرعد : شبه صوت زئير الأسد بصوت الرعد، - الخوات : صوت الرعد . - عُسْر : مكان مأسدة .

(9) ردت ركابنا : ردت ما شيتنا من الرعي ، - عنّ لنا : عرض لنا .

(1) صريمتي : أي مضائي وعزيمتي في الأمور .

(2) بأحورا : هو في هذا الموضع العقل ، يقال للرجل : ما إن يعيش بأحور ، أي ذهب عقله .

(3) تسري : تظهر ، حضور : ماء لطيء ، - جشمتني : حملتني .

(4) فغُرِّبت : يدعو عليها بالبعد حتى تصير غريبة .

(5) مَعِيدك : قسم يعني به : اذكرك - عمر الله : بقاء الله .

(6) رزء الموالى ك أي منالهم مني

(7) ديوان الصعاليك : 53 - 54 .

وحسب ، ونسب ومكانه عاليه، وأنهم يذودون عن حرماتهم : بفروسيه
وصدق (8).

وأهل الثناء وأهل الحسب	بحرب خزاعة أهل العلاء
عن الحرمات جميع العرب	هم المانعو البيت الذائدون
كنانة غصباً ببيض القضب	نفوا جرهماً ونفوا بعدهم
عليها فوارس صدق نجب	وسمر الرماح وجرد الجياد
بأحياء طيء وحازوا السلب	وهم ألحقوا أسداً عنوة

وافتخر عبيد الله بن الحر الجعفي بحمايته لزوجته، والذود عنها، بل إنه تفانى في
الحرب من أجلها، وعرض نفسه للمهالك، لذلك نجده يخاطبها معتداً بنفسه قائلاً (1):

أنا الفارس الحامي حقائق مذحج	ألم تعلمي يا أم توبة أنني
وقد ولجوا عليك من كل مولى	فبالله هل أبصرت مثلي فارساً
أشدُّ إذا ما غمرة لم تُفرج	ومثلي حامي دون مثلك أنني
إلى الأمن والعيش الرفيع المخرفج	أضاربهم بالسيف عنك لترجعي
ككرّ أبي شيلين في الخيس محرج	إذا ما أحاطوني كررت عليهم
أما أنت يابن الحرّ بالمتحرج	ولا غرو إلا قول سلمى ظعيني
وشمر هداك الله بالخيل واخرج	دع القوم لا تقتلهم واتج سالمًا
على خير أحوال المؤمل فارتجي	وإني لأرجو يا ابنة الخير أن أرى

إن هذه الأبيات تظهر تفاني الصعلوك في الذود عن حرماته، تفانياً ينسيه نفسه، وما
يصدق بها من أخطار مما يثير شفقة الزوجة عليه، فتطلب منه الكف عن قتل أعدائه، وذلك
بعد أن خلصها ن أيديهم، وفك أسرها . وأن يغادر المكان بسرعة ، كي لا يصيبه
مكروه .

ومن فخر الشعراء بمنعتهم وحمايتهم لحرماتهم، فخرهم بحمايتهم لجيرانهم، وهذا
فخر بليغ مبطن حيث أن الذي لديه القدرة على حماية جيرانه وحرماتهم هو أقدر على
حماية أهله وحرماته، ولذلك نجد الشعراء يباهون بهذا الأمر يقول مالك
بن حريم الهمداني (2):

وأوصاني الحريمُ بعزٍّ جاري وأمنعهُ وليس به امتناعُ

(8) الأغاني ، جزء 14 : 141 .

(1) منتهى الطلب من أشعار العرب ، لابن المبارك : 658 - 659 .

(2) شعر مالك بن حريم ، موسوعة الشعر ، المجمع الثقافي .

وأدفع ضيمه وأدود عنه وأمنعه إذا امتنع المناع

وفي أبيات أخرى نجده حريصاً على أمن جارته وحمائتها، في وقت يعجز غيره عن حماية جيرانهم يقول (3):

فإن شاب الرأس مني فإني
وواحدة ألا أبيت بغرة
وثانية ألا تفرع جارتني
وإذا ما سوام الحي حولي توضع
وإذا كان جار القوم فيهم مفرعاً
وأبيت على نفسي مناقب أربعا

ويفتخر عروة بأن جاره لا يضام وهو قادرٌ على انصافه، والذود عنه، كما أنه لا يتخلى عن أخواله وخالاته، مهما كان الثمن، يقول (1):

فلا أترك الإخوان، ما عشت للردى
ولا يستضام الدهر جاري ولا أرى
وإن جرتي ألوت رياح ببيتها
كما أنه لا يترك الماء شارباً
كمن بات تسري للصديق عقاربهُ
تغافلت حتى يستر البيت جانبهُ (2)

إن هذه الخصال الحميدة، هي التي يفتخر الصعلوك ويعتز بها وهي خصال سامية، حرص العربي على الفخر بها، فحماية الأهل والعشيرة وخصوصاً النساء، وحماية الجار، والحفاظ على عرضه وحرماته، أمور حرص عليها العربي لأنها عنوان بقائه في مجتمع، سيطرت عليه النزعات القبلية، ومجتمع يموج بالفتن والحروب التي لا تهدأ، مجتمع لا يعترف إلا بالقوي، أما الضعيف فلا يجد من يقيم عثرته، ويزود عنه إلا إذا احتوى بحمى الأقوياء . ولاذ بهم فهم خير من يجير المظلوم، ويفك العاني .

(3) الأصمعيات : 64 .

(1) ديوان عروة : 48 .

(2) ألوت رياح ببيتها : أي ذهبت به وألقته .

ثالثاً : الفتاة في شعر الصعاليك

أ- وصفها وتربيتها :

الفتاة هي البنت قبل زواجها، وهي الشابة الفتية البضة الناعمة، المرفهة، المدللة المحاطة بكل عناية، سواء بنتاً أو أختاً، لها ترخي الأسماع، ويلين الكلام، ومن أجلها، ينتفض الفرسان، وتشتعل الحروب .

والشعر الجاهلي يصور شيئاً من حياة الفتاة التي تنعم بالحياة، والتربية الحسنة، والعيش الهانئ الرغد، في بيت هي فيه مُعززة مكرمة، يحوطها أبوها برعايته وحمايته، ويرفق بها ويعطف عليها، ويدلها، ويحنو عليها، يقول المرار بن منقذ (1) :

واعمتها أم صدق بـ	ريرة	وأب بربها غير حـ	رر
في خذواء يعشي ناعـ	م	برد العيش عليها وقصـ	رر
لا تمس الأرض إلا دونها		عن بلاط الأرض ثوب منعـ	رر
تطأ الخز ولا تكرمه		وتطيل الذيل منه وتجـ	رر
وترى الريط مواديع لها		شعراً تلبسها بعد شعـ	رر

إنها فتاة منعمة مدللة، وتلبس الحرير والخز، وتحيا حياة رغبة، وهانئة، لها أثواب ثمينة، لا يهملها ما بلي منها لكثرتها، وهذه صورة واضحة للفتاة الجاهلية، التي عزت مكانتها عند أهلها، فلم يبخلوا عليها بشيء، بل قدموا لها كل غالي ونفيس من أجل سعادتها .

ويذكر النمر بن تولب بعض وسائل الزينة، والطيب والطعام الحسن الذي نعمت به الفتاة من الطبقات الممتازة عندهم يقول (2) :

أناة عليها لؤلؤ وزبرجد	ونظم كأجواز الجراد المفصل (3)
بربتها الترغيب والمحض خلفه	ومسك وكافور ولبنى تأكل (4)
يشن عليها الزعفران كأنه	دم قارت تعلى به ثم تغسل (5)
سواء عليها الشيخ لم تدرما الصبا	إذا ما رأته والألوف المقتل (6)

(1) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها - عبد الله غففي ، ج 1 ص 13 .

(2) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 214 .

(3) أناة : بطيئة ، - أجواز الجراد : أوساطها .

(4) بربتها : يغذوها ، - الترغيب : قطع السنام ، - خلفه : واحد بعد واحد، - لبنى : شجرة من الطيب .

(5) يشن : بصيب، - قارت : جامد، - تعلى : تطلى .

(6) الألوف : من لف النساء ، - المقتل : الغزل .

يصف الشاعر هذه الفتاة، بأنها بطيئة الحركة، دلالة على ترفها ونعمتها، ويذكر بعض زينتها من أحجار كريمة، كالزبرجد واللؤلؤ وغيرها، وكذلك يذكر اصطفاها بأطيب الطعام وهو سنام الجمل، ويذكر طبيها من الزعفران الذي يصب عليها صباً كأنه الدم المتخثر المنقطع، ويختم بقوله أنها لصغر سنها، وقلة خبرتها، لا تفرق بين الشيخ الكبير والذي لا حاجة له بالنساء، وبين الشاب القوي، الذي يبحث عن النساء ويتغزل بهن .

إن أفضل ما توصف به امرأة في الجاهلية هو العفة والحياء، لذلك نجد الشنفرى الأزدي يتباهى بكون امرأته تتميز بهذه الصفات، ويجاهر بها في شعره، وهو يعرف أن هذه القيم الأخلاقية الراقية هي التي تحيط المرأة بسياج منيع، فتظل مرموقة من بعيد تهواها القلوب، وتشتاق لها الأنفس، ويفتخر بها الزوج، ويزهو بها الأب والأخوة، وتقّدي بها البنات، ويتسامى بها الأبناء . وإن فقدت هذين العنصرين، أو تخلت عنهما فإنها، تهوي من مكان عال منيع، إلى منحدر سحيق وترخص وتبتذل، فلا يحفظ الناس لها قدراً، ولا تساوى عندهم شيئاً . وهذا هو حال المجتمع العربي في عصوره . يقول الشنفرى واصفاً عفة زوجته وحياءها وصفاً دقيقاً (1):

أَمِيمَةٌ لَا يُخْزِي نَثَاهَا حَلِيلَهَا	إِذَا ذُكِرَ النَّسْوَانُ عَفَّتْ وَجَلَّتْ
يَحِلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللُّومِ بَيْتُهَا	إِذَا مَا بُيُوتٌ بِالْمَلَامَةِ حَلَّتْ
فَقَدْ أَعْجَبْتَنِي لَا سَقُوطُ قَنَاعُهَا	إِذَا مَا مَشَتْ وَلَا بِذَاتِ تَلَفَّتْ
كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نَسِيًّا تَقْصُهُ	عَلَى أُمَّهَا وَإِنْ تَكَلَّمْتَ تَبَلَّتْ

فإذا كانت النساء كذلك فإن " الإفراط في الحياء والمبالغة في العفة من الصفات التي تتميز بها الفتاة عن غيرها من النساء، وهذه من القيم التي توارثتها الأجيال العربية، فإذا فقدتها الفتاة خرجت عن سيرة الفتيات من أمثالها، ومن هذا نجد الخفر والحياء من أهم الصفات التي ذكرها لها الجاهليون في أشعارهم " (2).

لذلك نجد السليك يبحث عن وصف - فتاة من بني عوار بن مالك فلا يجد لها وصفاً أفضل من الحياء والعفة يقول (3):

من الخفريات لم تفضح أباهَا ولم ترفع لأخوتها شناراً(4)

إن هذه الفتاة الحبيبة العفيفة الشريفة، قد يترك لها أمرها في اختيار زوجها، فلها أن ترفض من تشاء وتوافق على من تشاء، وقد تستشير فيشار عليها، فربما توافق على الزواج،

(1) ديوان الصعاليك : 16 .

(2) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 215 .

(3) ديوان الصعاليك : 187 .

(4) من الخفريات : من الحبيبات ، - الشنار : العيب والعار .

وترجع عنه بعد ذلك فلا يرغمها أحد، وهذا ما حدث مع تأبط شراً ، الذي خطب فتاة من عبس، ومن بني قارب، فأرادت أن تتزوجه ووعده بذلك، فلما جاءها وجدها قد رغبت عنه، فقال لها ما غيرك، فقالت والله إن الحسب لكريم، ولكن قومي قالوا لي ما تصنعى برجل يقتل عند أحد اليومين، وتبقىين بلا زوج، فانصرف عنها وهو يقول (1):

وقالوا لها لا تنكحيه فإنَّهُ *** لأول نصل أن يلاقي مجمعا
 فلم ترمن رأي فتيلاً وحاذرت *** تأيمها من لابس الليل أروعا
 قليل غرار النوم أكبر همّه *** دم الثأر أو يلقى كميّاً مسقعا

ب- مكانتها عند أهلها :

لم تكن مكانة الفتاة في بيتها بالهينة، وإنما كانت الفتاة تتبوأ عند أهلها مكانة مرموقة يصونونها، ويدافعون عنها، ويلبون طلبها، ويسعون في راحتها، ويبالغون في تدليلها فتحيا بذلك كريمة عزيزة معتدة بنفسها، مزهوة بأهلها .

فلا غرو بعد ذلك أن تعلق بها الهمة، فتجير الرجال، وتمتشق السيف، وتدافع عن جوارها، رغم ضعفها، وورقتها، وأنها ما خلقت لقتال .

ومن الدليل على علو مكانتها عند أهلها، أن يهب اخوتها ملبين نداءها، فيدافعون عنها ويجيرون من أجارت، دافعين عنا ظلم الظالمين وجور الجائرين، وكيف لا وهي الفتاة الشريفة العفيفة، الطاهرة، التي لم تخذش لهم شرفاً، ولم تهتك لهم سترأ ولم تدنس لهم عرضاً، بل حفظت نفسها عفيفة شريفة طاهرة، وأطلت أهلها بمنأى عن كل ما يعيبهم .

لقد حفظ لنا شعر الصعاليك قصة تشير بوضوح، إلى ما قلت في الأسطر السابقة، وذلك أن السليك أغار على بني عوارة، بطن من بني مالك بن ضبيعة، فلم يظفر منهم بفائدة . وأرادوا موائبته، فقال شيخ منهم : إنه إذا عدا لم يتعلق به شيء فدعوة حتى يرد الماء، فإذا شرب ثقل فلم يستطع العدو، وظفرت به، فأملهوه حتى ورد الماء فشرب، ثم بادروه . فلما علم أنه مأخوذ خالفهم وقصد أقرب بيوتهم، فولج على فتاه يقال لها : فكيهه، فاستجار بها . فحمنه وجعلته تحت درعها (ثوب من زرد) وامتشقت سيفاً لحمايته . فكاثروها فكشفت خمارها عن شعرها وصاحت بأخوتها، فجاؤوا ودفعوا عنها وعنه، حتى نجا من القتل، فقال السليك في ذلك (2):

(1) الحماسة ، لأبي تمام، : 189 ، ديوان الصعاليك : 138 ، الأغاني ، جزء 21 : 164 .

(2) ديوان الصعاليك : 187 - 188 .

لَعْمَرُ أَبِيكَ وَالْأَبْنَاءُ تَنَمِي	نَعِمَ الْجَارُ أُخْتُ بَنِي عَوَارَا
مَنْ الْخَفَرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَبَاهَا	وَلَمْ تَرْفَعْ لِأُخُوتِهَا شَنَارَا
كَأَنَّ مَجَامِعَ الْأُرْدَافِ مِنْهَا	نَقِيَّ دَرَجَتٍ عَلَيْهِ الرِّيحُ هَارَا(1)
يَعَافُ وَصَالَ ذَاتَ الْبِذْلِ قَلْبِي	وَيَتَّبِعُ الْمُمَنِّعَةَ النَّوَارَا(2)
وَمَا عَجَزَتْ فَكِيهَةٌ يَوْمَ قَامَتْ	بِنَصْلِ السَّيْفِ وَاسْتَلْبُوا الْخَمَارَا

إن هذه الفتاة رغم تدرعها بالعفة، واعتصامها بالحياء سارعت إلى الوقوف في وجه أعدائه واستلقت السيف لنجدته . إذ النجدة خلق عربي صميم في رجالهم ونسائهم، على السواء، فلا تحفل المحبة بسقوط خمارها، إذا ما قامت لنجدة، وهذا الصورة التي صورها السليك من الصور الظريفة الجميلة المحبة، وقد روى عن مبلغ تأثيرها في النفوس فيما بعد أن فتاة متبذلة سمعتها، فتابت بسبب ما خلفته في نفسها من روعة خاصة قوله " من الخفرات لم تفضح أباهها " (3).

وكذلك توضح القصة مسارعة الأخوة لنجدة اختهم والذود عنها وحماية جارهها، إعزازاً لها، واعتداداً بحمايتها، وهذا يدل على مكانة الأخت عند اخوتها، تلك الأخت التي علت هممتها حتى غدت تجير كالرجال، وتحمي جوارها، بشدة وصلابة، حيث تمتشق السيف، وتقاتل المعتدين كاشفة عن وجهها، رافعة خمارها الذي هو عنوان عفتها وشرفها . حتى لقد ضرب بها المثل فقيل : " أوفى من فكيهة " (4).

ومن مكانة الأخت عند اخوتها، أن يفادوا عليها، ويحرصوا على ألا تذكر بسوء، حتى تظل يميناً عن عبث العابثين، وطمع الطامعين، يروى أن القتال الكلابي كان يتحدث إلى ابنه عمه فرآه أخوها زياد، فزجره ونهاه عن لقاءها، والحديث معها، وتوعده بالقتل إن رآه يتحدث معها ثانية، وبعد أيام رآه يحدثها، فأخذ سيفه ليضربه به، فهرب القتال، فتبعه زياد، وحاول القتال عندما رآه دنا منه، أن يستعطفه، حيث ناشده بالله والرحم فلم يلتفت إليه، فعطف عليه القتال فقتله وقال (5):

نَهَيْتُ زِيَادًا وَالْمَهَامَةَ بَيْنَنَا	وَذَكَرْتُهُ أَرْحَامِ سَعْدٍ وَهَيْئَمَ
فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهُ غَيْرَ مَنْتَهَهُ	أَمَلْتُ لَهُ كَفِّي بِلَدْنِ مَقَامِ
وَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّنِي قَدْ قَاتَلْتُهُ	نَدِمْتُ عَلَيْهِ أَيَّ سَاعَةٍ مَنْدَمِ

(1) النقي (والنقاء) : كتيب الرمل المتحرك . - هار : حرّك .

(2) الممنعة : الصعبة . - النوار : المرأة النفور من الريبة .

(3) أنظر المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 216 .

(4) مجمع الأمثال ، للميداني : 4439 ص 445 ، المستقصى : 1848 ص 438 .

(5) الأغاني : جزء 20 : 159 . (دار الفكر) .

لم يكن زياد ليضحى بنفسه من أجل سمعة اخته، لولا مكانتها عنده، وحرصه عليها، حتى من ابن عمها الذي هو من حمايتها أيضاً، والذائدين عنها .
 وبلغ من مكانة الفتاة عند العرب أن يتغنى بذكرها الفرسان في ساحة الوعى حيث كانوا " يتغنون بذكرهن كما يتغنون بحبيباتهم وأزواجهم طلباً للاستبسال واثارة للنخوة والحمية في نفوسهم الطرية " (1).

ومن الذين تغنوا بذكر بناتهم في الحرب جَحْدَرُ بْنُ ضَبَّيْعَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، وكان ذلك في يوم تحلاق اللمم، حيث أن بكراً حلقت رؤوسها يومئذ استبسالاً للموت وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم، إذ كن معهم في الحرب، ولم يبق منهم أحد إلا حلق رأسه غير جحدر فإنه كان رجلاً دميماً حسن اللمة فارساً من الفرسان المعدودين، فقال يا قوم إن حلقتم رأسي شوهتم بي فدعوا لمتي لأول فارس يطلع من الثنية غداً من القوم ففعلوا ذلك وتركوا لمته . يقول جُحْدَرُ (2):

قد يَتَمَّتْ بِنْتِي وَأَمَّتْ كَنْتِي	وَشَعَّتْ بَعْدَ الرَّهَّانِ جُمَّتِي (3)
رُدُّوا عَلَيَّ الْخَيْلَ إِنْ أَلَمَّتْ	إِنْ لَمْ يُنَا جِزْهَا فَجُزُّوا لِمَتِّي (4)
قد عَلِمَتْ وَالِدَةٌ مَا ضَمَّتْ	مَا لَفَّتْ فِي خِرْقٍ وَشَمَّتْ

ت : عواطف الفتاة وأثرها على أهلها :

ترتبط الفتاة بأبيها علاقة حب متبادلة، وهذا أمر واضح بجلاء في الشعر العربي، كانت دائمة الخوف على أبيها، دائمة القلق من مستقبل مجهول قد يفجعها بموته، حيث تفقد من يوفر لها الأمن والأمان والعيش الهانئ الرغيد، تفقد القلب الذي يحنو عليها، ويحبها حباً فطرياً خالصاً لذلك نجدها تحاول بكل ما أوتيت من قوة أن تمنعه من الخروج للسفر مثلاً، وذلك خوفاً من أن يطول السفر، أو يحول الموت بينهما ،

والناظر في شعر مالك بن الريب، يرى مدى علاقة الحب التي تجمع البنت بأبيها في مشهد يجلي تلك العواطف والمشاعر الجياشة من كلا الطرفين، يقول أبو عبيدة: (5) " لما

(1) المرأة في الشعر الجاهلي ، علي الهاشمي : 218 .

(2) ديوان الحماسة : 195 .

(3) أمت : الأئمة المرأة بلا زوج ، - الكنة : قال الخليل هي امرأة الأخ أو الابن . ويريد بها هنا امرأة نفسه ، - الشعث : اغبرار الشعر ، - الرهان هنا : الجراد ، - والجمة : مجتمع شعر الرأس .

(4) ألمت : نزلت ، - المناجزة بالقتال ، - والجز : القطع ، اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن .

(5) انظر الأغاني : جزء 22 : 317 .

خرج مالك بن الريب مع سعيد بن عثمان تعلقت ابنته بثوبه، وبكت، وقالت له : أخشى أن يطول سفرك أو يحول الموت بيننا، فلا نلتقي، فبكى وأنشأ يقول (1):

ولقد قلت لابنتي وهي تبكي
وهي تُدري من الدموع على الخد
بدخيل الهموم قلباً كئيباً
عبرات يكدن يجرحن ما جُرُ
ين من لوعة الفراق غروباً (2)
ن به أو يدعن فيه ندوبا
حذر الحتف أن يصيب أباهما
ويلاقي في غير أهل شعوباً (3)

إن ابنة مالك بن الريب، تحاول ثني أبيها عن السفر، بأقوى سلاح عندها، ألا وهو البكاء حيث أنها تتعلق بثوبه، وتبكي بشدة وحرارة، خوفاً من فراق والدها، وخشية أن يموت والدها، في بلد غير بلده، إنها عواطف جياشة صادقة تحملها هذه البنت لأبيها .

ولم يغفل الأب وهو في هذا الجو المفعم بالحزن، والألم الذي يعتصر القلب، أن يصف جمال ابنته ونعومتها، ورقتها، حين يقول : تكاد دموع ابنته أن يجرحن خديها، أو يتركن فيهما ندوباً، فأى رقة ونعومة وشفافية في الوجه هذه ، يقول :

عبرات يكدن يجرحن ما جُرُ
ن به أو يدعن فيه ندوبا

ويصادف هذه المناشدة، وهذه الدموع وهذه العاطفة الجياشة ، قلباً عطوفاً، يعتصر ألماً من شدة هذا الموقف، وأي شيء يؤثر في الآباء أكثر من البنات، لذلك نجد الشاعر يطلب من ابنته أن تسكت، وتكف عن المناشدة، رأفة بحاله، فالموت والحياة بيد الله يقول (4):

اسكتي قد حزرت بالدمع قلبي
فمسي الله أن يدافع عني
طالما حز دمعن القلوب با
ليس شيئاً يشاؤه ذو المعالي
ودعي أن تقطعي الآن قلبي
رب ما تحذرين حتى أووبا
بعزيز عليه فادعي المجيبا
أو تريني في رحلتي تعذيبا

إن الشاعر من رفته، واشفاقه على ابنته، لم يرد أن يتركها على هذه الحال، لكيلا يظل معذباً في رحلته بسببها، لذلك يطلب منها الكف عن بكائها، والدعاء له، فكل شيء بيد الله ورهن قضائه .

(1) السابق : 317 .

(2) الغروب : جمع الغرب ومن معانيه : الدار العظيمة ، والدمع ومسيل الدمع .

(3) شعوب : علم على الموت .

(4) الأغاني جزء 22 : 317 .

إن الأب يدرك دائماً أن ابنته بحاجة له دائماً، وسيطر عليها هاجس الموت من فقده، لذلك نجدها تسعد وتفرح بعودته، يقول أبو خراش (1):

تقول ابنتي لما رأتي عشيّةً سلّمت وما إن كدت بالأمس تسلّم

والأب يعلم علم اليقين أن ابنته بحاجة دائمة له لذلك فهو يحرص على ألا يسوؤها شيء، كما يحرص على حياته من أجلها، فما إن ينجو من أعدائه حتى نجد أن صورة أهله وأبنائه أول ما يتبادر إلى ذهنه، يقول الأعم الهذلي (2):

وذَكَرتُ أهلي بالعراءِ وحاجةِ الشُّعثِ التّـوالبِ

المُصرِّمينَ من التّلالِ اللّامِحينَ إلى الأَقـاربِ

انه يدرك بفطرته شدة حاجة أهله وأبنائه بما فيهم الجانب الأضعف وهو البنات، يدرك أنهم بحاجة إليه، ينتظرون عودته، لان في وجوده أمناً وأماناً، ودفعاً لغائلة الزمن وعادياته .

إن البنت أكثر ما يكسر قلبها، هو بعد الأب، أو فقده، لان الأب هو الذي يحميها ويرعاها ويدراً عنها كل ظلم قد يقع عليها، فتعيش في كنفه هانئة مطمئنة، لأن البنت قد تجد بعض الغفلة من الاخوة، وذلك لانشغالهم بزواجهم وأبنائهم . وشؤونهم مما يجعلها عرضة للمعاناة، أما الأب فلا يشغله عن ابنته شيء مهما كان .

وقد يكون الأخ - وهذا كثير - محباً لاخته عطوفاً عليها، رحيماً بها، مما يجعل الاخت تحبه حباً عميقاً ، حباً فطرياً، فتحيا أيضاً في كنفه بعض حياتها معززة مكرّمة فإذا ما أصابه مكروه سارعت إلى البكاء عليه وراثته، فقد رثت ربطة اخت تأبط شراً أباها عندما علمت بموته وهي يومئذ متزوجة في بني الدليل فقالت (3):

نعم الفتى غادرتم برخمـان بثابت بن جابر بن سفيان

ويروى أن حاجز الأزدي خرج في بعض أسفاره فلم يعد ولا عُرِف له خير، فكانوا يرون أنه مات عطشاً أو ضل، فقالت أخته ترضيه (4):

أحيّ حاجزٌ أمّ ليسَ حياً فيسئُك بين جنْدِفِ والبَهِيمِ (5)
ويشرب شربةً من ماءِ تـرجٍ فيصْدِرُ مِشِيَةَ السَّبَّـعِ الكَلِيمِ (6)

(1) الأغـانـي جزء 21 : 233 .

(2) ديوان الهذليين : 315 .

(3) الأغـانـي ، جزء 21 : 190 .

(4) الأغـانـي جزء 13 : 217 .

(5) جندف : جبل باليمن ، - البهيم : جبل أيضاً .

(6) تـرج وبيشة : قريتان متقابلتان بين مكة واليمن .

ورثت أخت عمرو بن العجلان أخيها عمرو بقولها (1):

فَأَقْسِمُ يَا عَمْرُو لَوْ نَبِهَاكَ إِذَا نَبَهَا مِنْكَ دَاءٌ عَضَّ الـ
إِذَا نَبَهَا لَيْثَ عَرِيْسَةٍ مَفِيئَةً مَفِيداً نَفُوساً وَمَالاً (2)
وَحَرْقٌ تَجَاوَزَتْ مَجْهُولَةً لَوْ جُنَاءَ حَرْفٍ تَشْكِي الكَلَالِ (3)
فَكُنْتُ النَّهَارَ بِهِ شَمْسُهُ وَكُنْتُ دُجَى اللَّيْلِ فِيهِ الهَلَالِ

انهن يشبهن اخوانهن بالأسود الضارية، وهذه الصورة للأخ لم تأت جزافاً وإنما نبعث من احساس عميق لدى الأخت بأن أخاها، هو حاميتها والذائد عنها، كذلك تشبیهه بالشمس التي هي مبعث الضوء والفيء والطمأنينة للناس، كما كان هو مبعث الطمأنينة والأمن والأمان لها، كذلك شبهته بالبدر في ظلمة الليل حيث أن نور البدر يبدد ظلمة الليل الحالكة، وكذلك الحياة بدون الأخ تظل حياة سوداوية، مظلمة قاتمة، لا يبدد ظلامها إلا رؤية الأخ الحبيب الغالي . كذلك نجدها ترثيه بوصف آخر فتقول (4):

الطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ يَتَّبِعُهَا مُتَعَجِّراً مِنْ نَجِيْعِ الجَوْفِ أُسْكُوبُ
والتَّارِكُ القِرْنَ مَصْفِراً أَنَامِلُهُ كَأَنَّهُ مِنْ رَجِيْعِ الجَوْفِ مَخْضُوبُ

انه الأخ البطل في عين أخته، والذي تتمناه دائماً كذلك، ليحميها ويذود عنها، لذلك فهي تبكيه، مفجوعة على فراقه، معددة بعض خصاله، وهذا يدل على مدى حب الأخت لأخيها، ذلك الذي ينم عن عاطفة صادقة، وفطرة سليمة، وحب خالص .

(1) العمدة لابن رشيقي ، مطبعة السعادة ، جزء 2 : 31 .

(2) العريسة : شجرة الملتف

(3) الخرق : المكان الواسع ذو الرياح ، - الوجناء : الناقة ، - الحرف : الهزيلة .

(4) الأغاني ، جزء 20 : 22- 23 .

رابعاً : القريبة

أقصد بالقريبة هنا الخالة، التي هي بمنزلة الأم، فاحترام العربي وحبه لأمه يمتد ليشمل الخالة، الخالة التي لا تقل محبتها عن محبة الأم، وقد نجد من الشعراء الصعاليك من يؤلمه أن تضام خالته، دون أن يجد ما يفنديها إنه أمر شق عليه وأشاب رأسه، يقول السليك مصوراً حسرتة وألمه وحرقتة من عجزه عن افتداء خالاته وتخليصهن من السبي وحياة الرق :

ألا عتبت على فصارمتني وأعجبها ذوو اللّم الطوال
فإني يابنة الأقوم أربي على فعل الوضيئ من الرجال
أشاب الرأس أني كل يوم أرى لي خالة بين الرجال
يشق عليّ أن يلقين ضيماً ويعجز عن تخلصهنّ مالي

إن من علو مكانة الخالة عند الصعلوك أن يفندي بها وبألمه رجليه اللتين أنقذتاه من أعدائه، فهو يفنديهما بأفضل وأثمن شيء عنده ألا وهما الأم والخالة، وهذا يدل على مكانتهما، يقول حاجز الأزدي وقد نجا من خثعم (1) :

فديّ لكما رجليّ أمي وخالتي بسعيكما بين الصفا والأثاب(2)
أوان سمعتُ القوم خلفي كأنهم حريقُ أباء في الرياح الثواقب

والعمة لها أيضاً مكانتها عند أبناء أخيها مثلها مثل الخالة وقد يذكرها الشاعر من بين النساء اللاتي يشفقن عليه، ويبكينه إن أصابه مكروه، وكيف لا تبكيه وهو يكرمها، ويزود عن حماها، ويصون شرفها ويقتل عدوها، يقول الشنفرى (3) :

إذا ما أتتني حنفتي لم أبالها ولم تذر خالتي الدموع وعمتي

فالشاعر لا يبالي بالموت إن مات، كذلك لا يبالي إن لم يبكيه أحد، وخص العمة والخالة بالذكر، لعلمه أنهن يكثرن البكاء عليه، وهذا وإن دلّ على شيء فإنما يدل على مكانة العمة والخالة عند الصعلوك ومكانة الصعلوك عندهن ،

وقد تفاخر العمة بابن أخيها، كما فعلت عمة حاجز الأزدي حين فضّلته فقالت : " كان حاجزاً لا يشبع ليلة يضاف، ولا ينام ليلة يخاف " .

(1) الأغاني جزء 13 : 216 .

(2) الأثاب : جمع أتاب وهو شجر ينبت في بطون الأودية .

(3) الأغاني جزء 21 : 211 ، ديوان الصعاليك : 18 .

خامساً : المرأة غير القريبة

المرأة غير القريبة، قد نجدها الجارة من القبيلة وقد تكون امرأة من خارج القبيلة، وهؤلاء النساء تختلف صورهن عند الصعاليك باختلاف الموقف، فقد نجدها حانقة عليه شديدة العدا، تبغضه وتكرهه، وتحرص على نصرته قومها عليه، ومساعدتهم على الامساك به . وإما نجدها كريمة معه، تحسن ضيافته، وتؤدي واجبه وقد نجدها وجلة خائفة منه، حريصة على ألا تلقاه .

أما المثال على المرأة الناقمة المبغضة للصعلوك، هذه القصة التي ذكرها صاحب الأغاني، عن أبي عمرو إذا يقول : بينما حاجز في بعض غزواته إذا أحاطت به خثعم وكان معه بشير بن أخيه، فقال له : يا بشير، ما تشير ؟ قال : دعهم حتى يشربوا ويقفلوا ويمضوا ونمضي معهم فيظنوننا بعضهم . ففعلا، وكانت في ساق حاجز شامة فنظرت إليها امرأة من خثعم، فصاحت : يا آل خثعم، هذا حاجز . فطاروا يتبعونه فقالت لهم عجوز كانت ساحرة : أكفيكم سلاحه أو عدوه . فقالوا : لا نريد عدوه فإن معنا عوفاً وهو يعدو مثله، ولكن اكفينا سلاحه . فسحرت لهم سلاحه وتبعه عوف بن الأغر حتى قاربه فصاحت به خثعم : يا عوف ارم حاجزاً، فلم يقدم عليه، وجبن، فغضبوا وصاحوا : يا حاجز لك الذمام، فاقتل عوفاً فإنه فضحنا فنزع في قوسه ليرمي، فانقطع وتره، لأن المرأة الخثعمية كانت قد سحرت سلاحه فأخذ قوس بشير بن أخيه فنزع فيها فانكسرت، وهربا من القوم ففاتاهم . فقال في ذلك (1) :

فدى لكما رجلي أمي وخالتي	بسعيكما بين الصفا والأثائب(2)
أوان سمعت القوم خلفي كأنهم	حريق أباء في الرياح الثواقب
سيوفهم تغشى الجبان ونبلهم	يضيء لدى الأقوام نار الحباب(3)
فغير قتالي في المضيق أغاثني	ولكن صريح العدو غير الأكاذب
نجوت نجاء لا أبيك تبئنه	وينجو بشير نجو أزر خاضب(4)

وأما المثال الثاني على المرأة الكريمة، التي أكرمت الصعلوك وأحسنّت ضيافته فيروي الأصمعي أن أبا خراش أقفر من الزاد أياماً، ثم مرّ بامرأة من هذيل جزلة شريفة، فأمرت له بشاة فذبحت وشويت، فلما وجد بطنه ريح الطعام قرقر، فضرب بيده على بطنه

(1) الأغاني جزء 13 : 215 - 216 .

(2) الأثائب : جمع أثاب وهو شجر ينبت في بطون الأودية .

(3) الحباب : ذباب يطير بالليل له شعاع في ذنبه كالسراج .

(4) لا أبيك : لعله أراد : لا وأبيك . نجا ينجوا نجوا : خلص . والأزرع : القليل الشعر ، الخاضب : الظلم إذا أكل الربيع فاحمرّت ساقه وقوامه ، وهو الذكر من النعام .

وقال : إنك لتقرقر لرائحة الطعام، والله لا طعمت منه شيئاً ثم قال : يا ربَّة البيت، هل عندك شيء من صبر أو مرّ؟ قالت : تصنع به ماذا ؟ . قال أريده .

فأنته منه بشيء، فاقتمحه⁽¹⁾، ثم أهوى إلى بعيره فركبه، فناشدته المرأة فأبى، فقالت له: يا هذا، هل رأيت بأساً أو أنكرت شيئاً؟ قال : لا والله، ثم مضى وأنشأ يقول⁽²⁾:

وإني لأثوي الجوع حتى يمئني
وأصطح الماء القراح فأكتفي
أرد شجاع البطن قد تعلمينه
مخافة أن أحيا برغم وذلة
فأحيا ولم تدنس ثيابي ولا جرمي⁽³⁾
إذا الزاد أضحى للمزج ذا طعم⁽⁴⁾
وأوثر عيري من عيالك بالطعم
فللموت خير من حياة على رغم

وأما المثال على المرأة الوجلة الخائفة من الصعلوك، المشفقة على نفسها ومالها منه، فقد مرّ شظاظ وهو صعلوك من بني ضبة بامرأة ترعى بازلاً وتقول : أعوذ بالله من شرّ شظاظ! وكان على بكر فنزل وقال : أتخافين على بعيرك من شظاظ؟ قالت : ما آمنه عليه، فجعل يشاغلها حتى تغافلت عن بعيرها فاستوى عليه ورفع عقيرته يقول⁽⁵⁾:

رُبَّ عجوزٍ من أناس شهيرة
علمتها الإنفاض بعد القرقرة

ويعني شظاظ بهذا البيت أنه أخذ لها بعيراً مسناً يقرقر، فركبه وذهب به، وترك لها بكراً تنقض به، فعلمها الاستماع إلى صوت صغار الإبل بعد الاستماع لقرقرة البعير الكبير .

وبعيداً عن البغض والكره، والوجل والخوف، والكرم وحسن الضيافة فإن شظاظ هذا رأى امرأة سوداء تكتحل، فأثار انتباهه هذا الموقف، حيث أن المرأة سوداء، والكحل أسود، فقال يصفها⁽⁶⁾:

كأنها والكحل في مرودها
تُكحل عينيها ببعض جلدها

هذا بعض أحوال النساء في شعر الصعاليك، سواء كانت المرأة أماً أو سبية، أو بنتاً أو أختاً، أو كانت خالة وعمّة، أو امرأة ليست من ذوات القرابة، حاولت أن أتتبع أحوالهن في شعر الصعاليك، وجئت من الشواهد بما يجلي الصورة ويوضح الفكرة والله المستعان .

(1) اقتتمحه : أي سفّه، أو أخذه في احتفه فطمه .

(2) الأغاني : جزء 21 : 238 - 239 .

(3) أثويه : أطيل حبسه عندي . - الجرم : الجسد .

(4) المزج : الذي ليس بالمتين . والمزج من الرجال : الذي ليس بالتمام .

(5) المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري، دار الكتب العلمية بيروت 1987 ، جزء 1 : 167 .

(6) المعاني الكبير في أبيات المعاني ، لابن قتيبة ، طبعة حيدر آباد (الدكن) 1949 م ص 876 .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الذي وفقني إلى إتمام هذه الدراسة، التي توصلت من خلالها إلى بعض النقاط المهمة، أذكر منها.

1- وجود الصعلكة بقوة في العصر الجاهلي، ثم اختفاؤها تقريباً في صدر الإسلام، ثم عودتها بقوة في العصر الأموي، وذلك لأسباب ذكرتها.

2- احتلال المرأة سواء محبوبة أم زوجة، أم أختاً و بنتاً، أم غير ذلك - مكانة مرموقة في العصر الجاهلي، نالت فيه حظاً وافراً من الاحترام والتقدير، والحماية والرعاية، اللهم إلا من بعض المثالب التي سببت لها بعض المعاناة، كالسبي والوأة، والحرمان من الميراث.

3- الحقيقة الثالثة المهمة، هي أن الصعاليك - كغيرهم من شعراء عصرهم - كان لهم مقدمات غزلية وطللية، واضحة لا يمكن إغفالها، أو تجاهلها أو حتى تحويرها، فالصعاليك في مقدماتهم شغلتهن المرأة - محبوبة أو زوجة فأحبوها ووقفوا على أطلالها، وتألّموا لفراقها، وبكوا واشتكوا، من أجلها، ووصفوها وصفاً دقيقاً، مادياً ومعنوياً .. إلخ.

4- وجود نماذج فريدة لوفاء المرأة العربية، وحفظها للعهد وتمسكها بالحب.

5- مثلت المرأة الزوجة نموذجاً فريداً للمرأة المحبة لزوجها، الحريصة على حياته، وأبنائه، وماله، تحاوره بكل ودّ، ومحبة فتلومه حيناً وتتهره حيناً، فيسمع لها، ويحاورها بكل رفق، ينم عن شخصية متزنة، تعرف للزوجة مكانتها وقدرها.

6- كذلك حظيت زوجة الصعلوك بنصيب وافر من شعر الصعاليك ربما أكثر من معاصرتها، وذلك لارتباط الصعاليك بزوجاتهم، فوصفوهن وصفاً مادياً ومعنوياً جميلاً.

7- كان للأُم أثر بارز في حياة الصعاليك، غير مسار حياتهم، فانقسم الصعاليك تجاهها، بين محب لها، ومشفق عليها، ومعتز بانتمائه لها وبين ناقم عليها وعلى أهلها، وعلى أبيه الذي تزوجها.

8- اهتم بعض الصعاليك بسبي النساء، لما له من أثر في إيلاهم عدوهم وقهره، ووصفوا السبايا وصفاً دقيقاً، وصوروهن تصويراً بارعاً

9- انقسم الصعاليك في معاملتهم للسبايا إلى قسمين، قسم عامل المرأة السبية بكل رفق ومودة ولين، ارتقى في بعض الأحيان إلى الحب العفيف والزواج، وقسم تلذذ بإيذائها، وقهرها.

- 10- كان أيضاً للبنت والأخت مكانة بارزة في حياة الصعلوك، سواء كان أباً أو أماً ، وظلت الفتاة عندهم محاطة برعايتهم عنايتهم، ويحبونها ويشفقون عليها، ويمدون لها يد العون لمساعدتها، فعاشت في كنفهم معززة مكرمة.
- 11- كان الصعاليك محبين لأرحامهم، مشفقين عليهن، يتألمون لمعانتهن، وهن بادلنهم هذا الشعور وهذا الحب.
- 12- اختلفت نظرة المرأة غير القريبة تجاه الصعاليك، وذلك بين محبة لهم، تكرمهم وتجبرهم وتدافع عنهم، وبين ناقمة عليهم، كارهة لهم تناصبهم العدا، وبين خائفة وجلّة مشفقة منهم، تخشى لقاءهم وتحرص على عدم رؤيتهم.
- هذه بعض نتائج البحث باختصار وانتقائية، وفي جنبات البحث، سيد القارئ الكثير من الأمور المفيدة، والتي لا يتسع المقام لذكرها، أرجو أن أكون قد وفقت في دراستي هذه لما يحب ربي ويرضى، فله الفضل والمنة وجزيل الثناء، كما يحب ربي ويرضى .

الباحث

المصادر و المراجع

1. القرآن الكريم .
2. الأغاني الأصفهاني ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثامنة ، 1990م .
3. ابن المبارك ، منتهى الطلب من أشعر العرب ، تحقيق عادل سليمان جمال ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الأولى ، 1994 م . (إلكتروني) .
4. ابن النحاس ، شرح القصائد المشهورات ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .
5. ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، مطبعة السعادة القاهرة .
6. ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، دار الفكر . و (العقد الفريد - وفود العرب) ، دار المسيرة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1981 م .
7. ابن قنينة ، الشعر و الشعراء ، الدار العربية للكتاب ، الطبعة الثالثة ، 1983 م .
8. ابن قنينة ، المعاني الكبير ، طبعة حيدر آباد (الدكن) 1949 م .
9. ابن منظور ، لسان العرب .
10. ابن هشام ، سيرة ابن هشام ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة حجازي ، القاهرة - مصر .
11. أبو تمام ، الحماسة ، شرح التبريزي ، مطبعة السعادة ، مصر ، 1927 م .
12. أبو داود ، سنن أبي داود ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر .
13. أبو زيد الأنصاري ، النوادر في اللغة ، تحقيق محمد عبد القادر أحمد ، دار الشروق ، بيروت
14. أبو فراس الحمداني ، الديوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1993 م .
15. أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري ، شرح أشعار الهذليين ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، مكتبة العروبة ، القاهرة .
16. أحمد الحوفي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، دار نهضة مصر - القاهرة .
17. الأصمعي ، الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر و عبد السلام هارون ، الطبعة الرابعة .
18. الأعشى ، الديوان ، شرح محمد محمد حسين ، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان
19. الأعلام الشنتمري ، شعر سهيل بن أبي سلمى ، تحقيق فخر الدين قباوة .
20. إبراهيم الخواجة ، عروة ابن الورد ، حياته و شعره ، مكتبة النصر التجارية ، نابلس ، الطبعة الثانية ، 1987 م .
21. إسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت - لبنان ، 1987 م .
22. البخاري ، صحيح البخاري ، دار الفكر ، القاهرة - مصر .

23. البطليوسي ، الحلل في إصلاح الجمل ، تحقيق سعيد عبد الكريم سعودي ، بغداد ، 1980 م .
24. البكري، سمط اللآلي على أمالي القالي ، لجنة التاريخ و الترجمة - القاهرة ، 1935 م .
25. الثعالبي، المنتخب في محاسن أشعار العرب ، تحقيق عادل سليمان جمال ، مكتبة الخانجي ، القاهرة - مصر ، 1993 م .
26. الثعالبي، ثمار القلوب ، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ، 1965 م .
27. ج.ك.فاديه ، الغزل عند العرب ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، طبعة الأصل ، باريس 1968 م .
28. الجاحظ ، البرصان و العرجان و العميان و الحولان ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1981 م .
29. الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة الحلبي القاهرة - مصر ، الطبعة الثانية ، 1966 م .
30. جرير بن عطية ، الديوان ، شرح مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية ، 1992 م .
31. حاتم الطائي ، الديوان ، شرح فوزي عطوي ، دار صعب ، 1980 م .
32. حسان بن ثابت ، الديوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، 1986 م .
33. حسين عطوان ، الشعراء الصعاليك في العصر العباسي ، دار الطليعة بيروت ، الطبعة الثانية ، 1981م .
34. حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، دار المعارف ، مصر ، 1974 م .
35. حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، 1970 م .
36. الحطيئة ، الديوان ، رواية و شرح ابن السكيت ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان 1993 م .
37. الخالديان ، الأشباه و النظائر ، تحقيق السيد محمد يوسف ، لجنة التأليف و الترجمة ، القاهرة ، 1965 م .
38. الخرنق بنت بدر ، الديوان ، رواية أبي عمرو بن العلاء ، شرح يسري عبد الله ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، 1990 .
39. الزمخشري ، المستقصى ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة .
40. السليك ، الديوان ، شرح سعد الضناوي ، دار الكتاب العربي ، 1994 م .
41. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق القاهرة - بيروت، الطبعة السابعة عشرة، 1992م .
42. السيوطي ، الجامع الصغير ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت ، 1981 م .
43. شوقي ضيف ، البطولة في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، 1970 م .
44. طرفة ابن العبد ، الديوان ، شرح مهدي ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ،

- 1987 م .
45. الطرماح ، الديوان ، وزارة الثقافة و السياحة ، دمشق ، 1968 م .
46. عبد الحلیم حفني ، شاعر الصعاليك الشنفرى ، المطبعة النموذجية ، مصر .
47. عبد الحلیم حفني ، شعر الصعاليك ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة .
48. عبد الله عفيفي ، المرأة العربية في جاهليتها و إسلامها ، مطبعة المعارف ، مصر ، الطبعة الثانية ، 1932 م .
49. عروة ابن الورد ، الديوان ، شرح أسماء أبو بكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، 1992 م .
50. عزازي علي عزازي، شعر بني عبس في الجاهلية ، رسالة ماجستير ، جامعة الزقازيق .
51. علي الجندي ، شعر الحرب في العصر الجاهلي ، دار الفكر العربي القاهرة ، 1989 م .
52. علي الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، مطبعة دار المعرف - بغداد ، 1960 م .
53. عنتره ابن شداد ، الديوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى، 1985 م .
54. الفرزدق ، الديوان ، مطبعة الصاوي ، مصر ، 1354 هـ .
55. المبرّد ، الكامل في اللغة و الأدب ، تحقيق محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، 1993 م .
56. محمد بن حسان السديس ، في أفياء الشعر منذ الجاهلية حتى آخر العصر الأموي ، كتاب الرياض (العدد 81 ، 82) .
57. محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمد شاكر ، دار المعارف ، 1952 م .
58. محمد عبد الحميد القاضي ، بلوغ الأرب في شرح لامية العرب .
59. محمد فؤاد عبد الباقي ، اللؤلؤ و المرجان في ما اتفق عليه الشيخان ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، 1997 م .
60. محمد مصطفى هدارة ، دراسات في الشعر الجاهلي ، طبعة دار المعارف ، 1982 م .
61. مسلم ، صحيح مسلم ، مكتبة الجمهورية العربية ، القاهرة - مصر .
62. المفضل الضبي ، المفضليات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، بيروت - لبنان ، للطبعة السادسة .
63. الميداني ، مجمع الأمثال ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان .
64. نبيل خالد أبو علي ، شاعرات عصر الإسلام الأول ، دار الحرم للتراث ، القاهرة - مصر .
65. يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة .

66. يوسف فرحات ، ديوان الصعاليك ، دار الجيل ، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ، 1992 م .
67. مجلة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، مجلد 13، (العدد 1) 1991م .
68. الموسوعة الشعرية، المجمع الثقافي (إلكتروني) .

قائمة المحتويات

رقم الصفحة	الموضوع
أ	الإهداء
ب	شكر وتقدير
ت	ملخص الدراسة باللغة العربية
ث	ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية
ج	المقدمة
د	التمهيد
1	أولاً : الصعلكة
1	أ - مفهومها
3	ب - أسبابها
10	الإسلام والصعلكة
14	الأسباب التي أدت إلى عدم توقف الصعلكة في عهد بني أمية
18	ثانياً : مكانة المرأة في العصر الجاهلي :
18	1- المكانة الاجتماعية
20	2- حقوقها
23	3- واجباتها
27	4- معاناتها
29	5- الوأد
32	ثالثاً : مكانة المرأة في الإسلام :
32	1- الحق في الحياة
34	2- المنزلة الرفيعة
36	3- الحق في الميراث
37	4- حقوق أخرى
37	أ- الحق في اختيار الزوج
37	ب- الحق في المهر
38	ت- الطلاق

40	الفصل الأول : المحبوبة في شعر الصعاليك
40	أولاً : مقدمات القصائد عند الصعاليك :
42	1- أشكال العلاقة بين الشاعر الصعلوك والمحبوبة في الشعر
47	2- الغزل بالمحبوبة.....
61	3- الحوار بين الشاعر والمحبوبة.....
65	ثانياً : الحب وآثاره.....
65	1- هجر المحبوبة وبعدها
67	2- الأرق.....
69	3- شدة الحب.....
73	4- البكاء.....
75	5- تبادل الحب.....
82	ثالثاً : ملامح المحبوبة وصفاتها :
82	1- الصفات المعنوية
88	2- الوصف المادي للمحبوبة
94	رابعاً : وفاء المحبوبة :
99	نماذج من رثاء المحبوبة.....
	الفصل الثاني : الزوجة في شعر الصعاليك
103	أولاً : مكانة الزوجة في الشعر الجاهلي
108	ثانياً : حضور الزوجة في شعر الصعاليك
109	ثالثاً : صفات الزوجة :
109	1- الصفات المعنوية
118	2- الصفات المادية
124	رابعاً : أثر الزوجة على الصعلوك :
124	1- لومها له، وخوفها عليه من مخاطر الصلعة.....
129	2- حثها له على التحلي بالشجاعة
137	3- حرصها على ماله وعياله
140	خامساً : عصبية الزوجة وعلاقتها بأهلها
	الفصل الثالث : نساء أخريات
147	أولاً : الأم

147	1- مكانة الأم في الشعر الجاهلي
151	2- مكانة الأم عند الصعاليك
159	3- حب الأم لأبنائها وتربيتها لهم
162	4- عقوق الأم
165	ثانياً : السببية :
165	1- السبي في العصر الجاهلي
173	2- السببية في شعر الصعاليك
173	أ- الفخر بالسبي وتعبير الأعداء
176	ب- صورة السببية في شعرهم
178	ت- معاملة السبايا
181	ث- حماية النساء والذود عنهن
184	ثالثاً : الفتاة في شعر الصعاليك
184	1- وصفها وتربيتها
186	2- مكانتها عند أهلها
188	3- عواطف الفتاة وأثرها على أهلها
192	رابعاً : القرابية :
193	خامساً : المرأة غير القرابية :
195	الخاتمة
197	المصادر
201	فهرس الموضوعات